

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

Handwritten text on a rectangular piece of paper, oriented vertically. The text is written in blue ink and appears to be a list or index of items, possibly related to a collection or inventory. The writing is somewhat faded and difficult to read precisely, but the structure suggests a list of entries.

A 11 12 13 14 15 16 17 18 19 20 21 22 23 24 25 26 27 28 29 30 31 32 33 34 35 36 37 38 39 40 41 42 43 44 45 46 47 48 49 50 51 52 53 54 55 56 57 58 59 60 61 62 63 64 65 66 67 68 69 70 71 72 73 74 75 76 77 78 79 80 81 82 83 84 85 86 87 88 89 90 91 92 93 94 95 96 97 98 99 100

Handwritten text at the bottom of the paper, possibly a signature or a date, written in blue ink.

cat 16 Feb. '53



290
D214A
الدكتور محمد عبد الله دراز

عضو جماعة كبار العلماء

290
D214A
C.1

الدين

بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان

١٣٧١ - ١٩٥٢

الطبعة الثانية ١٦٦ صفحات

cat 16 Feb. '53

مكتبة جامعة القاهرة
القاهرة

المسئول: الأستاذ الدكتور

عبد الحليم

عبد الحليم

عبد الحليم



١٤٢٠
١٤٢١
١٤٢٢
١٤٢٣
١٤٢٤
١٤٢٥
١٤٢٦
١٤٢٧
١٤٢٨
١٤٢٩
١٤٣٠
١٤٣١
١٤٣٢
١٤٣٣
١٤٣٤
١٤٣٥
١٤٣٦
١٤٣٧
١٤٣٨
١٤٣٩
١٤٤٠
١٤٤١
١٤٤٢
١٤٤٣
١٤٤٤
١٤٤٥
١٤٤٦
١٤٤٧
١٤٤٨
١٤٤٩
١٤٥٠
١٤٥١
١٤٥٢
١٤٥٣
١٤٥٤
١٤٥٥
١٤٥٦
١٤٥٧
١٤٥٨
١٤٥٩
١٤٦٠
١٤٦١
١٤٦٢
١٤٦٣
١٤٦٤
١٤٦٥
١٤٦٦
١٤٦٧
١٤٦٨
١٤٦٩
١٤٧٠
١٤٧١
١٤٧٢
١٤٧٣
١٤٧٤
١٤٧٥
١٤٧٦
١٤٧٧
١٤٧٨
١٤٧٩
١٤٨٠
١٤٨١
١٤٨٢
١٤٨٣
١٤٨٤
١٤٨٥
١٤٨٦
١٤٨٧
١٤٨٨
١٤٨٩
١٤٩٠
١٤٩١
١٤٩٢
١٤٩٣
١٤٩٤
١٤٩٥
١٤٩٦
١٤٩٧
١٤٩٨
١٤٩٩
١٥٠٠

١٧٦١ - ٢٥٢١

١٧٦١ - ٢٥٢١

١٧٦١ - ٢٥٢١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

منذ ثلاثة أعوام ، ولأول مرة في عهد جامعاتنا المصرية ،
أرسلت جامعة « فؤاد الأول » في برامج كلية الآداب بلا ، مادة
« تاريخ الأديان » لطلبة فرع الاجتماع من قسم الدراسات الفلسفية ؛
وحض ذلك اليوم ، فهدتني إلى في أنه أقوم بتدريس
هذه المادة ، وفوضتني إلى أمر الخطبة والمنهج ؛
فأيت من الخير ، قبل الدفول في الدراسات التفصيلية
لمختلف الأديان — وهي دراسات من اليسور نسبيا الرجوع
فيها إلى أهد المؤلفات المعروفة في اللغة العربية أو غير العربية —
أنه أقدم بيده بلا بجموعا عامة تتبنيه بلا مالهية الدين ، ونسأته ،
ووظيفته في الحياة ، إلى أسباب ذلك من الأصول الكلية ، التي
يجب فيها الطالب الجامعي مجازا لوجها الرأى ، وتدريب ملكته الحكم ،
والتي لم يقدر إلا أنه تجمع في كتاب من قبل .

ولنا إذ نزل اليوم على رغبة الطلبة الملتزم ، في نشر ما سبقنا
دراسة من هذه المسائل الأخرى ، نرجو أنه نكون بذلك قد كفيانا
لهم ولغيرهم من سبب الاطلاع فرصة لفكرة الفاعلة ، والبعث الأديان
الترزية ؛ حتى إذا تساؤلوا مله حاجته لتتذنب أو تكمل ، كانه من
عقلهم ، بل من هذه العلم عليهم ، أنه يهدوا لنا ما حثناهم القيمة ،
شكوريه مأجوريه

١٣٧١/٧/٩ هـ

٢١٩٥٢/٤/٤

مؤيد الدين

حياكم ، ولكن الجوع الأديان أهدنا لا عاقله يوم أن المصريين
من أرف السبق قبل ملاحقهم مع السلام بدأنا وسنكون معكم
وعزائكم ، ووقائهم ، وأولئك حياكم ، أنوالا مفرقة مستورتي

[Faint, illegible handwriting, likely bleed-through from the reverse side of the page.]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

كلمة « تاريخ الأديان » كلمة معربة عن لغة الفرنجة ، قال الدكتور محمد
 والتسمية بهذا الاسم مستحدثة ، لم تعرفها أوروبا إلا عند فجر القرن
 التاسع عشر ؛ فعندما بدأ في ميدان التاريخ والدراسة التاريخية ،
 على أن الحديث عن العقائد البشرية هو في جوهره شأن قديم ، معاصر
 لاختلاف الناس في ملهم ونحلهم ؛ تتسع مادته حيناً ، وتضيق حيناً ، بمقدار
 تعارف أهل الأديان فيما بينهم ، ووقوف بعضهم على مذاهب بعض ؛ كما
 يختلف طابعه ووجهته ، مسaireً لتثعب نزعات الباحثين وأهدافهم .
 ولو أننا تتبعنا سلسلة الحديث عن الأديان في عهد الفراعنة ، فاليونان ،
 فالرومان ، فالمسيحية ، فالإسلام ، فالنهضة الحديثة ، لاستطعنا أن نتبين
 اختلاف صورته فيما بين العصر والعصر ، بل ربما بين الفترة والفترة من
 فترات العصر الواحد .

العصر الفرعوني :

لم يصل إلى أيدينا سجل جامع دوّن فيه قدماء المصريين دياناتهم وديانات
 جيرانهم ؛ ولكن البحوث الأخيرة أثبتت إثباتاً لا يخالطه وهم أن المصريين
 منذ ألاف السنين قبل ميلاد المسيح عليه السلام بدأوا يسجلون عقائدهم ،
 وعواندهم ، ووقائعهم ، وألوان حياتهم ، أقوالاً متفرقة ، مسطوره في

قراطيس البردى ، أو منقوشة على جدران المقابر والمعابد ؛ وأنهم تركوا إلى جانب ذلك مجموعات عظيمة من التماثيل المنحوتة ، والأجساد المنحطة ، الملوّكهم ورؤسائهم ومقدساتهم من الطير والحيوان والأناسى وغيرها . . . وكذلك صنعوا في شأن الأقاليم التي افتتحوها (كبلاد النوبة وسوريا والعراق وغيرها) .

وعلى قدر سعة فتوحهم اتسعت صدورهم لمختلف العقائد ، فتركوا لكل إقليم حريته في تقديس ما شاء ، واتخاذ ما شاء من الرموز الموضوعية . . . وامتدت روح التسامح هذه إلى مدارسهم الفلسفية الدينية ، فكان عمل هذه المدارس هو محاولة التوفيق بين تلك المقدسات والمعبودات ، بافتراض أنها أسرة واحدة يرتبط بعضها ببعض ، ارتباط الزوجية أو الولادة ، بحيث يتألف منها مجموعات : « ثالوث » أو « تاسوع » أو عدد أدنى من ذلك أو أكثر . . .

ولم يشذ عن هذا الطابع إلا عصور قليلة كانت تنزع إلى الانتصار لبعض العقائد ، والمقاومة لبعضها ؛ ومن أمثلة ذلك ما صنعه مدرسة « عين شمس » ، حين حاولت إبطال كل عبادة إلا عبادة إله الشمس ؛ وما صنعه الملك « أمنحوتب » الرابع ، الملقب بأخناتون ، حين ثار على كل المظاهر الوثنية . فحما الصور والتماثيل من المعابد ، وأمر بعبادة إله واحد ذى مظهرين : « الشمس » في السماء ، و « الملك » على وجه الأرض .
غير أن هذه الثورات لم تدم آثارها طويلا ، وكانت السنة الغالبة لدى الملوك والكهان ، هي تأليف قلوب أتباعهم ورعاياهم ، بتمكينهم من ملء المعابد بتلك الأسماء والرموز المختلفة (١) .

(١) تدل بعض أوراق البردى المحفوظة الآن في برلين وفي ليدن على أن المصريين منذ القدم كانوا يعرفون الإله الأحد ، النبي ، الأزلي ، الذي لا تصوره الرسوم ، ولا تحصره الحدود (راجع موسوعة التاريخ العام للديانات ، Histoire Générale des Religions ، المجموعة من المؤلفين الفرنسيين ج ١ ص ٢٥١ - ٢٥٢) . غير أن تلك =

العصر الإغريقي :

لم يبق الآن مجال للشك في أن القدامى من علماء اليونان وفلاسفتهم تخرجوا في مدرسة الحضارات الشرقية^(١). والحضارة المصرية بوجه أخص . وليس معنى هذا أن الإغريق كانوا بمثابة أوعية مصممة نقلت علوم الشرق ومعارفه نقلاً حرفياً ، فذلك ما لا يستسيغه عقل ، ولم يقر عليه دليل من صحيح النقل ؛ ولكن المعنى أنهم لم ينشئوا هذه العلوم إنشاءً على غير مثال سابق ، كما ظنه بعضهم ، بل وجدوا مادتها في الشرق فاقتبسوا منها وأفادوا كثيراً .

وإن قدماء اليونان أنفسهم يذهبون في الاعتراف بهذه التلمذة إلى القول بأن عظماءهم أمثال فيثاغورس وأفلاطون مدينون بأرقى نظرياتهم إلى المدرسة المصرية . والناقدون المحدثون وإن استبعدوا حصول نقل حرفي لهذه النظريات لم يسعهم إلا التسليم بتبعية هؤلاء الفلاسفة ، في الدين والأخلاق ، للنظريات المصرية^(٢) .

أقدم الآثار الأدبية التي حفظها لنا التاريخ عن العصر الإغريقي ينتمي إلى ما حول القرن العاشر قبل الميلاد المسيحي . وأشهر هذه الآثار الديوانان

= العقيدة الروحية كانت مشوبة عند العامة بفكرة أن هذا الإله يتمثل أو يتجسد أو يحل سره في بعض الكائنات الممتازة : من إنسان أو حيوان أو جماد . فكانوا يعتقدون أن قوة التدبير في الملوك ، وقوة الإخصاب النباتي في النيل ، وقوة الإخصاب الحيواني في عجل أيس ، مستمدة من السماء (بتلقيح شعاع الشمس مثلاً) وأن هذه الكائنات الخاصة أهل لتقديس والعبادة بفضل تلك الصلة السرية بالإله الأعلى .

(١) انظر إميل برّييه Emile Bréhier في « تاريخ الفلسفة » Histoire de la Philosophie س ٣ - ٥ - وقرأ أيضاً ماسون أورسيل Masson-Oursel في كتاب « الفلسفة في الشرق » La Philosophie en Orient س ٧ من الطبعة الفرنسية . وقد ترجمه إلى العربية الدكتور محمد يوسف موسى .

(٢) راجع بينار دي لا بولي Pinard de la Boullaye في دراسته المقارنة للديانات

Etude Comparée des Religions جزء ١ س ٨ ، ١١ ، و ١٤ بالهامش رقم ٦ .

المنسوبان إلى هوميروس Homère^(١) : أعنى الإلياذة l'Iliade والأوديسا l'Odyssée . وهما سلسلتان من القصص الشعرى عند قدماء اليونان ، زى فيهما صورة مغامراتهم فى الأسفار ، وبلائهم فى الحروب ، وتنافسهم فى الغنائم والأسلاب ، وما كان ينزل بهم من عجيب التوازل العامة والخاصة . غير أنه يكاد لا يخلو شأن من هذه الشؤون دقيقتها وجليلها من ذكر أسماء آلهتهم وآلهة خصومهم ، ووصف القربات والضحايا والتوسلات التى كان يتوجه بها كل مظلوم أو مكروب إلى إلهه ، وذكر ما يجرى فى زعمهم بين آلهة السماء حين تتشاور فيما بينها ، وحين تتنازع وتنقسم آراؤها فى الانتصار لهذا الفريق أو ذاك . . . إلى غير ذلك .

وهكذا تتميز هذه المرحلة : - ١ - بضيق رقعة البلاد والأمم التى يتناولها الوصف . - ٢ - وبأن شؤون الأديان فيها إنما تساق عرضاً^(٢) فى ثنايا الشؤون الحوية الأخرى . - ٣ - وبما تنسم به رواياتها من الطابع الأسطورى والتخيلى ، الذى يستمده الكاتب من خياله وأسلوب تفكيره فى تعليل الحوادث والتوازل .

بلى هذا دور الرحلات للمؤرخين الوصافين أمثال هيرودوت Hérodote (المتوفى فى أواخر القرن الخامس ق .) . وهذا الدور وإن كان كسابقه لم يفرد فيه الأديان تأليف مستقل ، حيث كان الحديث عنها يمزج بالأوصاف الإقليمية وغيرها ، إلا أن الاعتماد فيه كان على المشاهدات لا على التخيلات ؛ كما أن نطاق البحث فيه كان أوسع ، فقد شمل ديانات آسيا الصغرى ،

(١) يختلف المؤرخون فى تحديد مولد (هوميروس) على أقوال : أدناها أول القرن التاسع قبل الميلاد ، وأبعدها أول القرن الحادى عشر ؛ كما يختلف الناقدون فى نسبة الديوانين كليهما إليه .

(٢) أما الحديث المسترسل عن المعبودات اليونانية فإنما ظهر بعد ذلك . ولعل أول ظهوره كان فى القرن الثامن قبل الميلاد فى قصيدة « أنساب الآلهة » La Théogonie التى يضيفونها إلى هيرودوت Hérodote أو إلى أحد تلاميذه .

ومصر ، وبابل ، وفارس وما يتاحها ؛ وامتاز أيضاً بطابع المقارنة بين معبودات الإغريق ومعبودات غيرهم ، مقارنة تميل إلى تفضيل وجهة النظر المصرية ، وإلى نقد الأخطاء التي كان يقع فيها عامتهم بسبب الاشتراك اللفظي ، حين يكون الاسم الواحد (مثل هيرقل Hercule) علماً على إله أزلي ، وعلى بطل من أبطال البشر .

ولقد كانت فتوح الاسكندر المقدوني (المتوفى في الربع الأخير من القرن الرابع ق .) سبباً في انفساح مجال المعرفة لأديان أخرى ، حيث وصلت جيوش الاسكندر إلى الهند ، وكتب عنها ميغاستين Négasthènes (القرن الثالث ق .) .

إلى جانب هذه الدراسات الوصفية لمختلف الأديان المعروفة إذ ذاك ، قامت دراسات تقليدية فلسفية تهدف إلى تمحيص حقيقة الدين بوجه عام في ثنايا البحث عن حقائق الأشياء . وأحق الأسماء بالذكر في هذا الضرب من البحث اسم الفيلسوفين العظيمين ، أفلاطون Platon (آخر الخامس وأول الرابع ق .) وتلميذه أرسطو^(١) Aristote (الرابع ق .) . وكان من مذهبهما أن السبب الأول ، الأزلي باطلاق ، المبدأ لكل حركة وتغيير ، ليس هو المادة ، بل روح عاقل مدبر ، متصرف في المواد^(٢) . وأن العقائد

(١) يعترف أرسطو بأن لها سلفاً في ذلك ، وهو أنا جزاجور Anaxagore (الخامس

ق . م .) .

(٢) يقول أفلاطون في الجزء العاشر من كتاب القوانين (Platon Les Lois, L. X) :

إن الروح هي أول موجود ، وهي المبدأ الأصيل le point de départ ، وهي سبب الكائنات بلا استثناء ، وسبب كل حركة وتغيير فيما كان وما هو كائن وما سيكون ، وإنها هي التي تدبر السماء والأرض ، وإليها مرد كل تركيب وتحليل ، ونمو وتقص ، وخير وشر ، وحسن وقبيح ، وعدل وظلم ، وكل الأضداد والمتقابلات (الفقرة ٨٩٦ من الجزء المذكور) وأنها منشأ كل شيء à l'origine de la génération de toutes choses (الفقرة ٨٩٩) . ويتساءل : أي نوع ترى من الأرواح هذه الروح الأزلية ؟ أمي الروح الموصوفة بالحكمة والفضيلة ، أم روح ليست لها هذه الصفات ؟ ثم يجيب بأن كل ما في الكون من نظام وتدبير على أدق حساب يدل على أنها الروح التي لها المثل الأعلى في الكمال (الفقرة ٨٩٧) .

والفلسفات كانت في بدايتها نقية نبيلة ، ثم تطورت تطوراً تنازلياً^(١) وأن
الفضيلة وسط بين طرفي الإفراط والتفريط^(٢) .
وإلى هذين الفيلسوفين — ومن قبل ذلك إلى معلمهما سقراط Socrate
(أواخر الخامس ق .) — يرجع الفضل في تأسيس الفلسفة التحقيقية
الإيجابية (التي تعترف بوجود حقيقة ثابتة للأشياء ويأمكن العلم بها) وفي
تفنيد مذاهب الجحد والعناد التي تنكر وجود أية حقيقة ثابتة ، وتدعي
استحالة العلم بها أو تعليمها (على فرض وجودها) ؛ تلك المذاهب التي كان
يروّجها السوفسطائية ، وهم قوم أوتوا الجدل والمغالطة والتعويبه ، واتخذوا
الفلسفة صناعة كلامية يؤيدون بها المتناقضين على السواء ، ويهدمون بها كل
العلوم حتى بدايات العقول ، ملتجئين بهذا السحر الياني وهذه المهارة في
قلب الأوضاع نيل ما استطاعوا من جاه وثروة وسلطان .
ثم خلفت خلوف اتسبوا إلى أفلاطون ومدرسته l'Académie ، التي
امتد اسمها إلى القرن الأول قبل الميلاد ، ولكنهم لم يكونوا جديرين بهذه
النسبة ، إذ بعدوا عن مذهب إمامهم وكانوا إلى الشك أقرب^(٣) منهم إلى

ويقول أرسطو في الفصل السادس من الجزء الثاني عشر من كتاب (إموراها الطبيعية)
(Aristote, Métaphysique, L. XII, ch. 6) : إنه يوجد حتماً ذات أزلية قادرة على
إحداث التغييرات ، وإن هذه الذات يجب أن تكون غير مادية ، وأن تكون موجودة بالفعل
لا بمجرد القوة والإمكان ، وإلا لما حدث شيء في الوجود . إنه لا شيء يتحرك مصادفة ، بل
لا بد من وجود سبب معين لحركته ... إن الحشبة الغفلة ، التي لم تدخلها صنعة ، لا تتحرك
بنفسها ، ولكن بصنعة النجار ... (الفقرة ١٠٧٤ ب) .

(١) أرسطو في الفصل الثامن من الجزء الثاني عشر من كتاب ماوراء الطبيعة
(Aristote, Métaph. L. XII, ch. 8) . ويقابل هذا مذهب السوفسطائية الذين زعموا أن
الأصل هو اللادين واللاقانون ، وأن الأدبان والقوانين ما هي إلا اختراعات وحيل سياسية
لإخضاع الجمهور .

(٢) أرسطو في كتاب الأخلاق Ethique .

(٣) فقد كانوا يقولون إنه لا قطع بوجود هذه الحقائق ، ولكن يظن ذلك ظناً راجحاً
(probable) .

اليقين بوجود حقائق الأشياء .
وسرعان ما مهدوا بهذا الفتور لظهور مذهب التشكك الصريح ،
المعروف باسم اللا أدريّة Scepticisme . وهو المذهب الذي أعلنه بيرون
Pyrrhon في عصر الإسكندر المقدوني . وكان بيرون في أول أمره
سوفسطائياً ، ثم ستمّ الجدل والنقاش ، وأخذته الحيرة في الاختيار بين
الفلسفة الإيجابية التي تقرر وجود حقيقة ثابتة قطعاً ، والفلسفة السلبية التي
تنكر جزماً هذه الحقيقة . فلما تعارضت عليه الأدلة لم يجد منها مخرجاً إلا
بالتوقف ^(١) عن الحكم .

فإذا ما تركنا مذهبي الإنكار والتشكك ، وعدنا لتتابع سير الفلسفة
الإيجابية في اليونان ، وجدنا أن الصفحة الناصعة فيها طويت بانتضاء عهد
أرسطو ، وانقسام ملك الإسكندر ، وأن الذي ظهر منها بعد ذلك كان
في عامة الأمر مذاهب شاذة متطرفة في الناحيتين النظرية والعملية .
أما في الناحية العملية (مبادئ الأخلاق) فكان مذهب أبيقور
Epicure (من منتصف القرن الرابع إلى أوائل القرن الثالث ق .) يمثل
الطرف الأدنى ؛ إذ كان يقرر أن شعور اللذة والألم (جثمانياً أو عقلياً أو
روحياً) هو المعيار الوحيد للخير والشر ، والمقياس الفذ للفضيلة والرذيلة .

(١) يقول مؤرخو المذاهب الفلسفية إن بيرون لم يكن ليتشكك في الحسيات والوجدانيات
من حيث هي ظواهر متغيرة ، وأعراض سيالة ، نفى بمجرد ظهورها ، ولم يكن يشك في أنه
شاك ؛ لأنه لم يعد سوفسطائياً مكابراً (هكذا يقول فرنك Franck في معجمه الفلسفي) ...
وكل ما في الأمر أنه كان يتوقف عن إثبات جوهر مستقل يحمل هذه الأعراض ، وحقيقة ثابتة
تتبدل عليها هذه الأوضاع . نعم إنه كان يوافق بعض السوفسطائية في « نسبة المعرفة الحسية »
بمعنى أن هذه المعرفة تختلف باختلاف حال الشخص المدرك ، واختلاف وضع الشيء المدرك ،
واختلاف آلة الإدراك ... الخ ، وأن كل امرئ إنما يقضى بحسب إدراكه وهو الحق بالنسبة
إليه ، وليس الحق باطلاق . ولكنه لم يكن يوافقهم على الجزم بعدم وجود تلك الحقيقة المطلقة
من وراء هذه الظواهر المتغيرة ، ولا على استحالة العلم بتلك الحقيقة ، بل كان يتوقف عن
الحكم في شأنها إيجاباً وسلباً .

وكان مذهب زينون^(١) Zénon (القرن الثالث ق .) — مؤسس المدرسة الرواقية Le Portique المشهورة باسم مدرسة أهل العزيمة والجلد Les Stoïciens يمثل الطرف الأقصى ؛ لجعله مبدأ الفضيلة هو التحرر من اللذائذ والآلام جميعاً ؛ وذلك بمكافحة العاطفة الإنسانية والوجدان الطبيعي ، والبلوغ بهما من الجمود والتحجر إلى وحدة الجسارة على الانتحار ، وعدم المبالاة بأكل لحم الآدمي

وأما في الناحية النظرية (الإلهيات والطبيعات) فإن هذه المدرسة الرواقية نفسها ، وإن انتقلت من الفلسفة المادية الملحدة الخالصة ، إلى النظرية المقابلة لها في الطرف الآخر وهي الاعتراف بوجود روح يدبر العالم ويتعهدده في أطواره ، إلا أنها عادت تقرر أن هذا الروح ما هو إلا جزء من العالم ، يسرى في مادته سريان الماء في العود ، أو النار في الحجر ، غير شاعر بنفسه ، ولا مختار في تحريكه للمادة ، بل هو بدوره خاضع لقانون طبيعي كقانون النمو النباتي . ثم انتهت إلى القول بأن العنصرين المادى والروحي في الكون ليس لأحدهما وجود مستقل في نفسه ، بل يتألف منهما شيء واحد هو الموجود الحقيقي ، يسمى فاعلاً ومنفعلاً ، خالقاً ومخلوقاً ، إلهاً وكوناً . . . هذه النظرية المصادمة للبداية ، المتناقضة في نفسها ، وفي نتائجها العملية^(٢) هي التي تسمى عند الرواقين « وحدة الوجود » . ولكنها على الرغم من هذه الوحدة الإسمية قد سايرت مذاهب الوثنية وتعدد الآلهة ؛ إذ جعلت في كل عنصر من العناصر روحاً سارياً هو إلهه الخاص به ، فإله الحياة يسمى زوس Zeus ، وإله الأثير آتينية Athéné ، وإله الهواء هيرا Héra . . . وهلم جرا .

(١) هو غير سلفه ، زينون الإيلي Zénon d'Elée صاحب النظرية المشهورة عن استحالة الحركة (القرن الخامس ق) ، وغير خلقه زينون الأيقورى ، معاصر سيبيرون .

(٢) أما تناقضها في نفسها فلائها تدعى أن الشيء وضده شيء واحد . وأما تناقضها في نتائجها فلائها تدعو إلى التحرر من أسر الطبيعة في الوقت الذي تقرر فيه أن الكون وإله الكون خاضعان لقانون الجبر والاضطرار .

العصر الروماني :

في القرن الثاني قبل الميلاد أخضع الرومان الدولة اليونانية سياسياً ، فأصبحت ولاية تابعة لهم ، بعد أن كانوا هم تبعاً لها . وإن تعجب لشيء فاعجب كيف أن هذا الاختلاط بين الأمتين قرونًا متوالية ، من قبل ومن بعد ، لم يصنع منهما أمة واحدة في اللغة والدين والفن والنشريع وسائر مقومات الحياة الجماعية ، كما صنع الفتح الإسلامي في الأقطار التي دخلها ؟ . . . لا ، بل ما لنا نطمع في هذه الوحدة المثالية ! ألم يكن من المتوقع على الأقل أن تفيد الأوساط العلية والأدبية في روما من هذا التراث العلي والأدبي المكنوز في العاصمة الإغريقية ؟ غير أن شيئاً من ذلك لم يكن ؛ وكان كل ما حمله الأدباء الرومانيون من أئتنا بعد هذا الفتح هو بعض الآراء الرائجة إذ ذاك في جماهير الشعب ، فاقبسوها اقتباساً سطحياً من غير تعمق ولا تمحيص ، كما يحاكي الناس بعضهم بعضاً فترة من الزمن في الأزياء الجديدة وألوان الطعام والشراب . . .

آية ذلك أن المذهب السائد في أئتنا في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد كان هو المذهب الرواقى ، الذى فرغنا من الحديث عنه توّأ ، وأن هذا المذهب وحده هو الذى نقل منها إلى روما ، بل إنه لم ينقل بشطريه كليهما ، وإنما كان الذى انتقل منهما هو أخفهما حملاً على أقلام الكاتبين ، وأدناهما إرضاء لكبرياء الفاسحين ، أعنى ذلك القسم العملى الذى كان يتسم بطابع الزهو والغرور ، فى دعوته إلى تبديل الطبيعة البشرية ، ومحو معانى اللذة والألم من بين عناصرها . أما الشطر النظرى فلا نرى له أثراً فى مقالات المؤلفين اللاتين أمثال سينيكا Sénèque وإبيكتيت Epictète (القرن الأول بعد الميلاد) . ومهما يكن من شيء ، فإن هذا المذهب الرواقى لم يطل أجله . وكان آخر مثليه فى روما هو مارك أوريل Marc-Aurèle (القرن الثاني ب .) .

وكما كان الفتح الروماني لبلاد الإغريق سبباً في اجتلاب بعض آرائهم الشائعة في العصر ، كان هذا الفتح للبلاد الآسيوية والإفريقية سبباً في نقل بعض مذاهبها الدينية إلى روما ، فاشتهرت فيها أسماء المعبودات : ميثرا Mithra وبعل Baal وإيزيس Isis وغيرهن .

وكان وصف هذه الديانات الواغلة - مضافة إلى الديانات المحلية - مجالا لأقلام الكتّاب من الرومان في القرن الأول قبل الميلاد ، فكتب سيسرون Cicéron عن الآراء الفلسفية في طبيعة الألوهية ، وكتب فارون Varron عن الشعائر والعبادات الرومانية ، لا بأسلوب النقد والموازنة والترجيح ، بل بأسلوب التأويل والتوفيق - أو التلفيق - بين الآراء المختلفة ... أسلوب ينم عن التردد والحيرة وعدم العناية بالبحث الجدى أكثر مما يعبر عن روح «النساج الديني» الذي ينسب إلى ذلك العهد ؛ فالتعبير بالنساج هنا تعبير غير محرر ، واستنباط غير موفق من عادة اعتادها بعضهم إذ ذاك ، وهي أنهم كانوا لا يلتزمون شعائر دين معين ، بل يشتركون في عبادات متنوعة من ديانات شتى ، باعتبارها كلها رموزاً للحقيقة واحدة . فهذا المسلك لا يدل على احترام كل متدين لديانة غيره ، وهو معنى التساج والإغضاء ، بل يدل على الانحلال وعدم الركون إلى دين ما .

العصر المسيحي :

وفي منتصف القرن الأول بعد الميلاد ، دخلت الدعوة المسيحية إلى أوروبا في صورة دين سماوي جديد يأبى أن ينتظم في سلك مع الأديان الوثنية السابقة ، ويحاول أن يظهر عليها ويحل محلها .

وكان ما كان من احتكاك وصراع ، وتفاعل وامتزاج ، بينه وبين تلك الديانات المحلية ، ثم بينه وبين المذاهب المستحدثة في عهده ، مثل الديانة المانوية ، التي ظهرت في القرن الثالث بعد الميلاد ، والفلسفة الأفلاطونية الحديثة (القرن الثالث أيضاً) .

وكان ما كان من اضطهادات ومقاومات عنيفة شنها أباطرة الرومان على دعاة وأتباعه ؛ حتى جاء الامبراطور قسطنطين (أول القرن الرابع ب .) فدعا في أول الأمر إلى المهادنة الدينية العامة ، ثم أعلن المسيحية ديناً رسمياً للدولة ، على الصورة التي وضعها المجمع المنعقد بأمره في نيقية Nicée سنة ٣٢٥ م .

وقد كان ألمع إسم في قائمة المدافعين عن المسيحية ، المعارضين للنحل الجديدة المنافسة لها ، هو اسم القديس أوغسطين St. Augustin (من منتصف القرن الرابع إلى ثلث القرن الخامس ب .) ، وهو أسقف كان قد اعتنق المانوية قبل أن يعتنق المسيحية . وله مؤلفات أشهرها كتاب « المدينة الإلهية ، La Cité de Dieu وكتاب الاعترافات Les Confessions وكتاب اللطف de La Grâce وأهمها هو السفر الأول ، الذي يعد فلسفة دينية ومدنية معاً .

واستمر هذا الطابع الجدلي في العقائد هجوماً ودفاعاً ، وهدماً وبناءً ، لا بين المسيحية وغيرها فحسب ، بل بين المذاهب المسيحية أنفسها ... فلم يكن همّ الكاتبين تصوير العقائد المختلفة كما هي ، بل كان هدف كل كاتب التماس موطن من مواطن الضعف في عقيدة خصمه لإبطالها ، وإبراز ناحية من نواحي القوة في عقيدته لنصرها ونشرها .

العصر الإسلامي :

ثم ظهر الإسلام في أوائل القرن السابع الميلادي . وما هو إلا أن تمكنت دعوته في سنة ٦٢٢ م من استنشاق نسيم الحرية خارج مكة ، حتى انتشرت بسرعة البرق شمالاً وجنوباً ، وشرقاً وغرباً ، ولم يمض قرن واحد حتى سرت في أقطار أوروبا الغربية (أسبانيا وإيطاليا وفرنسا) حاملة معها علوم الإسلام وآدابه وتشريعاته ، مضافة إلى علوم اليونان وفلسفتهم ، ومضافاً إليها ما اكتشفه العرب والمسلمون في رحلاتهم من علوم الشرق

وآدابه ، وما أفادوه هم من تجارب جديدة . . .
 ولم يكن بدعاً من الأمر أن يكون الغرب عالة على العرب في علوم الشرق ، وإنما البديع والعجب العاجب أن يكون عالة عليهم في علوم أوروبا نفسها ، وأن يبقى كذلك حقة مديدة من التاريخ . . . فقد مضى الفتح الروماني كما رأينا دون أن يفيد من الأدب اليوناني إلا ما كان رائجاً في السوق يومئذ من آراء سطحية ، ومذاهب زائفة ؛ ومضى العصر المسيحي في شغل بالجدل الديني ، الداخلي والخارجي ، عن التنقيب في علوم اليونان وتاريخهم وطرائق تفكيرهم المختلفة . وهكذا بقي غرب أوروبا طيلة هذه المدة في شبه عزلة أدبية عن شرقها الذي له به أوثق الصلات المادية . فلم يفتح الغربيون أعينهم على تلك الكنوز العقلية إلا وهي في أيدي العرب المسلمين الذين جاءوهم من وراء البحار في أوائل القرن الثامن ، فاتحين فتوح علم وسلم ، وعدالة وسماحة ، (لا فتوح علو وعتو) ، وإشباع للفراغ الجامحة ، واستنزاف للدماء والثروات) .

هنالك هرع الناس إليهم من كل صوب ينهلون من معارفهم . وكان اليهود أول الناس انتفاعاً بهذه التلذذة ، فأخذوا ينقلون هذه العلوم من العربية ، إلى العبرية ، ثم إلى اللاتينية . . . ولو أن روما كانت قد ورثت أئتنا وراثه علمية لاستنسخت علومها من أول يوم ، ولقرأها الناس يومئذ باللاتينية أو بالإغريقية مباشرة ، بدل أن ينتظروا حتى يأخذوها هكذا وهي في المرحلة الرابعة من الترجمة .

ولكن الأمانة التي عجزت عن أدائها الحضارتان اليونانية والرومانية في جميع عصورهما نهضت بها حضارة الإسلام في لغته العربية ، واستقلت بحملها قروناً متوالية ، من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر أو يزيد ، فليس في علماء أوروبا الآن من ينكر أن فلسفة أرسطو وعلومه لم يسمع بها الغرب إلا على لسان ابن رشد Averroès ، الفيلسوف الإسلامي (القرن الثاني عشر) ولسان أتباعه أمثال موسى بن ميمون Maïmonide الفيلسوف

الإسرائيليين (القرن الثاني عشر أيضاً) . وليس هناك من ينكر ما كان لهذا التعليم من أثر في فلسفة أوروبا عن طريق القديس توماس St. Tomas d'Acquin (القرن الثالث عشر) . أما ما أفاده الغربيون من معارف العرب أنفسهم في الأدب والشعر والتشريع ، والطب والفلك والتاريخ ، والطبيعة والكيمياء والجبر والتقويم والترقيم ، ومختلف الفنون والصناعات ، فهو أوسع من أن نلم ببعضه في هذا التمهيد . ولقد كتب فيه علماء أوروبا أسفاراً جمة ما بين وسيع ووجيز^(١) . والذي يعنيننا هنا إنما هو أثر العرب والمسلمين في علم الأديان ، الذي نحن بصده .

وإنه لأثر جليل يمتاز بطابعين جديدين لم يسبق إليهما أحد فيما نعلم : أما أحدهما فهو أن الحديث عن الأديان بعد أن كان في العصور السابقة إما مغموراً في لجة الأحاديث عن شؤون الحياة ، وإما مدفوعاً في تيار البحوث النفسية أو الفلسفية أو الجدلية ، أو على الأقل محدوداً بحدود العقائد الموضوعية وما يشارفها ، أصبح في كتب العرب دراسة وصفية واقعية ، منعزلة عن سائر العلوم والفنون ، شاملة لكافة الأديان المعروفة في عهدهم . فكان لهم بذلك فضل السبق في تدوينه علماً مستقلاً ، قبل أن تعرفه أوروبا الحديثة بعشرة قرون .

وأما الآخر — وهو ليس أقل نفاسة من سابقه — فهو أنهم في وصفهم للأديان المختلفة لم يعتمدوا على الأخيلة والظنون ، ولا على الأخبار المحتملة للصدق والكذب ، ولا على العوائد والخزعبلات الشائعة في الطبقات الجاهلة ، والتي قد تنحرف قليلاً أو كثيراً عن حقيقة أديانها ، ولكنهم كانوا

(١) من الموسوعات كتاب جوستاف لوبون في « حضارة العرب » Gustave Le Bon . La Civilisation des Arabes . ومن المختصرات كتاب أ . ف . جوتيه « أخلاق وعوائد المسلمين »

E. F. Gautier, Mœurs et Coutumes des Musulmans, Livre IV.

يستمدون أوصافهم لكل ديانة من مصادرها الموثوق بها ، ويستقونها من منابعها الأولى . وهكذا بعد أن اختطوه علماً مستقلاً ، اتخذوا له منهجاً علمياً سليماً .

ونحن ذاكرون هنا بعض أسماء المؤلفات العربية المشهورة في هذه المادة على ترتيبها التاريخي .

— كتاب «جمل المقالات»^(١) لأبي الحسن الأشعري ، المتوفى في سنة ٣٣٠ هـ (القرن العاشر الميلادي) .

— كتاب «المقالات في أصول الديانات» للسعودي ، المتوفى في سنة ٣٤٦ هـ (العاشر أيضاً) .

— كتاب «الفصل» ، في الملل والنحل ، لابن حزم الظاهري المتوفى في سنة ٤٥٦ هـ (الحادي عشر) .

— كتاب «الملل والنحل» للشهرستاني المتوفى في سنة ٥٤٨ هـ (الثاني عشر) .

— كتاب «اعتقادات المسلمين والمشركين» للفخر الرازي المتوفى في سنة ٦٠٦ هـ (الثالث عشر) .

أفترى من الإنصاف بعد هذا أن يقال عن الإسلام : إنه لم يصنع شيئاً^(٢) في تاريخ الأديان المقارن ؟

نهضة أوروبا الحديثة :

بدأت أوروبا الغربية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر تستيقظ رويداً رويداً ، وتتلقت بأنظارها إلى الشرق الذي كان مبعث نورها ،

(١) هذا الكتاب جم فيه مؤلفه جملة الفوائد التي كان أودعها في كتابين سابقين له : أحدهما باسم «مقالات الإسلاميين» ، والآخر بعنوان «مقالات غير الإسلاميين» .

(٢) الأب شميدت في كتاب «نشأة الديانة وتطورها»

فجعلت تبعث إليه البعث من رجال الدين ، الفرنسيكان والدومينيكان ، حتى بلغوا في رحلاتهم بلاد الهند والصين واطلعوا على دياناتها .
وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر — وهما أول العصر المسمى بعصر «البعث» أو «النهضة» — انبعثت هممتها للاطلاع بنفسها على علوم اليونان وآدابهم وفنونهم القديمة باللغة اليونانية ، وكانت باكورة نشاطها في هذا الشأن تنقيحها عن الآثار الأسطورية وتفسير ما ترمز إليه من عقائد أو حوادث تاريخية .

ولم تلبث أن ظهرت حركة الإصلاح المسيحي (البروتستانتية) في منتصف القرن السادس عشر ، فكانت مكملة لجانب من هذه النهضة العلمية في أوروبا ، بما مهدت له من دراسات في اللغة العبرية^(١) واللغات السامية الأخرى ، بغية التفهم لنصوص التوراة والإنجيل ، التي كان رجال الإصلاح يتمسكون بحرفيتها . ولكنها من جانب آخر أغرقت أوروبا في حمأة المنازعات والحروب الدينية ، التي عوّقت حركة اكتشاف الأقاليم ونشر المسيحية فيها . ولذلك بقي البروتستانت قرنين من الزمان لا يساهمون في هذه البعث ، وكان الكاثوليك (من أسبان وبرتغال وفرنسيين) هم القائمين إذ ذاك وخدم بأعبائها .

ثم تتابع الرحالون من الفريقيين وازدادت عنايتهم بالاقطار الجديدة في آسيا، والأوقيانوسية، وأمريكا، ومجاهل أفريقيا... حتى كان آخر القرن الثامن عشر، وهو الوقت الذي نشطت فيه حركة التأليف في وصف عقائد هؤلاء الأقوام وعوائدهم؛ فهناك اشترأت العقول إلى السؤال عما كانت عليه ديانة الإنسان الأول، وبذلت محاولات لتحديدتها في ضوء المقايسة على ديانات هؤلاء البدائيين، كما بذلت محاولات لاستنباط الطريق

(١) يذكرون أن هذه العناية باللغة العبرية كان مبعثها الاعتقاد بأن هذه اللغة هي لغة الإنسان في أول نشأته — اعتقاد اشترك فيه الكتاب البروتستانت والكاثوليك على السواء .

الذي سارت فيه الديانات منذ نشأة الإنسان إلى اليوم ، ومعرفة أسلوب تطورها ، أو تولد بعضها عن بعض . ومنذ ذلك اليوم أصبح علم الأديان ذا شعبتين اثنتين : شعبة جديدة مبتكرة ، وشعبة قديمة نالها شيء من التجديد . (أما الشعبة القديمة المجددة) فهي تلك الدراسات الوصفية ، التحليلية ، الخاصة بملة ملة . وهي التي يمكن أن نعرفنا نشأة ديانة ما ، وحياة مؤسسها ، ومقومات عقائدها وعباداتها ، وأسباب انتشارها ، وألوان تطورها ، إلى غير ذلك من المعاني التي ما فتئت مجالاً لحديث الناس منذ اختلفت مذاهبهم . وهذه الشعبة هي المشهورة باسم « تاريخ الأديان » ولو أنصفت التسمية لكانت « تواريخ الأديان » . والتجديد الذي لحقها في العصور الحديثة يتناول مادتها ووسائلها جميعاً . فبعد أن كانت مادة البحث لا تتجاوز في الغالب حوض البحرين الأبيض والأحمر ، أعني ملتي القارات الثلاث ، اتسعت الآن رقعتها حتى انتظمت القارات الخمس ؛ وبعد أن كانت محصورة أو تكاد — في نطاق الأمم المتمدنة ، ذات التاريخ المدون ، أو الآثار الخالدة ، تناولت الشعوب الهمجية والأمم البائدة ، بل تناولت إلى التنقيب عما وراء التاريخ المعروف . نعم إن انفساح الميدان هكذا أمام المؤلفين المحدثين قد بعد بهم عن المنهج السليم الذي انتهجه مؤلفو العرب ؛ ولكنه على كل حال قد فتح أمام الباحثين آفاقاً جديدة لم يستشرف إليها السابقون ؛ ولا سيما في وسائل البحث وأدواته ، التي تنوعت حتى شملت علم اللغات المقارن ، وعلم طبقات الأرض ، وعلم التصوير والتمثيل الرمزيين ، بله علم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم الأجناس البشرية ، وسائر ما يمت بسبب إلى ظاهرة الدين . وليس من شك في أن الأداة الرئيسية في دراسة هذه الشعبة يجب أن تكون هي استقرار العقائد والعبادات وسائر التعاليم في كل نحلة ، من واقع الأقوال والأفعال الدالة عليها ؛ وأن تكون مهمة العلوم الإضافية قاصرة

على تقديم نوع من الضمان تحاط به عملية الاستقراء للتحقق من صحة سيرها ، وعدم مصادمتها لمقررات تلك العلوم . وهذا هو هدف النقد العلمي (١) الذي يقوم على مراجعة التاريخ مثلاً للتثبت من صحة الوثائق والأسانيد ، ومراجعة فقه اللغة واصطلاحات الفنون لتحديد مدلولات النصوص ، وهكذا . . .

(وأما الشعبة الجديدة المبتكرة) فهي ضرب من الدراسات النظرية ، والاستنباطات الكلية ، التي تهدف إلى إشباع نهمة العقل في التطلع إلى أصول الأشياء ومبادئها العامة ، حين تتشعب عليه جزئياتها وتفصيلاتها .

بيان ذلك — في موضوعنا — أن الذي يستقرىء الملل على كثرتها ، إذا درسها دراسة مقارنة ، وأخذ يعزل ما فيها من المفارقات ووجوه الاختلاف ، سيجد فيها ألبتة وجوهاً من المشابهة تتلاقى عندها كل الديانات ، وسيجد في نفسه إذ ذاك باعثة تصعب مقاومتها ، تدفعه إلى استخلاص هذه المبادئ العامة ، وجمعها في وحدة كلية يمد بها طبيعة الدين من حيث هو . كما أنه حين يرى ظاهرة التدين حطاً مشاعراً في الجماعات ، مشتركاً بين الأمم الحاضرة والغابرة ، البادية والمتحضرة ، لا يستطيع أن يدفع عن نفسه السؤال عن منشأ هذه الظاهرة العالمية ومصدرها : هل لها منبع في طبيعة الفرد أو المجتمع ؟ أم كانت وليدة المصادفة ، أو ثمرة الصنعة والابتكار ؟ أم ماذا ؟ وهل كان في اختلاف صورها ومظاهرها في غضون التاريخ ما ينم على وجود ضرب من النسلسل والتولد بين بعضها وبعض ، أو ما يدل على الأقل على شيء من التدرج التصاعدي أو التنازلي بينها ؟ أم أنها لم تسر على سنن واحد ، بل كانت تصعد تارة ، وتنحدر تارة ، وتقف طوراً ، وترجع عوداً على بدء كرة أخرى . . . ؟

هذه الأسئلة وأشباهاها يصطدم بها دارس الأديان المختلفة في خاتمة

(١) وهو غير النقد الأدبي للعقائد والشعائر بتقدير قيمها ، وتمييز سليمها من سقيمها . فذلك مرحلة أخرى خارجة عن كلنا الشعبين ، يمكن أن تسمى بالموازنة الأدبية بين الأديان .

مطافه ، فيضعها في صيغة نيرة محدودة ؛ ولكنها تتجمع غامضة مبهمه في صدر كل شغوف بالمعرفة ولو لم يكن ذا اطلاع على غير دينه الخاص . وقد خاض فيها علماء أوروبا وأدباؤها في العصور الحديثة ، وعرض كل منهم وجهة نظره في حلها ؛ ولكنهم تناولوها أشتاتاً في مناسبات متفرقة : فمنهم من أفرد مسألة منها بتأليف ؛ ومنهم من أدخل مسألة أخرى في طيِّ بحوثه الأدبية ، أو نظرياته الفلسفية العامة ؛ ومنهم من وضع مسألة ثالثة في مقدمة دراسته لدين معين ؛ ومنهم من ألمَّ بهذه أو تلك في مدخل تأليفه عن تاريخ الأديان العام ؛ ومنهم من ساقها نكتة عابرة ؛ ومنهم من أطبب في الشكل والمظهر ، وكان أقلَّ عناية بالصميم والجوهر

وأنت ألسنت ترى معنا قبل كل شيء أن هذه المسائل ألصق بالدراسات الدينية منها بشيء آخر من الفنون والآداب ؟ أو لست ترى بعد ذلك أن ما فيها من تجانس الموضوع يجعلها جديرة بأن تجمع في سفر ، وأن يتألف منها شعبة مستقلة غايتها دراسة الظاهرة الدينية في جملتها ، دراسة تبسط وجوه النظر المختلفة في كل بحث ، وتعرض وجه الفصل فيه بميزان العدل الذي لا يحابي ولا يمارى ؟ ثم ألسنت ترى أن هذا النوع من الدرس لتاريخ الديانة بإطلاق أحق بالصدارة والسبق على الدراسات المشهورة لتواريخ الأديان مفصلة ، وأنه يستأهل بطبيعته التعليمية أن يكون مقدمة لتلك الدراسات ؟ إذ أن مهمته هي تقرير المبادئ العامة ، ووضع الأسس الكلية ، التي لا بد من إرسائها قبل الشروع في تحديد ماهية كل دين على حدة .

من أجل ذلك كله وجهنا أول عنايتنا لمعالجة هذا الجانب من البحوث ، ورأينا حقاً علينا أن نسجلها هنا خلاصة ما سبقته معالجته منها .

... ..

... ..

... ..

... ..

البحث الأول

البحث الأول

في
تحديد معنى الدين

وطان ، فيضها في حيلة نيرة خفية زولكنها تتوسم تامته ميسة في صفر
كل شريف بالبردة ولو لم يكن ذا اطلاق على غير وجه الخالص . وقد علم
فيها طلق ان رودة وادانها في الحيد الطيفة ، وعرض كل منهم وجهة
ظرفه في حيا وولكنهم تناولوها اثباتا في مسلمات متفرقة . فبينهم من
أورد مسألة منها تأليف ، ومنهم من أدخل مسألة أخرى في ملحق بحوته
الأولية ، أو نظريته الفلسفية العامة ، ومنهم من وضع مسألة تالفة في مقدمة
دراسة الدين حين ، ومنهم من ألم بهذه أو تلك في مدخل تأليفه عن تاريخ
الأديان العام ، ومنهم من سألها تكة خافية ، ومنهم من أشب في الشكل
والشعر ، وكان إلا عناه

سؤال الثاني

وانت أنت ؟
التيه فيها بشيء آخر من الشؤون والآداب ؟ أولست ترى بعد ذلك أن
ما فيها من جوانب الموضوع يجعلها جارية بأن جميع في سفر ، وأن يأتف
بها شعبة مستقلة فائتبا **بمسائل** **الزعم بالبطيخة في جعلها** ، دراسة تصدق
وجوه النظر المختلفة في كل بحث ، وترى من وجه الفصل فيه بعد أن الفصل
الذي لا يجان ولا يباري أنت أنت ترى أن هذا النوع من الدرر من تاريخ
الديانة بإطلاق أحق بالمسألة والسبق على الدراسات المنهودة لتاريخ
الأديان نفسها ، وأنه يتأمل بليت الطبيعة أن يكون مقبلة تلك
الدراسات ؟ إذا أن ميتة هي تنزق الثاني ، العامة ، ووضع الأسس الكلية ،
فلا بد من إرسائها قبل الشروع في تحديد خاصة كل دين على حدة ،
من أين ذلك كله وجهنا أول ما يتناهلنا في هذا الجانب من البحوث ،
ورأيت حقا علينا أن نسجل ما هنا خلاصة ما سبقت مناهة منها

البحث الأول

في

تحديد معنى الدين

الوضع المنطقي السليم في ترتيب أعمالنا العقلية يقتضينا حين نطلب تفسير حقيقة معينة أن نبدأ بمعرفة عناصرها العامة، ومقوماتها الكلية، قبل أن نأخذ في البحث عن مميزاتها ومشخصاتها. فمن أحب أن يتعرف كنه دين الإسلام، أو دين المسيحية، أو اليهودية، أو المجوسية، أو البوذية، أو الوثنية، أو غيرها من الأديان التي ظهرت في الوجود، يجمل به أن يوفر همته قبل كل شيء على تعريف المعنى الكلي الذي يجمعها، والقدر المشترك الذي تنطوي عليه في جملتها؛ إذ من الواضح أنه وإن تفاوتت الأديان في نفسها، أو في مصادرها، أو في أهدافها، أو في قيمها، فإنها كلها يجمعها اسم «الدين». فلا بد أن تكون هناك وحدة مضموية تنظمها، ويعبر عنها بهذا الاسم المشترك. فما هي تلك الوحدة؟ ما الدين؟ هذا هو السؤال الأول الذي يجب أن نضعه نصب أعيننا ونحن على عتبة باب البحث في تاريخ الأديان. وللإجابة عن هذا السؤال لاغنى لنا عن الرجوع قبل كل شيء إلى معاجم اللغة العربية، لنستأنس بما دونه اللغويون فيها من وجوه الاستعمال لهذه المادة - نقول لنستأنس بما في هذه المعاجم، ولا نقول لنجد فيها ضاللتنا المنشودة؛ فكلنا نعرف مقدار الصعوبة التي يعانها المزاولون لهذه

المعاجم ، ومبلغ إخفاقهم في استنباط المعاني المحددة من ثنايا تعريفاتها ، وفرط ألمهم لهذا الحرمان .

لكنه إذا كان اليأس كما قيل لإحدى الراحيتين ، فالذى يريح بالنا من ناحية هذه الكتب هو أن نبدأ بتحديد مطامحنا منها ، فلا نطلب منها أكثر من طبيعتها ، ولا نكلفها شيئاً هو وراء أهدافها . ولعله ليس أطيب لقلب الباحث في هذه المعاجم من أن يوطن نفسه بادية ذى بده على أنها إنما وضعت لضبط الألفاظ لا لتحديد المعاني ، وأن مهمتها هي تقويم اللسان ، لا تثقيف الجنان ؛ فإن شاء أن يتوسع في حدود هذه المهمة ساع له أن يقول إنها وضعت أيضاً لسرد المترادفات والمتقابلات ، وتقديمها لمن يفرض فيه أنه يعرف معنى كل مفرد على حدته . حاول مثلاً أن تعرف نعت طير ، أو حلية حيوان ، أو وصف نبات ، أو موقع بلد ، وافتح المعجم في باب الاسم المطلوب ، ثم انظر ماذا ترى : « طائر معروف » ، « حيوان معروف » ، « نبات معروف » ، « بلد معروف » . ذلك هو الجواب العتيد الذى تظفر به في غالب الأمر ، فهو تذكير للعارفين بالحقيقة التى يشير الاسم إليها . ومن لم يكن يعرف فلا سبيل له بذلك إلى أن يعرف . أما إذا سمحت هذه المعاجم بأن تقدم لقراءتها شيئاً من التعريف والتحديد ، فإنها لا تبالى في كثير من الأحيان أن تعرف الشيء بنفسه ، أو بأنه غير ضده . هكذا : « البلاغ ، ما يتبلغ به ؛ و « الدواء ، ما يتداوى به ؛ و « الدين ، ما يدين به . أو يقال لك إن الدين هو الملة . فإذا رجوت إلى كلمة الملة فى بابها قيل لك إنها هى الدين . وكذلك يقال لك فى شرح لفظ « الحلال ، إنه ضد الحرام ، وفى تعريف « الحرام ، إنه ضد الحلال ؛ وهكذا .

دع ما وراء ذلك من سوء الترتيب ، وكثرة الخلط والإعادة ، وعدم رد كل طائفة من المعاني المتشابهة إلى أصل واحد يجمعها . على أن هذه الناحية الأخيرة ربما كانت أهون وجوه النقص ، وأقلها استعصاء على الإصلاح .

أقرب مثال لهذا الحشد والخلط والغناء المتراكب تجده في المادة التي نحن بصددتها . فالذي يرجع فيها إلى القاموس المحيط ، أو إلى لسان العرب ، أو غيرهما ، يضل في يبداء ، ويخيل إليه أن هذه الكلمة الواحدة يصح أن تستعمل فيما شئت من المعاني المتباعدة ، بل المتناقضة : فالدين هو الملك ، وهو الخدمة . — هو العز ، وهو الذل . — هو الإكراه ، وهو الإحسان . — هو العادة ، وهو العبادة . — هو القهر والسلطان ، وهو التذلل والخضوع . — هو الطاعة ، وهو المعصية . — هو الإسلام والتوحيد ، وهو إسم لكل ما يعتقد أو لكل ما يتعبد الله به . . . الخ .

نحن إذاً بحاجة إلى التشمير عن ساعد الجدد ، للوصول إلى لب الحقيقة من وراء هذه القشرة ، ولالتماس شيء من الوحدة في ثنايا هذه الكثرة . والواقع أننا إذا نظرنا في اشتقاق هذه الكلمة ووجوه تصريفها نرى من وراء هذا الاختلاف الظاهر تقارباً شديداً ، بل صلة نامية في جوهر المعنى ؛ إذ نجد أن هذه المعاني الكثيرة تعود في نهاية الأمر إلى ثلاثة معان تكاد تكون متلازمة ؛ بل نجد أن التفاوت اليسير بين هذه المعاني الثلاثة مرده في الحقيقة إلى أن الكلمة التي يراد شرحها ليست كلمة واحدة ، بل ثلاث كلمات ، أو بعبارة أدق أنها تتضمن ثلاثة أفعال بالتناوب .

بيان أن كلمة « الدين » تؤخذ تارة من فعل متعد بنفسه : « دانه يدينه » ؛ وتارة من فعل متعد باللام : « دان له » ؛ وتارة من فعل متعد بالياء : « دان به » . وباختلاف الاشتقاق تختلف الصورة المعنوية التي تعطيها الصيغة .

١ — فإذا قلنا : « دانه ديناً » عنينا بذلك أنه ملكه ، وحكمه ، وسامه ، ودبره ، وقهره ، وحاسبه ، وقضى في شأنه ، وجازاه وكافأه . فالدين في هذا الاستعمال يدور على معنى الملك والتصرف بما هو من شأن الملوك : من السياسة والتدبير ، والحكم والقهر ، والمحاسبة والمجازاة . ومن ذلك : « مالك يوم الدين » ، أي يوم المحاسبة والجزاء . وفي الحديث : « الكيس من دان »

نفسه ، أى حكمها وضبطها . و « الدينان » الحكم القاضى .
 ٢ - وإذا قلنا : « دان له » أردنا أنه أطاعه ، وخضع له . فالدين هنا هو الخضوع والطاعة ، والمباداة والورع . وكلمة : « الدين لله » ، يصح أن يفهم منها كلا المعنيين : الحكم لله ، أو الخضوع لله .
 وواضح أن هذا المعنى الثانى ملازم للأول ومطالع له . « دانه فدان له » أى قهره على الطاعة تخضع وأطاع .

٣ - وإذا قلنا « دان بالشيء » ، كان معناه أنه اتخذ ديناً ومذهباً ؛ أى اعتقده أو اعتاده أو تخلق به . فالدين على هذا هو المذهب والطريقة التى يسير عليها المرء نظرياً أو عملياً . فالمذهب العملى لكل امرئ هو عادته وسيرته ؛ كما يقال : « هذا دينى ودينى » . والمذهب النظرى عنده هو عقيدته ورأيه الذى يعتنقه ؛ ومن ذلك قولهم : « ديتنت الرجل » ، أى وكلته إلى دينه ، ولم أعترض عليه فيما يراه سائفاً فى اعتقاده .

ولا يخفى أن هذا الاستعمال الثالث تابع أيضاً للاستعمالين قبله ؛ لأن العادة أو العقيدة التى يدان بها لها من السلطان على صاحبها ما يجعله يتقاد لها ، ويلتزم اتباعها .

وجملة القول فى هذه المعانى اللغوية أن كلمة الدين عند العرب تشير إلى علاقة بين طرفين يعظم أحدهما الآخر ويخضع له . فإذا وصف بها الطرف الأول كانت خضوعاً وانقياداً ؛ وإذا وصف بها الطرف الثانى كانت أمراً وسلطاناً ، وحكماً وإلزاماً ؛ وإذا نظر بها إلى الرباط الجامع بين الطرفين كانت هى الدستور المنظم لتلك العلاقة ، أو المظهر الذى يعبر عنها .

ونستطيع الآن أن نقول إن المادة كلها تدور على معنى لزوم الانقياد : فى الاستعمال الأول ، الدين هو إلزام الانقياد ؛ وفى الاستعمال الثانى ، هو التزام الانقياد ؛ وفى الاستعمال الثالث ، هو المبدأ الذى يلتزم الانقياد له . ولا يخفى ، من جهة أخرى ، أن معنى اللزوم هذا هو المحور الذى تدور عليه كلمة الدين بفتح الدال . والفرق بين الدين بالفتح والدين

بالكسر^(١) هو أن أحدهما يتضمن في الأصل إلزاماً مالياً، والآخر يقتضي إلزاماً أدبياً. ونحن نعرف من سنن اللغة العربية في تصاريفها أنها حين تريد التفرقة بين الحسيات والمعنويات من جنس واحد قد تكتفي بتغيير يسير في شكل الكلمة مع إبقاء مادتها كما هي، مثل العسوج والعسوج، والخلق والخلق، والرؤية والرؤيا، والكبر والكبر.

وهكذا يظهر لنا جلياً أن هذه المادة بكل معانيها أصيلة في اللغة العربية، وأن ما ظنه بعض المستشرقين^(٢) - من أنها دخيلة، معربة عن العبرية أو الفارسية، في كل استعمالاتها أو في أكثرها - بعيد كل البعد. ولعلها نزعة شعوبية تريد تجريد العرب من كل فضيلة، حتى فضيلة البيان التي هي أعز مفاخرهم.

ونعود إلى موضوعنا فنقول إن الذي يعنيننا من كل هذه الاستعمالات هو الاستعمالان الأخيران، وعلى الأخص الاستعمال الثالث. فكلمة الدين التي تستعمل في تاريخ الأديان لها معنيان لاغير. (أحدهما) هذه الحالة النفسية *état subjectif* التي نسميها التدين *religiosité* (والآخر) تلك الحقيقة الخارجية *fait objectif* التي يمكن الرجوع إليها في العادات الجارية أو الآثار الخالدة، أو الروايات الماثورة. ومعناها جملة المبادئ التي تدب بها أمة من الأمم، اعتقاداً أو عملاً. *doctrine religieuse* وهذا المعنى أكثر وأغلب.

بيد أن هذه التحليلات الاشتقاقية كلها إنما تكشف لنا عن جنس المعنى وأصله في اللغة، ولا تصور لنا حقيقته واضحة وافية، كما هي في عرف الناس

(١) في شارح القاموس نقلاً عن الفرائي أن الأسمعي نقل عن بعض العرب فرقا طريفاً، فقال: إنما فتح دال الدين لأن صاحبه يعلو المدين، وكسرت دال الدين لاقتنائه على الخضوع،

وضم دال الدنيا لاقتنائها على الشدة.

(٢) انظر دائرة معارف الإسلام في كلمة «DIN».

واصطلاحهم ؛ بل لا تزال المسافة منفرجة بين المعنى اللغوي ، والمعنى العرفي . ذلك أنه ليس كل خضوع وانقياد يسمى في العرف تديناً ، خضوع المغلوب للغالب ، وطاعة الولد لوالده ، وتعظيم المرءوس لرئيسه ، كل أولئك قد يكون من معدن آخر غير معدن الدين ؛ كما أنه ليس كل رأى ومذهب ، ولا كل سيرة وخلق ، يسمى ديناً .

فما هي الخصائص والعناصر الجوهرية التي تميز الفكرة الدينية أو السلوك أو الشعور الديني بوجه عام عما سواها ؟

لا ريب أن تحديد هذه الخصائص تحديداً حقيقياً لا يتم إلا في نهاية العلم ، بعد استعراض جميع النحل ومقارنتها ، واستنباط القدر المشترك بينها . ولكنه إذا تعذر علينا الآن ، ونحن في فاتحة البحث ، أن نعرض البيانات أنفسها لنستخرج منها الحد الأدنى المشترك بينها ، ففي وسعنا أن نعرض طائفة من التعريفات التي سبقنا بها العلماء ، سواء منها ما وضعه الإسلاميون لكلمة الدين ، وما وضعه الغربيون للكلمة التي تقابلها ، وهي كلمة Religion ، وأن نقسّي على هذا العرض بشيء من التحليل والنقد ، لنعرف إلى أي حد تنطبق هذه التعريفات على الديانات المعروفة .

أما الإسلاميون فقد اشتهر عندهم تعريف الدين بأنه « وضع إلهي سائق لذوى العقول السليمة باختيارهم إلى الصلاح في الحال ، والفلاح في المآل ، ويمكن تلخيصه بأن نقول : الدين « وضع إلهي يرشد إلى الحق في الاعتقادات ، وإلى الخير في السلوك والمعاملات ، .

وأما الغربيون فلهم في ذلك تعبيرات شتى^(١) . وهذه نماذج منها : يقول سيسرون ، في كتابه (عن القوانين) : « الدين هو الرباط الذي يصل الإنسان بالله ،^(٢) .

ويقول كانت ، في كتابه (الدين في حدود العقل) : « الدين هو الشعور

(١) Voir Chachoin, Evolution des Idées Religieuses et des Religions

(٢) La religion est le lien qui unit l'homme à Dieu (Cicéron, de Legibus, L. XV).

بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهية،^(١) .
ويقول شلاير ماخر ، في (مقالات عن الديانة) : « قوام حقيقة الدين شعورنا بالحاجة والتبعية المطلقة »،^(٢) .

ويقول الأب شاتل ، في كتاب (قانون الإنسانية) : « الدين هو مجموعة واجبات المخلوق نحو الخالق : واجبات الإنسان نحو الله ، وواجباته نحو الجماعة ، وواجباته نحو نفسه »،^(٣) .

ويقول روبرت سبنسر ، في خاتمة كتاب (المبادئ الأولية) : « الإيمان بقوة لا يمكن تصور نهايتها الزمانية ولا المكانية ، هو العنصر الرئيسي في الدين »،^(٤) .

ويقول تايلور ، في كتاب (المدينيات البدائية) : « الدين هو الإيمان بكائنات روحية »،^(٥) .

ويقول ماكس ميلر ، في كتاب (نشأة الدين ونموه) : « الدين هو محاولة تصور ما لا يمكن تصوره ، والتعبير عما لا يمكن التعبير عنه . هو التطلع إلى اللانهاى ، هو حب الله »،^(٦) .

ويقول إميل برنوف ، في (علم الديانات) : « الدين هو العبادة . والعبادة

(١) La religion est le sentiment de nos devoirs en tant que fondés sur des commandements divins (Kant, La Religion dans les limites de la Raison, 4ème partie, 1ère section).

(٢) L'essence de la religion consiste dans le sentiment de notre dépendance absolue (Schleiermacher, Discours sur la Religion, second Discours)

(٣) La religion est la collection des devoirs de la créature envers le créateur : devoirs de l'homme envers Dieu, envers la société et envers soi-même (Abbé Chatel ; Code de l'Humanité, Chapitre V).

(٤) La croyance en un pouvoir dont on ne peut concevoir les limites dans le temps ni dans l'espace est l'élément fondamental de la religion (Robert Spencer, Premiers Principes).

(٥) La religion est la croyance en des êtres spirituels (Taylor, Civilisations Primitives, Ch. XI).

(٦) La religion est un effort pour concevoir l'inconcevable, pour exprimer l'inexprimable, une aspiration vers l'infini, un amour de Dieu (Max Müller, Origine et Développement de la Religion, Leçon I, ch. IV).

عمل مزدوج : فهي عمل عقلي به يعترف الإنسان بقوة سامية ، وعمل قلبي أو انعطاف محبة ، يتوجه به إلى رحمة تلك القوة ،^(١) .

ويقول ريفيل ، في (مقدمة تاريخ الأديان) : «الدين هو توجيه الإنسان سلوكه ، وفقاً لشعوره بصلة بين روحه وبين روح خفية ، يعترف لها بالسلطان عليه وعلى سائر العالم ، ويطيب له أن يشعر باتصاله بها»^(٢) .
ويقول جويوه ، في كتاب (لا دينية المستقبل) : «الديانة هي تصور المجموعة العالمية بصورة الجماعة الإنسانية . والشعور الديني هو الشعور بتبعيتنا لمشيئات أخرى يركزها الإنسان البدائي في الكون»^(٣) .

ويقول ميشيل ماير ، في كتاب (تعاليم خلقية ودينية) : «الدين هو جملة العقائد والوصايا التي يجب أن توجهنا في سلوكنا مع الله ، ومع الناس ، وفي حق أنفسنا»^(٤) .

ويقول سلفان بيريسيه ، في كتاب (العلم والديانات) : «الدين هو الجانب المثالي في الحياة الإنسانية»^(٥) .

ويقول سالومون ريناك ، في (التاريخ العام للديانات) : «الدين هو مجموعة التورعات التي تقف حاجزاً أمام الحرية المطلقة لتصرفاتنا»^(٦) .

(١) La religion est un acte d'adoration ; et l'adoration est à la fois un acte intellectuel par lequel l'homme reconnaît une puissance supérieure, et un acte d'amour par lequel il s'adresse à sa bonté (Emile Burnouf, Science des Religions, ch. XIX).

(٢) La religion est la détermination de la vie humaine par le sentiment d'un lien unissant l'esprit humain à un esprit mystérieux, dont il reconnaît la domination sur le monde et sur lui-même, et auquel il aime à se sentir uni. (Réville, Prolégomènes à l'histoire des Religions).

(٣) La religion est un sociomorphisme universel. Le sentiment religieux est le sentiment de dépendance par rapport à des volontés que l'homme primitif place dans l'univers. (Guyau, Irreligion de l'avenir, p. 1-3).

(٤) La religion, c'est l'ensemble des croyances et des préceptes qui doivent nous guider dans notre conduite envers Dieu, envers notre prochain et envers nous-mêmes (Michel Mayer, Instructions Morales et Religieuses, 1ère leçon).

(٥) La religion, ...«c'est la part de l'idéal dans la vie humaine» (Sylvain Périsse, Science et Religions, ch. 1).

(٦) La religion : « Un ensemble de scrupules qui font obstacle au libre exercice de nos facultés » (Salomon Reinach, Orpheus : Hist. générale des Rel., p. 4).

ويقول إيميل دوركايم ، في (الصور الأولية للحياة الدينية) : « الدين مجموعة متساندة من الاعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة (أى المعزولة المحرمة) — اعتقادات وأعمال تضم أتباعها في وحدة معنوية تسمى الملة ،^(١) .

من هذا العرض يبين أن حقيقة الدين لا تكفى في تحديدها فكرة الاعتقاد بإطلاق أو فكرة الخضوع من حيث هى ، وأنه لا بد من إضافة قيد أو قيود أخرى تحدها يبرز عناصرها الجوهرية . وتلك هى المحاولة التى بذلها الباحثون حين قدموا لنا مختلف التعريفات التى أوردنا الآن جانباً منها .

غير أنه ليس من العسير على من يستعرض هذه التعاريف — الإسلامى منها وغير الإسلامى — أن يلاحظ أن الجمهرة الغالبة منها قد تجاوزت الحد فى التحديد ، حتى حصرت مسمى الدين فى نطاق الأدبان الصحيحة ، المستندة إلى الوحي السماوى ؛ وهى التى تتخذ معبوداً واحداً ، هو الخالق المهيمن على كل شىء . فالديانة الطبيعية المستندة إلى محض العقل ، والديانات الخرافية التى هى وليدة الخيالات والأوهام ، وكل ديانة تقوم هى أو جانب منها على عبادة التماثيل ، أو عبادة الحيوان ، أو النبات ، أو الكواكب ، أو الجن ، أو الملائكة . . . الخ . تخرج بمقتضى هذه التعاريف عن أن تكون ديناً ؛ مع أن القرآن قد سماها كذلك حيث يقول : « ومن يتبع غير الإسلام ديناً ، ويقول : « لكم دينكم ولى دين ، .

ولقد رأينا كيف وصل الأمر ببعض الباحثين فى تحديد موضوع الدين إلى تصويره بأرقى صورة عرفتها الفلسفة ، وأبعد صورة عن الخطور

(١) La religion est un système solidaire des croyances et des pratiques relatives à des choses sacrées, c'est-à-dire séparées, interdites — croyances et pratiques qui unissent en une même communauté morale appelée Eglise, tous ceux qui y adhèrent (Durkheim, Formes Élémentaires de la Vie Religieuse, p. 65).

بيال العامة من المتدينين ، أعنى تلك الفكرة التي عبر عنها روبرت سبنسر بقوله إن العنصر الأصيل في الدين هو الإيمان بقوة لا يمكن تصور نهايتها الزمانية والمكانية . فهذه اللانهاية إن صح أنها عقيدة كبار الفلاسفة والعلماء ، لا تنطبق بحال على عقيدة المشبهين ولا المجسمين ولا القائلين بأن ربهم في السماء . ونحن هنا لا نطلب تحديد الدين الصحيح فحسب ، بل الدين من حيث هو ، في مختلف صورته ومظاهره .

ثم رأينا كيف أن « ماكس ميلر » كان أشد تضيقاً لهذه الدائرة ، حين قال إن الدين هو « محاولة تصور ما لا يمكن تصوره » ، فهذه العبارة لا تنطبق في حقيقتها إلا على نوع من الأديان يفصل بين العقيدة والعقل فصلاً تاماً ، ويفرض على معتنقيه أن يؤمنوا بما لا تقبله عقولهم ، ولا تصوره (١) أذهانهم .

هذا الغلو في طرف التضيق لدائرة المحدود ، يقابله — كما رأينا — غلو في الطرف الآخر ، يمثله فريق من علماء الاجتماع وعلماء الآثار (أمثال إيميل دوركايم ، وسالومون ريناك) . فهؤلاء لا يكتفون بحذف فكرة « الإله ، الخالق ، اللانهاى ، الذى لا يحيط به التصور ، من التعريف الجامع للأديان ، بل يذهبون إلى وجوب إبعاد أصل فكرة الألوهية بكل معانيها من هذا التعريف ؛ محتجين بأن في الشرق أدياناً ، مثل البوذية ، والجاينية ، والكونفوشيوسية ، تقوم على أساس أخلاقي بحت ، خال من تأليه كائن ما ، وأن الذين يؤلهون « بوذا ، و « جينا ، إنما هم مبتدعون ، خارجون عن أصول دينهم الحقيقي القديم .

فلننظر في قيمة هذا النقل ، ومغزى هذه الحجة !

(١) إذا كان مقصود الفيلسوف من التصور هو أن يرسم في ذهن صورة خيالية جسمية للاله ، وليس مجرد الفهم والإدراك العقلي ، يكون هذا التعريف كسابقه في أنه ينطبق على الأديان العليا الثالثة ، ولا يرد عليه اعتراض الأخير .

هل يعنى هؤلاء الباحثون أن الأديان الصينية المذكورة مجردة من كل فكرة نظرية اعتقادية؟
 إن الحقيقة التي أجمع عليها مؤرخو الأديان هي أنه ليست هناك جماعة إنسانية، بله أمة كبيرة، ظهرت وعاشت ثم مضت دون أن تفكر في مبدأ الإنسان ومصيره، وفي تعليل ظواهر الكون وأحداثه، ودون أن تتخذ لها في هذه المسائل رأياً معيناً، حقاً أو باطلاً، يقيناً أو ظناً، تصور به القوة التي تخضع لها هذه الظواهر في نشأتها، والمآل الذي تصير إليه الكائنات بعد تحولها. وهذه الأديان الثلاثة المشار إليها لم تشذ عن هذه القاعدة قط؛ فهي، من جهة مصدر الحوادث، لا تنكر وجود الآلهة الهندية المسماة «أندرا»، و«أجنى»، و«فارونا»... الخ؛ ومن جهة مصير الإنسان، لم تنس تلك النظرية الهندية القديمة في الحياة وآلامها، وفي أن التعلق بملاذها وامتعاها هو السبب في عودة الحياة إلى الجسم في صورة ما، بعد الموت، فلا ينتقل الإنسان بذلك من ألم إلى ألم، وأنه لا سبيل إلى الراحة التامة إلا بالزهد التام في الحياة، ليموت الإنسان بلا رجعة، فلا يعود إلى آلام الحياة مرة أخرى.

نعم قد يشكل علينا أن مؤرخي البوذية يقولون إن الآلهة الهندية، التي سرى الاعتقاد بها إلى البوذية القديمة، لم يكن لها في نظر البوذيين سلطان إلا على العالم المادى، الذي يريد البوذي أن يتخلص منه، فهو لذلك لا يعبدها ولا يرجو خيرها، بل يريد أن يهرب من سلطانها بالموت الأبدى؛ ثم هو لا يعتمد عليها في شؤونه الأدبية، بل يعتمد على مجهوده العقلى والخلقى فحسب. ووجه الإشكال أننا سواء أقلنا إن البوذية القديمة لا تعرف آلهة البتة، أم قلنا إنها تعترف بآلهة لا تعبد، فالنتيجة واحدة: وهي أن تكون هناك ديانات خالية من فكرة العبادة، وذلك إما لخلوها من كل عنصر نظرى اعتقادى في مصدر الكائنات، وإما لأنها مركبة تركيب ضم لا امتزاج فيه، من عنصرين متدابرين لا يلوى بعضهما على بعض،

بحيث يكون شرطها النظري مثبتاً لقوى عظيمة ذات سلطان على الوجود ولكنها لا شأن لها بأعمالنا ، وشرطها العملي مبدئاً لطريق السلوك الذي يخلص النفس من آلام الحياة ، من غير توجه إلى تلك القوى .

لكن المسألة إنما هي في صحة تسمية أمثال هذه المذاهب أدياناً .

ونحن لا نرى مانعاً من أن يصطلح مصطلح على هذه التسمية ، ولكنه يكون اصطلاحاً نائياً عن معهود الناس ، مجافياً لذوق اللغات ، ولا سيما لغتنا العربية التي لا تفهم من اسم الدين إلا اعتقاداً بشيء يدين له المرء ، أي يخضع له ويتوجه إليه بالرغبة والرغبة والتقديس . بل إننا لا نبالي إذا قلنا إن كل مذهب يخلو من هذه الدينونة هو أحق باسم « الفلسفة الجافة » منه باسم آخر . وأكبر الظن عندنا أن الديانات المذكورة (البوذية والكونفوشيوسية ونحوهما) ما استحققت أن تدرج في جدول الأديان إلا منذ دخلتها فكرة التأليه ، أو على اعتبار أنها كانت كذلك أبداً .

وبالجملة فنحن لا نوافق على حذف مبدأ الألوهية من تعريف الأديان ، بل نذهب إلى القول مع الفيلسوف الألماني (إرنست شلاير ماخر) بأن قوام حقيقة الدين هو ذلك الشعور بالحاجة والتبعية المطلقة لقوة قاهرة . فلا ريب أن هذا الشعور ركن أصيل لا بد منه في تحقق ماهية الدين من حيث هو .

ولكنه مع ذلك لا يحتوي كل العناصر التي يتألف منها هذا المفهوم ؛ إذ لو كان كل شعور بالخضوع الكلي والتبعية المطلقة لقوة قاهرة أيأ كانت ، وأيأ كان لون الخضوع لها ، يسمى ديناً ، لكان أحق الضرورات بهذا الاسم حاجتنا إلى التنفس والغذاء ، واستسلامنا لقوانين الثقل والجاذبية وسائر العوامل الكونية ؛ ولا قائل بذلك .

يجب إذاً أن تتابع البحث ، لمعرفة الفوارق والمميزات التي تجعلنا نسمى نوعاً من الخضوع ديناً ، ولا نسمى نوعاً آخر منه بهذا الاسم .

وإن التحليل الدقيق لنفسية المتدين يكشف لنا نوعين من هذه الفوارق والمميزات .
 (أحدهما) في صفات الشيء الذي يقده المتدين ويخضع له .
 (والثاني) في طبيعة هذا الخضوع .
 فلم بنا ندرس هذين النوعين :

أول ما يواجهنا من الفروق بين الخضوع الديني والخضوع اللاديني يتمثل في مجموعة الصفات التي يحدد بها المتدين موضوع خضوعه ومناطق تقديسه الديني ، ويميزه بها عن سائر الأشياء التي يعظمها ويخضع لسلطانها . كلنا نقدر معنى الشرف ، والمرض ، والحرية ، والكرامة ، وما إلى ذلك من المعاني الانسانية النبيلة ؛ وكلنا نشعر بالخضوع والطاعة القهرية لقوانين الكون وسننه الثابتة التي لا نستطيع أن ننقضها أو نبدلها . لكن الشيء الذي يقده المتدين ليس من جنس تلك المعاني العقلية المجردة ، وليس من قبيل هذه التصورات الشائعة المهمة ؛ ذلك أن المتدين يهدف بتقديسه إلى حقيقة خارجة عن نطاق الأذهان ؛ وإن كانت تعبر عنها الأذهان فإنها في هذا التعبير تشير إلى ذات مستقلة ، قائمة بنفسها ، ليست مجرد عرض من الأعراض أو لقب من الألقاب . هكذا ينفصل منذ البداية موضوع العقيدة الدينية عن هذا الضرب من المعاني المقدسة ، من حيث إن الصلة بين المقدس والمقدس عند المتدينين هي قبل كل شيء صلة بين ذات وذات ، لا بين ذات وفكرة مجردة أو تجريدية كما في الأمثلة التي أسلفناها . ثم إن هذا التقديس الديني ليس تقديساً لذات أياً كانت ، وإنما هو تقديس لذات لها صفات خاصة ؛ وأهم مميزاتها أنها ليست بما يقع عليه حس المتدين ، ولا بما يدخل في دائرة مشاهداته ، وإنما هي شيء غيبي لا يدركه إلا بعقله ووجدانه . فالفاصل الثاني الذي تتميز به العقيدة الدينية بمختلف أنواعها هو أن لها خاصة الإيمان بالغيب ، أي بما وراء الطبيعة .

ثم إن هذا الغيب الذي تؤمن الأديان بوجوده من وراء الطبيعة ليس من جنس هذه الطبيعة المادية المنفعلة ، بل هو شيء ذو قوة فعالة مؤثرة ، وله أسلوب في تصرفاته مباين للطرائق التي تؤثر بها المادة فيما حولها ؛ إذ أن هذه المواد يصدر عنها أثرها دون شعور منها ، ولا اختيار لها في صدوره . أما القوة التي يخضع لها المتدين فإنه يفهمها على أنها قوة عاقلة تقصد ما تفعل ، وتتصرف بمحض إرادتها ومشيتها .

وأخيراً فإن هذه القوة العاقلة المدبرة في نظر المتدينين ليست قوة منطوية على نفسها ، منعزلة عنه وعن العالم ، بل يرى أن لها اتصالاً معنويّاً به وبالناس ، تسمع نجواهم ، وتصغي لشكواهم ، وتعنى بآلامهم وآمالهم ، وتستطيع إن شاءت أن تكشف عنهم ما يدعونها إليه .

من جملة هذه المعاني يتحدد على وجه الإجمال المعنى الذي يتعلق به الاعتقاد والتقديس في جميع الديانات . ولتلخيص هذه الاعتبارات في لقب واحد نقول إن التقديس الديني « تأليه » وعبادة ، وإن موضوعه « إله ، معبود .

ولعلك قد يشكك عليك من مقالتنا هذه أننا جعلنا مناط الاعتقاد والتأليه في جميع الأديان ذاتاً غيبية لا تراها العيون ، كأن لم يكن من الأقوام من عبد الأحجار والأشجار والأنهار ، والطيور والحيوان والإنسان . فاعلم أن كلمات الباحثين في نفسيات المتدينين وعقلياتهم قد تطابقت على أنه ليس هناك دين أياً كانت منزلته من الضلال والخرافة ، وقف عند ظاهر الحس ، واتخذ المادة المشاهدة معبودة لذاتها ، وأنه ليس أحد من عباد الأصنام والأوثان كان هدف عبادته في الحقيقة هياكلها الملموسة ، ولا رأى في مادتها من العظمة الذاتية ما يستوجب لها منه هذا التبجيل والتكريم . وكل أمرهم هو أنهم كانوا يزعمون هذه الأشياء مبهطاً لقوة غيبية ، أو رمزاً لسر غامض ، يستوجب منهم هذا التقديس البليغ . فهي في نظرهم أشبه شيء بالتمايم والتعويذات التي يتفاهل أو يتبرك بها ، أو يستدفع بها شيء من

الحسد أو السحر ، لا على أن لها خاصية ثابتة كامنة فيها كمن النار في الرماد ، أو أن لها قوة طبيعية كقوة المغناطيس ، بل على أن وراها أو حولها روحاً^(١) عاقلاً ، مدبراً ، مستقل الإرادة ، يستطيع أن يغير بمشيئته سير الأمور ويجري العادات ، فيعطي ويمنع ، ويضر وينفع ، من حيث لا ينتظر الناس ذلك في العادة ؛ وأن تلك المواد المشاهدة ما هي في اعتقادهم

(١) من الأمثلة التي توضح لنا عموم هذه الفكرة ، أعني فكرة الروح والغيب ، وسريانها حتى في الديانات الوثنية الممجبة ، قصة ذلك المعبود البشري الذي يقدمه الزنوج في جبال النوبة ، والذي يروي لنا عزام باشا أنه جالس في إحدى رحلانه في جنوب كردفان ؛ فإن قومه يزعمون فيه قوة عجيبة على علم الغيب وفعل الخوارق ، فيسألونه أن يدفع عنهم البلاء والمرض ، وأن يشير عليهم بالوقت المناسب للصيد والحرب ، ويلتمسون منه أن يأتيهم بالمطر لزرعهم وسأمتهم . وهم من أجل ذلك يقدمون له الفرائين والهدايا ، ويمتنعون في حضرته رجالاً ونساء ، فيرقصون ويطربون طلباً لرضاء . فإن أبي تحقيق مطالبهم في أول الأمر ، بالغوا في دعائه واسترضائه . . . حتى إذا يشوا منه سجنوه ، بل ربما قتلوه ، وأقاموا غيره مقامه من له هذه الخصائص الخارقة (انظر الرسالة الخالدة لعبد الرحمن عزام باشا ص ٦ و ٧) . فهم إذاً لا يعبدون فيه هذا الشخص المشاهد الذين يتحكمون هم فيه بالسجن أو التعذيب أو القتل ؛ وإنما يتوجهون فيه إلى ذلك السر المجهول .

ومضى المؤلف فيقول إنه لم يستطع أن يتبين : « أهو في نظرهم إله كامل ، أم هو كأصنام الجاهلية ، يعبدونه زلفى لمن هو أعظم منه في نظرهم ؟ » . أما نحن فنرجح أنهم إنما يكبرون فيه علم الأسرار والقدرة على قضاء الحاجات إلى حد محدود ؛ كما يعتقد العوام من أهل الأديان في الأولياء والقديسين . ولا يمنع ذلك من اعتقادهم في الإله الأعظم ، كما هو الحال في سائر الديانات الوثنية المعروفة للباحثين ، وكما يدل عليه موقف هؤلاء النوبيين أنفسهم من معبودهم ؛ فهم لا يسألونه أن يحول الجبال ذهباً ، أو يجعل البحار لبناً وعسلاً ، أو يغير سير الأفلاك ، أو يرزقهم الخلود في الدنيا ؛ فضلاً عن أن يظنوا أنه خلق نفسه ، أو خلق السموات والأرض ، أو أنه هو يسك نظامهما ؛ وإنما يلتمسون منه حظوظاً ممكنة قد سبق لهم المهسد بوقوع أمثالها ، ويريدون بالتقرب إليه الانتفاع بما عنده من العلم والقدرة الروحية في إصلاح معاشهم ؛ كما يتوسل المريض إلى الطبيب بأنواع العطاء والإكرام . ومع ذلك فإن إصراره على رفضها بعد إغداق العطاء عليه ، وبعد معالجته بألوان الوعيد والتهديد ، هو بأن يكون في نظرهم دليلاً على جهله وعجزه ، أخرى منه دليلاً على خبثه وبخله . فهذا الفشل والإخفاق من المعبودين ، وهذا اليأس من العابدين ، يلجئ الناس بفطرتهم إلى الاعتراف بقوة علوية ، يتقاصر دونها علم العالمين وقدرة القادرين ، وإن التجشوا أحياناً إلى القوى الدنيا ، التماساً للحاجة العاجلة من حيث يظنون الحصول عليها .

إلا مظهر ومطلع يطل منه هذا الروح الخفي ، ويبارك من يتمسح بتلك الهياكل التي اتخذها له مظهراً ومزاراً .
يلزمنا إذاً أن نضم عنصراً رابعياً إلى التعريف : فنقول إن القوة التي يقدسها المتدين ليست فكرة مجردة ، وصورة عقلية خالصة ، بل هي حقيقة خارجية ؛ ونقول إن هذه الحقيقة ليست مادة يقع عليها الحس ، بل هي سر غيبي لا تدركه الأبصار ؛ ونقول إن هذه القوة الغيبية قوة عاقلة تصرف بالإرادة ، لا بالضرورة كالمغناطيس والكهرباء ؛ ونقول أخيراً إن لهذه القوة عناية مستمرة بشؤون العالم الذي تدبره ، وإن لها تجاوباً نفسياً مع نفوسه .

وهكذا نقرر مع العلامة (تايلور) أن الدين يتضمن دائماً الإيمان بكائنات روحية ، لكن على شريطة أن نأخذ كلمة الروح هنا بأوسع معانيها فلا نحدد طبيعتها ، ولا مدى سلطتها ، ولا طريقة تصرفها ، بل ندعها تتسع للتصورات المختلفة في ماهية تلك القوة ؛ ونكتفي بأن نقول على الجملة إنها قوة خفية ، شاعرة ، مدبرة ، وإن أفعالها تصدر عنها بمحض إرادتها ، وإنها تستمع لمن يدعوها ولها مطلق الحرية في قبول مطالبه أو رفضها .

هذا العنصر الرابعي : — عنصر الذات ، الغيبية ، الروحية ، المتصلة معنوياً بعابديتها — هو الحد الموضوعي الرئيسي الذي يفصل بين وجهتي النظر الدينية واللا دينية .

فبينما النظرة المنطقية أو النفسية تنحصر في حظيرة العقل أو النفس ، باحثة عما فيهما من المعاني والأحوال . ولا يعنىها دراسة ما خلف هذه الحدود ؛ والنظرة الطبيعية تبرز إلى الوجود الخارجي ولكنها لا تعالج إلا ما يقع عليه الحس والمشاهدة بالفعل ، أو ما هو من نوع (١) هذه

(١) إياك أن تظن إذاً أن خضوع علماء المادة لقوة القانون الطبيعي العام يعد منهم خضوعاً لسر باطن أو لمعنى معقول ؛ فالواقع أنهم إذا جاوزوا المشاهد المحسوس ، لم يفكروا =

المحسات المشاهدات ، ولا تنفك عن هذه القيود ، تنفذ النظرة الدينية فترمي من وراء ذلك كله إلى حقيقة أخرى لا تلبس في داخل النفس ولا في خارجها المادى ، وإنما هي ذات غيبية وراء الطبيعة ، بل فوق الطبيعة . . . فشان المتدين أنه يطلب وراء كل حس معنى ، ويلتمس تحت كل ظاهر باطناً ، ويضع في مبدأ كل فعل فاعلاً ؛ معتقداً أنه لا يقع في الكون شيء من دقيق الحوادث وجليها إلا وللإله (أو لبعض الآلهة) فيه قضاء وتدير . نعم إن الفلسفة الروحية تشارك النظرة الدينية في هذا الإيمان بما وراء الطبيعة من قوة أو قوى فاعلة عاقلة ؛ ولكنها تفارقها بأنها منقطعة الصلة الأدبية بهذه القوة : فليس بين الفيلسوف وبينها ارتباط بحقوق أو واجبات ، وليس بينهما مناجاة تبادل فيها المطالب والرغبات . أما المتدين فإنه يؤمن بهذه الصلة إلى حد أنه يجعلها جزءاً حيوياً من كيانه النفسى ؛ ولذلك نراه كلما حزبه حاجاته ، وتمسرت عليه رغباته ، تطلع إلى روح أشد قوة ، يلتمس منها تلك الحاجات والرغبات .

على أنه ليس كل إيمان بقوة غيبية روحية ، ولا كل توجه إلى تلك القوة ، يدخل صاحبه في جماعة المتدينين ؛ فإن موقف العالم الروحاني في مناجاته للأرواح ، ليس أحق باسم التدين من موقف أخيه العالم الطبيعي لدى الأشباح ، وإن كان قد يشبه الأمر بينه وبين موقف المتدين في عبادته ، من حيث يتصل كل منهما بقوة خفية ، يستلهمها ويلتمس عونها ، إلا أنه ، على الرغم من الاشتراك في جنس هذه الصلة ، تختلف الحقيقتان اختلافاً كبيراً ، حتى إن طرفي النسبة في الأوضاع غير الدينية قد يبدوان منعكسين

إلا فيما هو من جنس المشاهد المحسوس . وليس القانون العلمى في نظرهم إلا تلك العبارة الجامعة التي تلخص جملة من التجارب المتكررة في حوادث مشاهدة يرتبط بعضها ببعض على نسق ثابت . فهم دائماً في استسلام للأمر الواقع الذى لا يفقهون تعاقبه ، ولا يعنهم معرفة سببه الأول . أما النظرة الدينية فإنها ، حتى عندما يشوبها الخطأ وتميل إلى الحرافة ، تهدف إلى أفق أوسع وأعمق ، فتجعل صاحبها يخضع تعظيماً لمبدأ الأمر ومبدئه ، ومصرفه ومدبره ، على أى صورة أمكنه أن يتصور ذلك المبدأ المختار .

تمام الانعكاس بالنسبة لها في الأوضاع الدينية ؛ ذلك أن القوى السرية التي يدعوها الساحر^(١) أو الكاهن أو مناجي الأرواح لا تقع صورتها في

(١) السحر صناعة يقصد منها إحداث الحوارق بطرق خفية . وهو فن يتشعب إلى شعب كثيرة . فهو كما يختلف من حيث قيمة أهدائه (إذ منها الخبرة ؛ كشفاء المرضى ومعرفة السارق ؛ أو الضريرة كجلب الأمراض وإيقاع العداوة بين الأزواج والأصحاب) يختلف كذلك من حيث مناهجه ووسائله . فنه ما يعتمد أسباباً طبيعية وهو المسمى بالسحر الأبيض « *magie blanche* » ومنه ما يستدعى وسائل روحانية ، وشيطانية على الأخص ، وهو المعروف بالسحر الأسود « *magie noire* » .

وحدثنا هنا إنما هو عن هذا القسم الذي يقوم على الاستعانة بالأرواح ودعائها لتحقيق مآرب الساحر ؛ لأنه هو الذي ينصرف إليه اسم السحر عند إطلاقه ؛ وهو الذي قد يشتهر جنسه بالأعمال الدينية .

وذلك بخلاف القسم الأول ، الذي يعتمد الوسائل المادية ؛ فإنه لا التباس في أمره ، على الرغم من كثرة أنواعه واختلافها : (فنه نوع) يقوم على المهارة وخفة اليد وهو المسمى بالشعوذة أو الشعوذة . (ونوع) ينتم بالحصائص الطبيعية والكيميائية للأشياء ؛ وهذا هو سحر علماء الصيدلة ونحوم . (ونوع) يعتمد على حساب سير الشمس والقمر ومواقع النجوم ، وما يظن من الارتباط بينها وبين حوادث الكون ؛ وهو المسمى بالتنجيم . (ونوع) ينسب على الاعتقاد بأن الأشياء والناس يوجد فيها — بصورة جلية في البعض وخفية في البعض الآخر — خاصية يسميها الليلانيزيون *mana* ويسميها بعض القبائل *manitout* وبعضها بأسماء أخرى ؛ وهي تلك القوة التي يمكن رجتها بكلمة المنة بضم الميم ، أو بكلمة اليمين بضم الياء ، أو اللوهية ، أو الحظ ، أو البركة ؛ وبالجملة السر الذي من تاله فقد وافاه التوفيق في مقاصده من الرزق والنصر والقوة والنفوذ إلى غير ذلك . والجهلاء حين يلتمسون هذه القوة في أبرز مظانها يعتمدون في الغالب على أول تجربة أو مصادفة يقترن فيها الحظ بوضع معين ، أو بالحضور في مجلس شخص معين ، أو باقتناء شيء معين من الجراد أو النبات أو الحيوان ؛ فينسبون السر في النجاح إلى ذلك الشخص أو الشيء . ومن لم تقع له التجربة بنفسه فن السهل أن يسرى إليه الاعتقاد ، بحسن الظن والتصديق لتجارب غيره من معاصريه أو من أسلافه . ومن البين أن القوة المذكورة مباينة للقوة التي هي موضوع الأديان لأنها ليست قوة مستقلة متخصصة ، بل منبثقة في الكون ، ولأنها ليست قوة عاقلة ؛ بل قوة مادية أي سارية في المواد كامنة فيها ، غير مسيطرة ولا مستعلية عليها ؛ فليست روحاً ، فضلاً عن أن تكون إلهاً . (ونوع) يستخدم التشابه الصوري ، أو الجزئي ، أو غير ذلك من اللابسات ، في نقل الأثر — الذي يحدثه الفاعل في صورة الشخص أو في قطعة منفصلة من شعره أو من ثيابه — إلى جسم صاحب الصورة أو صاحب الشعر أو التندبل مثلاً . وقد كان القدماء يسمون هذه الخاصية بالتجاذب الشبهى بين الأشياء *sympathie* . ولقد ظهرت في أوروبا الآن نظرية طيبة أقيمت =

أخيلتهم على أنها شيء يعلمون فيتناولون اليه ، بل على أنها قرن ينازلونه ، أو قرين يخادونه ؛ وقد يرون لأنفسهم من العلو والسلطان على تلك القوى بوسائلهم الخاصة ما يستطيعون به أن يقتنعوها ويخضعوها لأوامرهم ، ويسخروها لرغباتهم ، كما يسخر الكيميائي عناصر الطبيعة المادية لمآربه . أما العابد فإنه يقف من معبوده موقف الخاضع المتواضع ، الساعى في رضى سيده ، المشفق من غضبه وسخطه .

فالفاصل الأخير ، الذى يتم به تصوير القوة التى يؤمن بها المتدين ، أنها قوة علوية سبحانه ، قاهرة غير مقهورة ، يخضع هو لها ، ولا تخضع هى له .

وإن شئنا أن نضرب مثالا حسيماً لهذه الأهداف المختلفة ، قلنا إن قبلة العالم المادى تحت أقدامه ، لأن القوى التى هو منها بسبيل قوى عمياء صماء ، يحس بها ولا تحس به ، وإذا دعاها لا تستجيب له . وقبلة العالم الروحى هى من وجه ما فى مستوى أفقه ؛ لأنها وإن كانت أقدر منه على التصرف ، إلا أنها قوى حية عاقلة مثله ؛ ولكنها من وجه آخر هى دونه ، لأنها تحت يده ، متصرفة بأمره ، متفاداة إلى تعاويذه وطلاسمه . أما المؤمن فإنه يهدف

على تجارب عدة ، استنبطوا منها أن كل شخص له إشعاع كهربائى خاص ، يوجد نموذج منه فى كل ما يتصل به ، حتى فى صورته الشمسية أو البقاعة التى عليها اسمه ، وأن لكل معمار من العقاقير أشعة خاصة كذلك ، وأن الدواء الناجع هو الذى يتحقق فيه التناسب والتوافق بين إشعاع الجسم المريض وإشعاع المادة التى سيعالج بها . ورأيت هناك أطباء يعالجون مرضاهم بهذا الأسلوب ، الذى لا يزال فى دور التجربة ؛ ويسمونه radiesthésie أو الحساسية بالإشعاع . فهذه الأنواع كلها تتنازع بخلوها عن فكرة الروح ؛ فلا مجال لالتباسها بالأوضاع الدينية .

أما القسم الروحى فالفرق الرئيسى فى نظرنا بينه وبين الديانات أن الاستعانة بالروح فيه استعانة استخدام وسخير ، لا استعانة عبودية وتعبدية . وهذا وقد ذكر دوركايم ومتابعوه فروقاً أخرى ، فقالوا إن وجه الانفصال بين الحقيقتين هو أن الأصل فى الشعائر الدينية أن تؤدى فى جماعة ؛ وأن الفكرة الدينية تؤلف بين معتقبيها فى وحدة معنوية . ولا كذلك الحجر ، الذى هو عمل فردى سرى ، فضلاً عن أنه فى الغالب ينتهك حرمة المقدسات الدينية أو يعكس أوضاعها . وتلك كما ترى فروق ثانوية ؛ وهى بعد لا تأخذ صفة العموم ، لا طرداً ولا عكساً .

إلى أعلى من ذلك كله ؛ لأنه يتجه إلى القوة العليا باطلاق . فالكل ينكسون
أبصارهم إلى الأرض ، والمؤمن يرفع رأسه إلى السماء .

هذه العناصر الخمسة التي يتألف منها (موضوع) العقيدة الدينية ، ينبغي
أن يضم إليها عنصر (ذاتي ، نفسي) يتميز به نوع الخضوع الذي يتصف به
المتدين بإزاء موضوع عقيدته .

وإليك البيان :

الناظر إلى العالم العلوي في جملة يراه مسخراً تحت سلطان القدر ، في
أوضاعه ، وأحجامه ، وحركاته ، وطبائعه : كل شيء فيه له قدر لا يعدوه ،
وطور لا يتجاوزه ... والناظر في عالمنا الأرضي كذلك يجده مقيداً بنسب
معينة من البعد عن الشمس وعن الكواكب ، وبمقادير معينة من الضوء
والحرارة والضغط الجوي وغيرها ... والناظر إلى هذه الكائنات الحية التي
على ظهر الأرض يراها كلها خاضعة لقانون الشبخوخة والهرم ، وأخيراً
لظاهرة الموت^(١) ... تلك كلها ضروب من الخضوع الطبيعي ، منها ما هو

(١) لقد بلغ تقدم العلوم الطبيعية والتجارب الطبية في عصرنا هذا مبلغاً بهر الناس ، حتى
جعل بعضهم يتساءل : أليس من الممكن أن يمحي يوم يستطيع فيه العلم أن يكفل للناس
الخلود ، ويحعو من بينهم ظاهرة الموت ؟

ولم يكن بدعاً من الأمر أن يداعب الإنسان هذه الأمنية ، وأن يترجم بها غريزة طلب
البقاء المتأصلة في نفسه ، والتي يدل عمقها في النفوس البشرية على أنها للبقاء خلقت ؛ غير أن
هذا الإنسان يضل طريق الصواب حين يلمس تحقيق أمنيته من صنم يتعته في خياله ثم يسميه
باسم العلم ، والعلم برىء من نسبته إليه ؛ لأنه أعلم بضعفه وبجزءه من هؤلاء الخدوعين فيه .
ولسكن هب الطب قد توصل يوماً ما إلى إمداد الناس بالغدد والهرمونات وسائر الأجهزة
والوسائل التي تهيء لبنيته صلاحية العمل المتواصل إلى غير نهاية ؛ فكيف يتقدم الناس بهذه
المرحلة الجديدة في سبيل الخلود ؟ إن كل ما سوف يقدمه لهم العلم يومئذ هو منع فصيلة واحدة
من أسباب الموت هي أضرارها وتوابعاً ، وهي الأسباب (الفيسيولوجية) أعني أعراض الشبخوخة
التي هي نتيجة إنهاك الآلات العضوية واستهلاكها . أما الأسباب الأخرى التي لا عداد لها ،
والتي تتعفن جيوشها في داخل الجسم وخارجه ، وترتبس أخطارها للحياة في الحضر والفر ، =

آلى لا شعورى ، ومنها ما هو شعورى اضطرارى ؛ كمثل الذى يتردى من نافذة علوية ، فهو حين يهوى فى الفضاء لا يسعه إلا الاستسلام لهذه الحركة القسرية راغماً مكرهاً . أما المتدين فخضوعه شعورى اختيارى ممأ ، وهو حين يخشع لمعبوده ويسجد لعظمته يفعل ذلك عن طواعية لا عن كراهية ؛ لأنه يقوم فى ذلك بحركة نفسية من التمجيد والتقديس تأبى طبيعتها أن تؤخذ قهراً ، وإنما تعطى وتمنح لمن يستحقها متى اقتنعت النفس بهذا الاستحقاق . نعم إن هناك نوعاً من الإكراه (وهو الإكراه غير المباشر ، كالتهديد بالعقاب) يمكن أن يفضى إلى مظهر من مظاهر التعظيم وصورة من صورته المادية ، ولكنه لا يمكن أن يتولد عنه حقيقة التعظيم ولا صورته القلبية . فهذا وجه ينفصل به خضوع العبادة عن خضوع العبودية العامة . والله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً ، وكرهاً .

ووجه آخر : وهو أن خضوع المتدين لمعبوده وإن كان خضوعاً كلياً لقوة قاهرة كما يقولون ، ليس هو ذلك الخضوع الذى يخلق اليأس ، ويكبت النفس . ويغل من الجهد ، ويحد مجال العمل ، ويسد باب الأمل ؛

== فى اليقظة والنوم ، فى الحركة والسكون ، فى العمى والخطأ ، فيما يرى وما لا يرى ، فى عناصر الطبيعة العليا والدنيا ، فيما يجمل عن الوصف وما يدق على التحليل ... فإن السيطرة عليها تغترس الإحاطة بالحوادث الكونية والإنسانية التى ستتم فى لحظة ما ، قبل وقوعها ، واليقظة لها حين وقوعها ، والعلم بما ستسلكه فى مراحل تطورها ، بعد وقوعها ، والقدرة على الوقاية منها من قبل ، وعلى رفعها أو محو أثرها من بعد ... وإذ لا سبيل لى منع حادث إلا بمنع أسبابه ، كانت الإحاطة الكاملة بهذه الحلقات القريبة من الأحداث لا تنفى دون الإحاطة بمقدماتها ، ومقدمات مقدماتها ، صاعداً إلى بدء الحياة ، بل إلى نشأة المادة ، حتى يجثت الداء من أصوله ، وحتى لا يقف فى مرحلة ما أمام أمر واقع لا يستطيع له تحويلاً ، ولا يجهد عنه مصرفاً ... أفلا ترى مبلغ الخلف والإحاطة والتناقض الذى يفضى إليه هذا الافتراض العريض ، وهو أن هذا الإنسان ابن أمس يلزم أن يكون قد كان قبل أن يكون ، وأنه قد شهد خلق السموات والأرض وخلق نفسه ؟ وأن هذا الإنسان المحدود القوى والملسكات ليس محدود القوى والملسكات ، بل أحاط بكل شىء قدرة ، وأحصى كل شىء علماً ؟ أليس مأل هذا أن يفرض الإنسان كائناً آخر غير هذا الإنسان الذى نعرفه ؟ ... إن الذى يملك مفتاح البقاء هو واهب الحياة ، لا من وهبت له الحياة وهو لا يدري كيف ؟ ولا متى ؟ ولا لى متى ... ؟ .

بل هو شعور يرفه عن القلب بما يفتحه أمامه من آفاق الإمكان ، هو شعور يضع عن النفس الأثقال ، ويحطم ما حوّلها من الأغلال ، وتكاد لا تعثر في لغته على كلمة « المحال » . فإذا اشتدت الأزمات ، وضائق الحلقات ، أمام المتدين ، ترمى له من خلالها أبواب ومخارج ليس دون انفراجها إلا أن يأذن مصبوه . ولذلك إذا رأته في توجهه إلى هذا المعبود رأيته مقسم القلب أبدأ بين الرغبة والرغبة ، موزع الأمل بين الشك واليقين ؛ لأن القوة التي يتوجه إليها بالعبادة هي في نظره أعز منالا ، وأعظم استقلالاً ، من أن تخضع لغير إرادتها نفسها ، تلك الإرادة التي لا يعرف هو قانونها ، بل يقف حائراً أمام أسرارها .

هذا الترقب والانتظار في مزيج من الأمل والحذر أمام دولاب الحوادث ، هو إحدى الظواهر العامة التي نلاحظها في نفسية المتدين ، ولا نجد لها إلا في نفسية المتدين (أو المؤمن بإرادة مهيمنة على الطبيعة) ؛ ذلك أن الطبيعيين حين يرون ترابط الأشياء وتتابعها في نظام مطرد ، يقف بهم النظر في هذه النظم عند حد العادة الجارية ، فيطمثنون الاطمئنان كله إلى استقرارها ودوامها ، ويأسون اليأس التام من تحولها وانفصامها ؛ فهم أبدأ في أحد طرفين متباعدين : إما أمن غافل ، وإما يأس قاتل . أما العقيدة الدينية (وكذلك الفلسفة الروحية) فإنها لا تخضع لسياسة الأمر الواقع ، بل تنفذ إلى بواطن الأمور وأعماقها ، فتقيس الوجود بمقاييس العقل ، وتزنه بموازين الإمكان ؛ وبذلك يتكشف لها الكون عن حقيقته ، فلا ترى في نظامه الواقعي ضرورة ذاتية ، ولا في تبدل هذا النظام استحالة ذاتية ، بل ترى عليه طابع الصنعة الموضوعية ، وأثر الترتيب المقصود ، وترى أمر بقائه أو تطوره رهيناً بالإرادة التي وضعت هذا النظام وحفظته ؛ لأن من استطاع أن يربط السلسلة ، استطاع أن يفصمها ؛ ومن أدار الدولاب ذات اليمين قدر أن يديره ذات الشمال ؛ ومن صرف الأمور بمحض اختياره على وجهه ، كان في وسعه أن يحدث في سيرها من العجائب

والشواذ والمفاجآت ما يخرق كل حساب ، فيبرىء المريض الذى يعجز الطب عن علاجه ، ويخلص الأسير الذى أوصدت دونه الأبواب ، وينزل النيث في القيظ ، وينصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة ... إلى غير ذلك .

هكذا نرى الأديان في كل صورها ومظاهرها تقف إلى جانب الأهل والامكان ، والحرية والاختيار في مبدأ الأشياء . وهى بهذه النزعة في الحقيقة تخدم العلوم وتمهد لتقدمها ؛ إذ تفسح المجال أمامها في تغيير معالم الأشياء إلى مدى أبعد مما تتصوره العلوم الواقعية ، التى هى بطبيعتها جبرية إلى أقصى حدود الجبر ، يؤسسه إلى أبعد حدود اليأس ؛ لأنها كلما كشفت قانوناً وقفت عنده دهرأ ، تبنى على أساسه كل فنونها وصناعاتها ... حتى إذا انتقلت إلى مرحلة أخرى ، انتقلت بذلك من طوق حديدى إلى طوق أوسع منه ، ولكنه في نظرها طوق حديدى على كل حال ؛ فهى تعيش يوماً بيوم ، لا تؤمن إلا بعينها ، ولا ترى أكثر من طرف أنفها . إلا أنها في هذا السير الخثيث إلى الكشف والتجديد ، خاضعة في الواقع من حيث لا تشعر لدفعة خفية من الإيمان بإمكانيات لانهاية لها في الكون ، كما أنها تلس في أثناء تجاربها اليومية أن كل جديد تحصل عليه في تبديل أوضاع الأشياء إنما هو ثمرة مجهودات إرادية عاقلة . وليس هناك مثال واحد ، منذ عرف الإنسان الكون ، يدل على أن الطبيعة بدلت أوضاعها ، وأحدثت في نفسها نظاماً جديداً ، من غير تدخل قوة شاعرة مستقلة عن تلك المادة ، مهيمنة عليها . أليس هذا وحده كافياً في لفت النظر إلى أن سائر الترتيبات السابقة ، التى نراها في طبائع الأشياء أو سير الحوادث ، لم تبرز هكذا من تلقاء نفسها ولا بقوة لاشعورية مثلها ؛ هذا هو أساس الفكرة التى تسيطر على الدينيات والروحيات جميعاً ، وهى أن على رأس كل سلسلة من الأسباب قوة اختيارية ، هى قوة الإنشاء والابتكار التى لا بد أن ينتوى عليها السبب الأول .

نعم إن العلوم الواقعية ، حين تنظر في هذه الآلة الكونية الدقيقة

لفحص أجزائها وتعرف قانون سيرها ، إنما يعنينا من وراء هذا البحث تنظيم الجهد الإنساني وتنسيقه على وفق ذلك القانون الآلى . وهى من هذه الوجهة الخاصة لا لوم عليها فى إهمالها السؤال عن مخترع هذه الآلة وواضع ذلك النظام ؛ لأن هذا السؤال خارج عن طبيعة المهمة الأولى التى تخصصت لها . ولكن اللوم كل اللوم على الإنسان ، بما هو إنسان ، حين يضع يديه هذه القيود الحديدية لعقله ، وحين يبتز هذا العنصر الجوهري فى كيان نفسه ، بإبعاد هذا السؤال بتاتا من بين بحوثه ، قناعة باللحظة الحاضرة عن الماضى السحيق والمستقبل البعيد ، لأنه بذلك يهبط من عرش إنسانيته إلى صف الحيوانية ، ويسكت ذلك الصوت السماوى الذى يناديه من أعماق روحه ، مستحثا له على استكمال فطرته ، زاجرا له عن الاكتفاء بنظرة فى حاضر الأشياء وحاضره ، عن التطلع إلى مبدئها ونهايتها ، وإلى مبدئه ونهايته .

والآن نستطيع أن نضم العناصر الرئيسية التى استخرجناها فى ثنايا هذا التحليل ، وأن نؤلف منها الحد التام لماهية الدين ، فنقول :
الدين هو الاعتقاد بوجود ذات — أو ذوات — غيبية ، علوية ، لها شعور واختيار ، ولها تصرف وتدير للشؤون التى تعنى الإنسان ؛ اعتقاد من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية فى رغبة ورهبة ، وفى خضوع وتمجيد ، وبعبارة موجزة ، هو الإيمان بذات إلهية . جديرة بالطاعة والعبادة . هذا إذا نظرنا إلى الدين من حيث هو حالة نفسية *état subjectif* بمعنى التدين . أما إذا نظرنا إليه من حيث هو حقيقة خارجية *fait objectif* فنقول : هو جملة النواميس النظرية التى تحدد صفات تلك القوة الإلهية ، وجملة القواعد العملية التى ترسم طريق عبادتها .

و بعد ، فلن يشق على القارئ أن يعود الآن بنفسه إلى التعريفات المختلفة التى نقلناها فى صدر هذا البحث ، وأن يتبين فى ضوء هذا البيان

مقدار ما في كل واحد منها من وفاء أو زيادة أو نقص عن الحاجة . غير أننا نود أن نشير إلى مؤاخذتين مهمتين في تعريف (دوركايم) و (ريناك) وأشياءهما .

أما (الأولى) فهي أن هؤلاء الباحثين لم يعتبروا من القدسية الدينية سوى جانبها العملي ، السلبى ، وهو تحريمها لبعض الأشياء ، والتحذير من مباشرتها والدنو منها : « Tabou » . وقد فاتهم أن المنع من لمس شيء ما ليس دائماً دليل قدسيته ، بل قد يكون على الضد دليل ما فيه من خبث ورجس ؛ كما فاتهم أن الشعائر العملية في كل نخلة يجب أن تكون ترجمة كاملة لعقائدها ؛ فإذا كان التقديس هو من أحد جانبيه تنزيهاً عن العيوب والنقائص ، فهو من الجانب الآخر وصف بالجميل والكمال ، هو تعظيم للقيم الكبرى ، والمثل العليا . فمظهره في الناحية السلبية عدم انتهاك الحرمات ، وفي الناحية الإيجابية الإقبال على الفضائل إغترافاً من معينها ، وتذوقاً لجمالها ، وتمثلاً لجوهرها . فالتعريف إذاً قاصر عن استيفاء أجزاء المعرف .

وأما المؤاخذة (الثانية) — وهي أشد خطراً وأمس بالجوهر — فهي أنهم بتجريدهم ماهية الدين من فكرتى « الروحانية » و « الآلهية » قد جردوها من أخص صفاتها ، ونزعوا منها المحور الذى تدور عليه كل عناصرها ، والمعيار الوحيد الذى تقاس به مظاهرها ، وتميز به عما سواها . وفي الحق أن التعريف الذى يقدمونه لنا بعد حذف هاتين الخاصتين يمكن تطبيقه بأكمله على كل مظهر من مظاهر النشاط الاجتماعى ، متى كانت له صبغة السنن الموروثة ، التى يلتزم الجمهور مراعاتها في حياتهم الأدبية ، أو الفنية ، أو الاقتصادية ، أو غيرها . فعادة رفع الأعلام في الأعياد ، والقيام عند السلام الوطنى ، ولبس السواد في الحداد ، ووضع الخاتم في أصبع معينة للزوج أو غير المتزوج ، وحفلات التكريم ، وإشارات التعظيم ، والأزياء القومية أو الطائفية ، وسائر العوائد الملتزمة التى تسمى « بالاتيكيك » أو « البروتوكول » ، التى يعد الخروج عنها نائياً في ذوق العرف العام أو

الخاص - كل أولئك يسوغ لنا بمقتضى تعريفات المدرسة الاجتماعية الفرنسية أن نسميها أعمالاً دينية وعبادات . ومثل هذا يقال في باب الآراء والمذاهب السياسية وغيرها .

ولا يكفي لإزالة اللبس هنا أن نقول إن الفكرة الدينية تقتضى « الإيمان بأن الموجودات ليست كلها من نوع واحد ، ولا في مرتبة واحدة ، بل بعضها أسمى من سائر الأنواع ،^(١) لأن اعتقاد هذا التفاوت كما يتحقق في الفكرة الدينية يتحقق في غيرها ، كاعتقاد أمة ما أنها أرقى عنصراً ، وأنبل مولداً ، وأحق بالزعامة العالمية من سائر الأمم . . . وهكذا ينفرط العقيد ويمتد اللبس بين الحقائق الدينية وغيرها إلى أقصى مداها . وما وضعت الحدود إلا لإقامة الحدود بين المعاني المختلفة ، حتى لا يبغى بعضها على بعض .

(١) رسالة « الوحي والدين والإسلام » ص ٢٨ و ٢٩ للمرحوم الشيخ مصطفي عبد الرازق . وأصل هذه التفرقة معروف عند مؤلفي الغرب بعبارة مختلفة . انظر معجم

العلامة للأستاذ لالاند : (LALAND, Vocabulaire Technique et Critique de la Philosophie, p. 704).

البحث الثاني

علاقة الدين بأنواع الثقافة والتهديب

عبد الرحمن بن عبد الوهاب - مؤلف كتاب التوحيد

الدين والتهديب

البحث الثاني

في

علاقة الدين بأنواع الثقافة والتهديب

ذلك أنما إذا نظرنا إلى (الدين) من حيث هو معرفة (الحق) الأعلى وتوفيقه ، وإلى (الحق) من حيث هو قوة الزوج إلى فعل (الحق) وحيد النفس من الخوى ، كان أماننا حقيقان مستقلتان ، يمكن تصور إحداهما بدون الأخرى ، فنحن أولاهما بالنسبة البطرية ، والأخرى النسبة العلية .

وهو أنه لما كانت النسبة العلية يمكن أن تتناول حياة الإنسان في نفسه ، وفي مختلف علاقاته مع الخلق ، ومع الرشد كان القانون الأخلاقي الكامل هو الذي يرمي طريق المعاشاة الإلهية ، كما يرمي طريق المعاشاة الإنسانية ، وكذلك لما كانت النسبة البطرية التامة من التي لا تجعل من الأروحية مبدأ علاج فعال لحب ، بل مصدر حكم وتشريع في الوقت نفسه .

المؤمن عند كل أولئك يسوق لنا بعض من خصائص المدرسة الاجتماعية
الفرنسية أن نسميها أمثالا جيدة ومباعدة. ونحن هنا نقول في باب الآراء
والمذاهب السياسية وغيرها.

ولا يكن لإزالة الفس هنا أن يقول إن الفكرة الدينية تقضي
الإيمان بأن الموجودات ليست كلها من نوع واحد، ولا في مرتبة واحدة،
بل بعضها أعلى من سائر الأخرى، لأن اختلافها متفاوت كما يتحقق في
الفكرة الدينية يتحقق في غيرها، كما تتلذذ أمة ما أنها أرق حضرا، وأقبل
موردا، وأحق بالرحمة العالية من سائر الأمم. . . . وهكذا يفرض العقل
وحد الفس من الحقائق الدينية وغيرها إلى أن يفسد بها. وما وضعت
الحدود إلا لإقامة الحقائق الدينية وغيرها إلى أن يفسد بها.
على بعض

ع

ببينها تارة فلقنا واه أبا نينا اقله

(١) رسالة في الفس والدين والإسلام، ص ٢٨ و ٢٩، ترجمه الشيخ سنان

عبد الرزاق، وأصله عند الجارية معروف منذ طرقت فرنسا سفارات جند. أصله

الكتاب لأستا الأديب G. LALANDE, Vocabulaire Technique et Critique de la Philosophie, p. 190.

البحث الثاني

في

علاقة الدين بأنواع الثقافة والتهديب

الدين والأخلاق — الدين والفلسفة — الدين وسائر العلوم

الدين والأخلاق

ها هنا نوعان من الدراسة للصلة بين الدين والأخلاق : دراسة (نظرية ، تجريدية) تنظر إلى الأشياء كما يمكن أو كما يجب أو تكون ، ودراسة (واقعية ، تاريخية) تنظر إليها كما كانت بالفعل .

(فن الناحية التجريدية) يمكننا ، بوجه من النظر ، أن نجعل من هذين المعنيين حقيقتين متغيرتين ، وبوجه آخر ، أن نجعل منهما مفهومين متداخلين .

ذلك أننا إذا نظرنا إلى (الدين) من حيث هو معرفة (الحق) الأعلى وتوقيره ، وإلى (الخلق) من حيث هو قوة النزوع إلى فعل (الخير) وضبط النفس عن الهوى ، كان أمامنا حقيقتان مستقلتان ، يمكن تصور إحداها بدون الأخرى ، فتختص أولاها بالفضيلة النظرية ، والأخرى بالفضيلة العملية .

غير أنه لما كانت الفضيلة العملية يمكن أن تتناول حياة الإنسان في نفسه ، وفي مختلف علاقته مع الخلق ، ومع الرب ، كان القانون الأخلاقي الكامل هو الذي يرسم طريق المعاملة الإلهية ، كما يرسم طريق المعاملة الإنسانية . وكذلك لما كانت الفكرة الدينية الناضجة هي التي لا تجعل من الألوهية مبدأ تدبير فعال فحسب ، بل مصدر حكم وتشريع في الوقت نفسه ،

كان القانون الديني الكامل هو الذي لا يقف عند وصف الحقائق العليا النظرية ، وإغراء النفس بحبها وتقديسها ، بل يمتد إلى وجوه النشاط المختلفة في الحياة العملية ، فيضع لها المنهاج السوي الذي يجب أن يسير عليه الفرد والجماعة . وهكذا يصل القانون الديني — إذا استكمل عناصره — إلى بسط جناحيه على علم الأخلاق كله ، بل على سائر القوازين المنظمة لعلاقات الأفراد والشعوب ، بحيث يجعلها جزءاً متمماً لحقيقته ، ويصبغ كل قواعدهما بصبغة القدسية ، فيصبح اتباع الفضائل الفردية والاجتماعية نوعاً من الطاعة لأوامر الدين ، وباباً من أبواب القربات والعبادات الإلهية ؛ فضلاً عن كونه تحقيقاً لمبدأ العدالة الإنسانية ، وتلبية لداعي الفطرة السليمة .

وخلصة القول في هذه الناحية التجريدية أن الدين والأخلاق في أصلهما حقيقتان منفصلتان النزعة والموضوع ، ولكنهما يلتقيان في نهايتهما ، فينظر كل منهما إلى موضوع الآخر من وجهة نظره الخاصة . كمثل شجرتين متجاورتين تمتد فروعهما ، وتتعانق أغصانهما ، حتى تظلل إحداهما الأخرى . (أما من الوجهة الواقعية) فإننا لا نرى الصلة بين الدين والأخلاق تبلغ دائماً هذا الحد من النساند والتعانق ، لا في مبدأ نشأتهما في نفس الفرد ، ولا في دور تكوينهما وتركزهما في قوانين وقواعد مقررة في المجتمع . أما في الحياة الفردية ، فإن هذا الاتصال يبدو واضحاً في عهد الطفولة والصباء ؛ فالشعور الأخلاقي أقدم وأرسخ في نفس الطفل من الشعور الديني . ولذلك نراه يبدأ في سن مبكرة جداً باستحسان بعض الأفعال ، واستنكار بعضها ، والاستحياء من بعض آخر ، ولا يشعر بالحاجة إلى تعليل ظواهر الكون وتقديس سر الوجود إلا في دور ثان يكون فيه أنمي عقلاً ، وأهدأ بالاً ، وأشد تيقظاً ، وأدق ملاحظة . وأما في المجتمع فإن امتزاج القوانين الدينية والقوانين الأخلاقية نراه لا يجري على سنن واحد في العصور والبيئات المختلفة ، فكثيراً ما ظهرت في التاريخ نظم أخلاقية لا تعرض لواجب الآلهة قط ، ولا تستقي تشريعها للفضائل الأخلاقية من وحى الدين ، بل من قوانين

العقل ، أو وحى الضمير ، أو سلطان المجتمع ، أو حساب المصالح والمنافع ، أو غير ذلك . كما ظهرت في التاريخ مذاهب دينية لا تعنى هذه العناية بالناحية العملية الاجتماعية ، بل كثيراً ما تجعل المتدين ينطوى على نفسه ، متخذاً مثله الأعلى في العزلة والصمت والتأملات العميقة .

نعم إن معرفة الحق وتعظيمه لا يتناولان في غالب الأمر عن مظهر يتمثلان فيه . ولذلك تكاد لا تخلو حقيقة التدين عن عنصر عملي يكون حلقة الاتصال بين الدين والأخلاق ؛ ويتحقق ذلك على الأقل في الجانب الإلهي من الواجبات الذي نسميه عبادة . لكن هذا المظهر نفسه قد تغمض معالمه ، وتتضامل صورته ، حتى يصير كلبه تعبر عن العجز والخيرة في التماس طريق التوجه إلى ذلك السر الهائل . وإن دين الخنفاء من العرب في الجاهلية هو أوضح مثال لهذه الحقيقة ، فابن هشام يروي لنا عن أحد هؤلاء الخنفاء وهو زيد بن عمرو بن نفيل أنه كان يقول وهو مسند ظهره إلى الكعبة : اللهم إني لو كنت أعلم أيُّ الوجوه أحب إليك عبدتك به . ولكني لا أعلمه ،^(١)

يتى علينا أن نتساءل عن المعنى الذي يقصد إليه غالباً من كلبتي « الدين » و « الخلق » ، في محاوراتنا العصرية . وهنا أيضاً نجد بين الكلمتين من المرونة في التداخل تارة ، والاستقلال تارة أخرى ، ما يجعلهما دائماً في شبه مد وجزر ، ويجعل من العسير تحديد المراد من كليهما بصفة حاسمة . إلا أنه يلوح لنا أن هاتين الكلمتين لا تزالان تخضعان في استعمالنا للقاعدة المعروفة في الكلمات العريضة التي من أسرة واحدة ؛ مثل « الرأفة والرحمة » ، و « البر والتقوى » ، و « الإيمان والإسلام » ، وغير ذلك . وهي أن هذه الكلمات التوائم كلها اجتمعت في العبارة افرقت في المعنى ، وكلها افرقت في العبارة اجتمعت أو مالت إلى الاجتماع في المعنى بقدر الإمكان . فإذا قلنا : « فلان ذو دين وخلق » . وجب لكي تخلو العبارة من عيب التكرار واللغو أن

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ١٤٤ .

تؤدي كل من الكلمتين معنى مستقلاً ، منعزلاً عن الآخر انعزالاً كلياً ؛ بحيث يختص الدين بالجانب الإلهي ، والخلق بالجانب الإنساني ؛ فيكون معنى الدين الإيمان أو التقوى الخاصة ، أعنى القيام بفرائض العبادة ؛ ويكون معنى الخلق التحلي بالفضائل والآداب الاجتماعية .

أما إذا اكتفينا بقولنا : « فلان ذو دين ، وكان المفروض أن الدين الذي نشير إليه من الأديان الخلقية المعروفة ، فإن كلمة الدين هنا تتسع لمعنى أختها المصوية أيضاً . وحينئذ يراد منها التقوى الشاملة الكاملة ، أعنى القيام بالفروض الإلهية والإنسانية معاً .

وكذلك إذا اكتفينا بقولنا : « فلان ذو خلق ، وكان مفهوماً أن الأخلاق المتواضع عليها جامعة للحقوق الإلهية والإنسانية . ولا تفوتنا هنا الإشارة إلى أنه ، حتى في هذه الحالة التي تأخذ فيها كلمة الخلق أوسع معانيها ، لا تصبح تلك الكلمة مرادفة تماماً لكلمة الدين ، لأن هذه لا تزال تمتاز بعنصر نظري جوهرى ، لا يمكن سقوطه ولو ذهب غيره من الأجزاء ، ذلك هو عنصر المعرفة بالإله والإيمان به ، وهو عنصر لا يدخل في طبيعة مفهوم الأخلاق ؛ لأنها دائماً ذات طابع عملي ؛ وما اعتمادها إن اعتمدت على وازع الدين والإيمان إلا اعتماد على دعامة ووسيلة ، لا على جزء متمم لحقيقتها ؛ وفي وسعها بعد أن تستغنى عن هذه الدعامة يباعث الوجدان أو غيره كما أسلفنا ، فلا يكون بينها وبين الدين العملي إلا تشابه موضوعي ، مع اختلاف البواعث والأهداف .

الدين والفلسفة

إذا نحن أحصينا ضروب المعرفة الإنسانية على كثرة اختلافها وفرط تنوعها ، وجدنا من بينها ضرباً يجرى مع الأديان في مجال ، ويكاد يعد من عصبها أو من ذوى رحمها الأقربين ، ولا نجد ضرباً آخر يزاحمه أو يدانيه

في هذا النسب . ذلك هو ما اصطلاح العلماء على تسميته باسم « العلم الأعلى » ،
أو « الفلسفة العامة » .

أليس موضوع الفلسفة هو نفسه موضوع الدين ؟ أوليست المشكلة
التي تعالجها الفلسفة هي بعينها المشكلة التي اتدبت الأديان لحلها ؟ فطلب
الفلسفة هو معرفة أصل الوجود وغايته ، ومعرفة سبيل السعادة الإنسانية
في العاجل والآجل . هذان هما موضوعا الفلسفة بتسميها العلي والعملي ،
وهما كذلك موضوعا الدين بمعناه الشامل للأصول والفروع .
غير أن الاتحاد في موضوع البحث لا يعني دائماً الاتفاق على نتائجه .
فكما أمكن أن تختلف الأديان^(١) في تعيين الحلول لهذه المسائل الكبرى ،
اختلفت مذاهب الفلسفة فيما بينها اختلافاً كثيراً ، بل قد يكون الاختلاف
بين الفلاسفة أشد تباعداً وأكثر تشعباً منه بين أهل الأديان .
وليس يعنيننا هنا أن نبحث عن وجوه الاختلاف الداخلي بين أهل
المعسكر الواحد من هذا الفريق أو ذاك ؛ ولكن الذي يعنيننا هو أن نعرف
الوجوه التي فصلت بين هذين المعسكرين : الديني ، والفلسفي ، حتى جعلت
كل طائفة منهما ذات لقب خاص ، لا يسوغ نقله إلى الطائفة المقابلة لها .
وإذ لا سبيل لنا إلى الفصل بين موضوعي الديانة والفلسفة ، بعد أن
تبينت وحدة هذا الموضوع ، بقي أمامنا أن نبحث عن وجه اختلافهما
في النتائج التي وصل إليها كل منهما .
غير أننا لا نستطيع أن نصدرها هنا حكماً عاماً شاملاً ، يجمع بين
الحقيقتين كلياً ، أو يفصل بينهما كلياً ؛ إذ أننا نجد كثيراً من المذاهب
الفلسفية قد توصلت بمجهودها العقلي المستقل إلى تقرير المبادئ الأولية
التي قررتها الأديان ؛ بينما نجد بعضاً منها قد انفصل من أول الطريق أو من
وسطه عن تلك المبادئ .

(١) واضح أننا نعني الأديان في مجملتها ، لا خصوص الأديان السماوية ؛ فهذه لم يكن بينها
اختلاف ألبتة في المبادئ العامة والقواعد الأصلية . وما طرأ على بعضها من الاختلاف في ذلك
فإنما هو ابتداء وانحراف .

وأشد هذه المذاهب انفصالا ، وأكثرها بعداً ، هي المذاهب المادية ، التي لا تعترف بشيء في الوجود وراء الحس والمشاهدة ، فتنكر بذلك مبدأ رئيسياً مشتركاً ، تقوم عليه جميع الأديان ، وتقره سائر الفلسفات . بل إن بعض الفلسفات الروحية ، التي تتلاقى مع الديانات في الاعتراف بأن للعالم صانعاً قديراً ، قد فهمت الصلة بين هذا الإله وبين العالم على وجه يجعلها تتخلف عن ركب الأديان في مرحلة أو أكثر ؛ إذ تفقد به عنصراً آخر من عناصر الديانات ؛ وأهمها عنصران :

العنصر الأول عنصر بدء الخلق ، أي إحداث المادة من العدم . وهو مبدأ تعترف به جميع النحل الدينية ، في حين أن بعض قدماء اليونان كان يرى أن الروح المدبر للعالم لم ينشئ هذا العالم إنشأً ، بل إنه وجد أمامه المواد الكونية مبعثرة بغير نظام ، فقام بتنسيقها على هذا الوجه الهندسي المتقن ؛ فالخالق في نظرهم ليس بارئاً . بل هو صانع ماهر démiurge (١) ليس غير .

العنصر الثاني عنصر الربوبية ، أو العناية المستمرة ، فإن الأديان كلها قائمة على فكرة التمجيد لقوة لها صلة بالحوادث اليومية ، ولها عناية دائمة بالكائنات ، لا تنفك عن إمدادها وتديرها ؛ وذلك هو أصل فكرة العبادة التي لا يتحقق اسم الديانة دونها . أما الفلسفات التي تؤمن بالألوهية فليست كلها تؤمن بهذه الربوبية ؛ إذ أن بعضها كان يرى أن صلة الإله بالعالم إنما هي صلة العلة الأولى والسبب البعيد الذي أدى عمله ، وانتهت مهمته ؛ وأن مثله كمثل المهندس البنّاء حين يفرغ من رسم البيت وبنائه ، ويصبح لا شأن له بسياسته وتديره ؛ أو على الأقل لا صلة له بتدبير عالمنا الأرضي (٢) .

(١) هذا هو اسم الخالق في لسان أفلاطون والأفلاطونيين .

(٢) اشتهر عن أبيقور Epicure أنه كان يزعم أن الآلهة تعيش عيشة مثالية في اللهو والنعم ، وأنها لا شأن لها بالعالم الأرضي حتى يرجو الناس خيرها ، أو يخشوا غضبها . وقد =

والآن دع هذه الفصيلة من المذاهب الفلسفية ، أعنى فصيلة المذاهب المتخلفة عن قافلة الأديان . وخذ بنا في المقارنة بين الدين وبين الفلسفات التي تلتقي مع الديانات ، لا في موضوعها وحسب ، بل في أصولها العامة التي أشرنا إليها . فهل ترى يصل أمر التقارب بينهما إلى حد الاتفاق في كل شيء ، حتى يصبحا اسمين لمسمى واحد ؟

هيات ! فقد بقيت وستبقى بينهما فروق كثيرة ، يراها بعض العلماء في الوسائل والمناهج ، وبعضهم في المصادر والمنابع ، وبعضهم في الظروف والملابسات ؛ وزاها نحن في شيء أعمق من هذا كله ، في العناصر المقومة لحقيقة كل منهما .

فلنبداً بعرض مقالات السابقين ونقدها ؛ ثم نختم بما نراه نحن في هذه القضية :

يقول الفارابي نقلاً عن قدماء اليونان إن اسم الفلسفة خاص عندهم باهل الذي تتعلل فيه حقائق الأشياء بذاتها ، لا بمثلها ؛ ويتوسل فيه إلى إثباتها بالبراهين اليقينية ، لا بمجرد الاقتناع . أما الملل والأديان فطريقها في التفهيم إقناعي ، وتمثيلي .

نقول : إن صحت هذه التفرقة في بعض الأديان ، فإنها لا تنطبق على جميعها . فهذا دين الإسلام مثلاً قد جمع في تعاليمه بين طريقي اليقين والاقتناع ، وبين منهجي التحقيق والتمثيل . والفيلسوف ابن رشد يقرر لنا هذه الحقيقة بطريقة تطبيقية على كثير من المسائل والنصوص ، في كتابه : « فصل المقال ، فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال . » فبعد أن بيّن أن طباع الناس متفاضلة في التصديق ؛ فمنهم من يصدق بالبرهان ، ومنهم من يصدق

== عقد أفلاطون بحثاً في كتاب القوانين ذكر فيه أن الاتحاد نوعان : أحدهما إنكار الألوهية ، والثاني الاعتراف بألهة لا تسمى بشؤون الإنسان ؛ وأخذ يسرد الدلائل العقلية على بطلان هذا الرأي وفساده . (Platon, les Lois, L.X, 900 et suiv.) (٧) (٧) (٧)

بالأقاويل الجدلية تصديق صاحب البرهان ، إذ ليس في طبيعته أكثر من ذلك ؛ ومنهم من يصدق بالأقاويل الخطائية كتصديق صاحب البرهان بالأقاويل البرهانية ، قال ما نصه : « ولما كانت شريعتنا هذه . . . قد دعت الناس من هذه الطرق الثلاث ، عم التصديق بها كل إنسان ، إلا من يجحدھا عناداً بلسانه أو لإغفاله ذلك من نفسه . ولذلك خص عليه السلام بالبعث إلى الأحمر والأسود ، أعني لتضمن شريعته طرق الدعاء إلى الله تعالى . وذلك صريح في قوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن ، »^(١) . وقال في موضع آخر من هذا الكتاب : « فإن الكتاب العزيز إذا تؤمل وجدت فيه الطرق الثلاثة ؛ أعني الطريق الموجودة لجميع الناس ، والطريق المشتركة لتعليم أكثر الناس ، و [الطريق] الخاصة ، »^(٢) .

ليس لنا إذاً أن نقول إن الأديان كلها تقوم على الاقتناع الخطابي والتمثيلي ، لا على التحقيق واليقين .

ثم ليس من الصواب أن نقول ، من الجهة الأخرى ، إن التعليقات الفلسفية تستمد دائماً من نور العقل ، وتستند إلى البراهين القطعية ، إذ لو كانت كلها كذلك ما أمكن أن يحدث بينها هذا الاختلاف والتضارب ، فإن الحق لا يعارض الحق ولا يكذبه ، بل يسنده ويؤيده . فهذا التعارض دليل واضح على أنه ليس كل واحد منها يمثل الحقيقة المطلقة أو يقول فيها الكلمة الأخيرة ؛ بل من الجائز أن يكون كل منهما يمثل جانباً من حقيقة مركبة تتألف من مجموعها ، ومن الجائز أن يكون الحق واحداً منها وسائرهما باطلاً ، أو يكون الحق وراء ذلك كله . ولا بد لمعرفة أي ذلك هو الواقع ، في موضوع ما ، من إعادة النظر فيه بالفحص والمقارنة بين مذهب مذهب ، ودليل دليل . ونحن نعرف بالاستقراء والتجربة أن أكثر هذه النظريات

(١) فصل المقال لابن رشد (ص ٨) .

(٢) فصل المقال (ص ٣٠) .

الفلسفية المتضاربة فروض وتقديرات ، تدور كلها في فلك الإمكان والاحتمال ، وتتفاوت فيما بينها بقدر ما فيها من حسن العرض وتناسق الوضع ، لا اعتماداً على العقل الخالص ومثانة البرهان ، بل على جودة الخيال وبراعة البيان . فهي لا تعدو أن تكون ضرباً من الشعر المنتور ، يناجي العاطفة ويستهوئ القلوب ، من غير أن يكون في حجتها ما يشفي طالب اليقين ، ولا في حكمها ما يحسم مادة النزاع بما فيه فصل الخطاب .

نتقل إذاً إلى فرق آخر : ^(١) يرى ابن سينا أن الدين والفلسفة ، مع اشتراكهما في تعريف « الحق » و « الخير » ، يختلفان في مبلغ عنايتهما بهذين الأصلين . ويقول إن الشريعة الإلهية يستفاد منها مبادئ الحكمة العملية وحدودها على الكمال ؛ أما الحكمة النظرية فإن الشريعة تعنى بمبادئها فقط على سبيل التنبيه ، تاركة للقوة العقلية أن تحصلها بالكمال على وجه الحجة ^(٢) .

نقول : هذا الفرق ، على عكس الفرق الذي حكاه الفارابي ، ينطبق بوضوح على الشريعة الإسلامية ؛ فانها نبهت على مبادئ الحكمة النظرية تنبيهاً رقيقاً ، وبيّنت الحكمة العملية بكاملها . ولكن هل ينطبق ذلك على سائر الشرائع الإلهية ، فضلاً عن الديانات الأخرى ؟ كل ما يمكن أن يقال هو أن عناية الأديان في جملتها بالناحية العملية أشد منها بالناحية النظرية ؛ ولكننا نعرف من مدارس الفلسفة أيضاً ما يغلب عليها — أو يكاد يستأثر بها — هذا العنصر العملي ^(٣) . فلا يصلح ذلك فارقاً كافياً لتمييز ماهية الدعوة الدينية عن التعاليم الفلسفية بصفة مطردة .

أما علماء الغرب اليوم فيرون الفرق بين الدين والفلسفة من الوجوه الآتية :

١ — مشا كل الفلسفة يناط حلها بالأفذاذ من ذوى العقول الراجحة ؛

(١) رسالة الطبيعيات لابن سينا (ص ٢ - ٣) .

(٢) كما يظهر جلياً في حكمة سقراط .

- بينما مسائل الدين — في زعمهم — تحلها الشعوب والجمهير . قالوا : ولذلك كانت نشأة الأديان ، وحياة واضعيها ، والظروف التي ألفت فيها كتبها ، غامضة مدفونة في ظلمات التاريخ ، ولا كذلك الآثار الفلسفية .
- ٢ — الدين يرثه الشعب عن أسلافه ؛ والفلسفة يستمدها الفيلسوف من عقله ومن ملاحظاته الشخصية ، ولو خالفت العقائد الموروثة .
- ٣ — الفلسفة متجددة ؛ والديانة تميل إلى الثبات وعدم التطور ؛ لأن الجماعات لا تقبل أن تغير عقيدتها كل يوم ، أو أن تعيد النظر فيها من جديد ؛ ولا سيما إذا كان كتاب العقيدة مفروضاً فيه أنه كلام الرب المعبود .
- ٤ — الديانة لها في المجتمع مكان الصدارة ؛ لأن لها الأسبقية وتقدم العهد ، الذي مكن لها من الرسوخ في القلوب ؛ ولأنها عقيدة الجمهور ، وفي متناول عقليته .
- ٥ — الدين لا يستغنى عن مظهر اجتماعي ، في حفلات يومية ، أو سنوية ، أو موسمية ، يوثق بها الأفراد أو اصهرم الطائفة ؛ كما أن الفكرة الدينية بحاجة إلى التجسد في صور معينة ، ورسوم محددة ، يجدد بها المتدين عهده بعقيدته . التي هي دائماً عرضة للنسيان ، من جراء المشاغل الحيوية المادية . بينما الفلسفة لا حاجة بها إلى هذه المحافل ؛ لأن عقيدة الفيلسوف حاضرة في نفسه في غالب الأمر . كما أنها لا يصح أن تتمثل في رسوم عبادة معينة ، لأنه لا شيء من تلك الصور المحددة يفرضه العقل فرضاً ، بحيث يكون الخروج عنه شذوذاً في التفكير . ولو التزم الفيلسوف شيئاً من هذه الأوضاع الخاصة ، وجعله شعاراً لفلسفته ، لخرج إلى ضرب من الهزل والمجون ، حرى أن يسخر منه .
- ٦ — الديانة تعيش بسلطان ونفوذ كنفوذ الدولة . والفلسفة لا تعيش إلا في جو الحرية .

الناظر في هذه الفروق يرى أنها في جملتها لا تصور الديانة والفلسفة

في كل الأدوار التي مرت بهما ، بل تصفهما في حالتها الحاضرة ، وفي أوروبا المسيحية على وجه أخص . فهي تصور لنا الأديان الموروثة عن السلف في حالة استقرارها وثباتها ، بعد أن أصبحت عقيدة للجمهور ، وصارت جزءاً من تاريخه ، يحف بها جلال الماضي ، ويحوطها سلطان الكنيسة ؛ وقد بعد عهدها بتاريخ نشأتها الغامض . ثم تصور لنا الفلسفة بازغة في عقل الفيلسوف ، مطبوعة بطابع عقله ونزعاته وأحاسيسه ، طليقة من كل قيد ، تستطيع أن تلبس كل يوم ثوباً جديداً .

ولا ريب أننا حين نعقد المقارنة هكذا في ملابسات متباينة ، نحصل على صورتين متفاوئتين : فالديانات تبدو لنا في مظهرها الاجتماعي المستقر ، والفلسفة في طابعها الفردي الحر المتجدد . وهكذا يصدق القول بأن « الديانة هي فلسفة الشعوب والجمهير ، وأن « الفلسفة هي ديانة الأفاض الممتازين » .

أما إذا عدنا بالديانات إلى عصور نشأتها ، أو عصور تجديدها وإصلاحها ، فإنها تبدو لنا هي أيضاً وهي تحمل أعلاماً شخصية : موسى ، أو بوذا ، أو عيسى ، أو ماني ، أو محمد ، أو لوثر ، أو عبد الوهاب ، أو غيرهم . حتى الديانات الوثنية لم تعدم زعماء وضعوا أساسها ، أو وسعوا بنائها ، إما بالتفنن والاختراع ، وإما بجلب « تماثيل الآلهة » من رحلاتهم في مختلف الأقطار ، كما يحدثنا التاريخ عن بعضهم .

وليس جهل الشعب بحياة مؤسس ديانته دليلاً على أن هذه الديانة في نشأتها كانت من وضع الشعب في الجيل نفسه أو في جيل سابق . وكل ما في الأمر أنها ميراث جهلوا مورثه . نعم إن هذه التركة قد يكون أصحابها على مر العصور شيء قليل أو كثير من التحول والتطور ، حتى أصبحت في وضعها الأخير أثراً مشتركاً ، وثوباً مرقعاً ، يتسب إلى أكثر من فرد واحد ، وتقبله الشعب هكذا على علاقته . ولكننا متى ارتقينا بهذا الميراث الشعبي من عصر إلى عصر ، حتى نصل إلى عهد نشأته ، لا بد أن نصل إلى مبدأ لا يكون هو الشعب في جملة ولا جماعة من الشعب . وإلا فليجيئونا

بمثال تاريخي واحد ، اجتمع فيه شعب من الشعوب أو طائفة من رؤسائه ، فتواضعوا فيما بينهم على ابتكار منظمة دينية جديدة ، يخلقون عقائدها وعباداتها جملة وتفصيلا ، من غير أن يكون بين أيديهم أثر يثرونه عن سلفهم ، ولا كتاب يدرسونه ويجهدون في فهمه وتأويله ، منسوب إلى فلان أو فلان .

على أن غموض تاريخ مؤسسي الديانات ، وعدم تحديد العصور والملاسات التي ظهرت فيها كتبهم ، ليس قاعدة عامة . فهذا تاريخ الإسلام ونيبه وكتابه غض طرى ، كأنه ولد أمس . وعلماء أوروبا يعترفون بذلك ويعلمونه في إنصاف وصرامة ، غير أنهم يعدونه استثناء من قاعدة الأديان . لكن الحقيقة أن القدر الذي يصح عده استثناء في الإسلام من هذه الناحية هو درجة الوضوح التاريخي ، ومثانة الأسانيد المتصلة لكتابه في جملة وتفصيله . أما الوجود التاريخي لزعماء الأديان وبجمل دعوتهم ، فهذا قدر مشترك بينه وبين كثير من الملل . حتى لو سلمنا أنه استثناء ، فقد أصبح الفارق الذي يزعومه بين نشأة الدين ونشأة الفلسفة غير صحيح على عمومه . وكما أن الديانات بعد تأسيسها تميل إلى الثبات والاستقرار بين الشعوب حتى يقوم فيها مجددون أو مصلحون ، فكذلك تعاليم الفلسفة ومقررات العلوم ، حتى الرياضيات والطبيعية نفسها ، مالت إلى الركود في كثير من القرون . والتجديد في كلا الميدانين يلاقى مناهضة شديدة . وكما من الاختراعات والاكتشافات الحديثة عدت جنونا من مدعيها حتى في الأوساط السياسية والعلمية .

أما حديث المظاهر الاجتماعية في شعائر العبادة ، فإنه ينطبق حقيقة على الأديان العامة التي استكملت عناصرها وفروعها ؛ ولكنه لا ينطبق على الأديان الفردية ، التي لا تعدو أن تكون وجدانا غامضا أو عقيدة مبهمه تتجمع في الصدر ، ولا يحسن صاحبها التعبير عنها بشعار خاص . وقد رأينا مثلا من ذلك في أديان الخنفاء ؛ ولا نزال نرى أمثالهم في كل أمة من ذوى

الفطر السليمة ، الذين لم تصل إليهم تعاليم الأديان الصحيحة ، ولم يعجبهم ما في بيتهم من العقائد الزائفة ، والعوائد المنحرفة ؛ ولكنهم في الوقت نفسه لم يصلوا إلى تحديد وضع معين يتخذونه شعاراً لعقيدتهم . فهو لاء غرباء في قومهم ، لا يجد الواحد منهم في نفسه حافزاً له على الاجتماع بغيره ؛ — لأن كل واحد منهم أمة وحده — فضلاً عن أن يتفقوا بعد ذلك على نشيد واحد ، وحركات واحدة ، يجعلونها شعاراً ظاهراً لعقيدتهم . بل نقول إن حديث الشعائر والمظاهر لا ينطبق على كل الأديان الشعبية ؛ فهذه البوذية الأولى يقولون إنها لم تكن تعرف إلا العزلة التامة والتفكير العميق ، بعيداً عن كل الرسوم والأوضاع العملية . وعلى نقيض ذلك رأينا بعض الفلاسفة (مثل أوجست كونت) ، يجهزون مذاهبهم الفلسفية بكافة النظم والشعائر المعروفة في الديانة المعاصرة لهم . وهكذا نرى التفرقة المذكورة لا تستقيم طرداً ولا عكساً .

بقيت التفرقة بين الدين والفلسفة بأن الفلسفة لا تعيش إلا في جو الحرية ، وأن الدين لا يقوم إلا على السلطان والنفوذ . فهذا قول سيدي في الجملة لا على الإطلاق ؛ وهو ، إذا استفصل عن معناه ، يفتح أمامنا الباب لتقرير الفروق الصحيحة بين هاتين الحقيقتين :

ذلك أنه إن كان المقصود قيام الدين دائماً على سلطان الدولة ونفوذها ، فهي دعوى باطلة ؛ إذ أننا نعرف ديانات كثيرة عاشت ونمت في ظل الرفق والتسامح ، بعيداً عن كل حكم وسيطرة . والبوذية أوضح مثال على ذلك ؛ بل المسيحية والإسلام ، في أول عهدهما على الأقل ، قاما على احترام حرية الضمير ، وعدم الإكراه في الدين . كما أننا نعرف عهوداً تطاولت فيها الفلسفة إلى مقام الحكم ، وتسلمت لمطاردة أعدائها وإخضاعهم .

وإن كان المقصود اعتماد الدين على السلطان الأدبي للمجتمع ، بمعنى أن الحياة الاجتماعية من شأنها أن تطبع الأفراد بطابع واحد ، وأن تجعل منهم وحدة متجانسة التفكير ، متشاكاة العوائد والعقائد ، بحيث يعد الشاذ عنها

مذموماً منبوذاً ، فهذا إن صح ، إلى حد ما ، في الجماعات « البدائية » ، المحصورة في نطاق ضيق ، لا يسرى حكمه على سائر المجتمعات . فنحن نرى الأمم والشعوب في كل عصر تضم تحت أجنحتها العقائد المختلفة ، والنظم المتفاوتة ، ولا يحول ذلك دون تعاون الجميع في مرافق الحياة العامة ، وتساندهم في الواجب الوطني المشترك .

أما إذا كان المقصود سلطان العقيدة على نفوس معتنقيها أنفسهم ، فلا ريب أن هذه ميزة تستأثر بها الديانات ؛ وليس للفلسفة أن تطمح إلى نيلها ، وإلا لجاوزت طورها ، وتناقضت في نفسها ؛ لأن حقيقة الفلسفة هي « محبة الحكمة » ، أو « الرغبة في المعرفة » ؛ ووظيفتها البحث عن الحقيقة بقدر الطاقة البشرية ، وعرض ما تظفر به من جوانب تلك الحقيقة ؛ والفيلسوف هو أول من يعرف قصور العقل البشري ، وقصور كل ما هو إنساني ، عن درجة الكمال . ولذلك كان النساح والتواضع العلمي من أظهر خصائصه . وهذا سقراط يضرب لنا أروع الأمثال في ذلك ، حين يقول : « الشيء الذي لا أزال أعلمه جيداً ، هو أنني لست أعلم شيئاً » . أما الفكرة الدينية فإنها ، في مختلف مظاهرها ودرجاتها ، تفترض أن ما تقرره في شأن من الشؤون مستمد من سر الوجود ، وأنه يمثل حقيقة الأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر . فهي بطبيعتها ملزمة ، تتقاضى من صاحبها الخضوع والنسليم ، ولا تقبل منه في حكمها جدالاً ولا مناقضة ، بل لا تتيح له في نفسها بحثاً ولا ترديداً . فإن فعل ذلك في مسألة ما ، كان في هذه المسألة بعينها متفلسفاً غير متدين ، حتى يستقر فيها على رأي معين ويدين به ، فهناك لا يقبل فيه مساومة ولا يستطيع منه تحللاً ؛ إذ يصبح عقيدة يخلص لها إخلاصاً خارقاً للعادة ، حتى لا يبالي أن يضحى في سبيلها بحياته . ولا نكاد نجد هذا السلطان على النفس لفكرة أخرى : عليية ، أو سياسية ، أو غيرها .

فإذا أردنا البحث عن السر في هذه الظاهرة العجيبة ، فإننا نجد لو أنعمنا

النظر في الفرق بين حقيقة المعرفة وحقيقة الإيمان ، وفي الفرق بين القوة النفسية التي تقوم بوظيفة المعرفة ، والقوة النفسية التي تقوم بوظيفة الإيمان . فالواحد من الناس قد يدرك معنى الجوع والعطش ، وهو غير محس بألامهما ؛ وقد يفهم معنى الحب والشوق ، وليس من أهلها ؛ وقد يرى الأثر الفنى البارع فيفهم أسراره ، ويقف على دقائق صنعه ، ولكنه لا يتذوقه ، ولا يتملك قلبه الإعجاب به ؛ وقد يعرف لفلان فضل عقل أو حزم ، أو أدب أو سياسة ، أو أولئك جميعاً ، ولا يشعر نحوه بعاطفة ولاء ، ولا رابطة مودة ؛ بل يكاد يغصّ فؤاده بهذه الفضائل حقداً وحسداً ، ويكاد ينكر قلبه ما تراه عيناه . هذه كلها ضروب من العلم والمعرفة يهديها إلينا الحس ، أو الفكر ، أو البديهة ، أو الحدس ؛ فتلاحظها النفس وكأنها غريبة عنها ؛ أو تمر بها عابرة فتمسها مساً جانبياً لا يبلغ إلى قراراتها ؛ أو تحتزنها وتدخرها ، ولكنها لا تهضمها ولا تمثلها . كل حالة نفسية تقف بالأفكار والمبادئ عند هذه المراحل ليست من الإيمان في قليل ولا كثير . الإيمان معرفة تتجاوب أصدائها في أعماق الضمير ، وتختلط مادتها بشغاف القلوب فلا يجد الصدر منها شيئاً من الضيق والخرج ، بل تحس النفس فيها ببرد وتلج . الإيمان تذوق ووجدان يحمل الفكرة من سماء العقل إلى قرارة القلب ، فيجعلها للنفس رياً وغذاء يدخل في كيانها ، ويصبح عنصراً من عناصر حياتها . فإذا كان موضوع الإيمان الحقيقة الكبرى ، والمثل الأعلى ، فهناك تتحول الفكرة قوة دافعة ، فعالة ، خلاقية ، ولا يقف في سبيلها شيء في الكون إلا استهانته به أو تبلغ هدفها .

ذلك هو فصل ما بين الفلسفة والدين . غاية الفلسفة المعرفة ؛ وغاية الدين الإيمان . مطلب الفلسفة فكرة جافة ، ترسم في صورة جامدة ؛ ومطلب الدين روح وثابة ، وقوة محرّكة .

لا نقول كما يقول كثير من الناس إن الفلسفة تخاطب العقول ؛ وإن الدين يخاطب القلوب ويستهوئ المشاعر ، غير مبال بمبادئ المنطق وقواعد

العلم . أو كما قال القديس أوغسطين St. Augustin : «أؤمن بهذا لأنه محال ،
 "Credo quia absurdum" ؛ فذلك وصف لا ينطبق على كل الأديان .
 ولكننا نقول إن الدين في كل أوضاعه لا يقنع بعمل العقل قليلا أو كثيرا
 حتى يضم إليه ركون القلب .
 الفلسفة تعمل إذاً في جانب من جوانب النفس ، والدين يستحوذ عليها
 في جملتها . الفلسفة ملاحظة ، وتحليل ، وتركيب . فهي صناعة تقطع أوصال
 الحقيقة وتزهق روحها ، ثم تؤلف بينها لتعرضها من جديد في نسق صناعي
 على مرآة الفطنة ، فتطبع على سطح النفس قشرة يابسة . أما الدين فهو
 حياء ونشيد يحمل الحقيقة جملة ، فيعبر بها هذه القشرة السطحية ، لينفذ
 منها إلى أعماق القلوب وأغوارها ، فتعطيها النفس كآيتها ، وتملكها زمامها .
 ومن هنا يستنبط فرق دقيق بين الفلسفة والدين :
 ذلك أن غاية الفلسفة نظرية ، حتى في قسمها العملي . وغاية الدين عملية ،
 حتى في جانبه العلي . فأقصى مطالب الفلاسفة أن تعرفنا الحق والخير ما هما ؟
 وأين هما ؟ ولا يعنيها بعد ذلك موقفنا من الحق الذي تعرفه ، والخير الذي
 تحدده . أما الدين فيعرفنا الحق لا لنعرفه حسب ، بل لنؤمن به ونحبه
 ونمجده ؛ ويعرفنا الواجب لنؤديه ونوفيه ، ونكمل نفوسنا بتحقيقه .
 وأول الآثار العملية للفكرة الدينية هو لفتها شعور المتدين إلى صلة
 بينه وبين الحقيقة العليا التي يدين لها ؛ وهي صلة تقوم في جوهرها على معنى
 الإلزام والالتزام الأدبي بينهما . على حين أن الفلسفة من حيث هي فلسفة
 (أعنى من حيث هي صناعة عقلية ، مستقلة عن التصوف والمعاني الوجدانية)
 تستطيع أن تعيش من غير اعتراف بهذه الصلة . ذلك أن غاية الفيلسوف
 من ربطه المسببات بأسبابها هو فهمه الأشياء على وجه منطقي معقول ، بحيث
 يأخذ كل حد منها موضعه اللائق به . فالقوة العليا التي يضعها الفيلسوف
 على رأس الحوادث الكونية يكنى فيها أن يكون شأنها في الكون شأن
 الصانع في تدبير صنعته ، أو الربان في قيادة سفينته . وهي كما ترى صلة

آلية خارجية ، لا يتبادل فيها الخطاب ، ولا تتناجى فيها الأرواح ؛ ولا يتجه فيها العبد إلى الرب بالمحبة والتبجيل ، والخشية والتأميل ، وما إلى ذلك من المعاني التي لا يتحقق مفهوم الدين من دونها ؛ إذ الدين ليس إيماناً ومعرفة فحسب ؛ بل هو فوق ذلك التفات روحي متبادل ، هو رباط من الطاعة والولاء ، ومن الحذب والرعاية ، بين المتدين وبين الحقيقة العلوية التي يؤمن بها . ومن هنا تعرف السر في اتفاق مؤرخي الأديان على أن المذهب الذي اشتهر في القرن الثامن عشر باسم « الديانة الطبيعية » ، والذي يتلخص في الاعتراف بثلاثة أركان : « وجود إله خالق ، وخطود الروح ، وسلطان الواجب الأخلاقي » ، ليس في الحقيقة ديناً ، ولم يكن يوماً ما ديناً من الأديان ؛ بل هو نوع من الفلسفة الجافة ، ينقصه قيام هذه الصلة الروحية بين الخلق والخالق ، ليستحق اسم الدين .

والمظهر الثاني من المظاهر العملية للفكرة الدينية هو ميلها إلى التدفق في الميدان الاجتماعي ؛ ذلك أن طبيعة العقيدة كريمة فياضة ، تنزع دائماً إلى الانتشار وطلب المشاركة ، وتهز صاحبها إلى تحقيق أهدافها بالنشر والدعوة . بينما الفكرة العلمية أو الفلسفية تميل — ككل ثروة إنسانية — إلى الاحتجاز والاحتكار والاستتار ، أو على الأقل لا تسعى بطبيعتها لهذا التوسع ، ولا يعنيها أن تصبح في متناول الجمهور . ولعلنا لا نسيء التعبير إذا قلنا إن الاختلاف بين هاتين الطبيعتين كالاختلاف بين الديمقراطية والأرستوقراطية ؛ فإذا رأينا فيلسوفاً يدعو إلى مذهبه ، ويحمل الناس على اعتناق رأيه ، علنا أن فكرته قد أصبحت إيماناً ، وأنه قد خلع ثوب الفيلسوف ليحمل أعباء الأنبياء والمرسلين . وإذا رأينا متديناً ينطوي على نفسه ، ولا يبالي بما يجري حوله من ضلال في الرأي ، أو فساد في العمل ، كان لنا أن نحكم بأن نار إيمانه قد استحوالت رماداً ، أو أنها قد كمنت تحت أكداس من الرماد .

هذه كلها وجوه من النظر يستبين بها حدود ما بين الفلسفة وبين

الأديان بوجه عام .
 فإذا انتقلنا إلى المقارنة بين الفلسفة وبين الأديان السماوية بخصوصها ، فإننا نظفر فوق ذلك كله بعنصر جديد ، به يتم الفصل بين هاتين الحقيقتين :
 ذلك أن الفلسفة في كل صورها ، عمل إنساني ، يتحكم فيه كل ما في طبيعة الإنسان من قيود وحدود ، وتدرج بطيء في الوصول إلى المجهول ، وقابلية للتغير والتحول ، وتقلب بين الهدى والضلال ، واقتراب أو ابتعاد عن درجة الكمال .

أما الأديان السماوية فإنها ، صنعة إلهية ، لها كل ما للإلهيات من ثبات الحق الذي لا تبديل لكلماته ، وصرامة الصدق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ ثم هي فوق ذلك ، منحة كريمة ، تصل إلى حاملها وسفرائها عفواً بلا كدح ولا نصب ، وتغمرهم بنورها في فترات خاطفة ، كلمح البصر أو هو أقرب .

فإذا انفردت الفلسفة في حكم لم يؤمن عليها العثار ؛ وإذا التقي العقل والوحي على أمر فقد اتصلت مشاعل الليل بضوء النهار . نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء .

الدين وسائر العلوم

عرفنا الآن درجة النسب بين الدين والفلسفة والأخلاق ، وأنها أسرة واحدة ترتبط أعضاؤها بلحمة الأخوة ، أو لحمة الأبوة والبنوة . وإذا كان المجهود الإنساني يشرف بشرف موضوعه وغايته ، فأى هدف يمكن أن يتعلق به مطمح الباحث ، فوق ، الحق ، الأبدى الذي تزول الدنيا ولا يزول ، و« الخير » المطلق الذي توزن به الأشياء ولا يوزن هو بشيء ؟

تلك هي القيم الكبرى ، والمثل العليا ، التي لا يتصور في العقل شيء يعلوها أو يدانيها . لذلك كان البحث عنها أشرف المطالب وأعلاها ، وكان سائر وجوه النشاط العقلي والروحي والبدني سعياً وراء قيم نسبية ، تتفاوت

مراتبها تبعاً لقربها أو بعدها من ذلك الهدف الأسمى . فكما أن الذي يفنى عمره في فحص علف الدواب وانتخاب أجود أنواعه يؤدي خدمة لها قيمتها في كيان المجتمع الإنساني ورفاهيته ، من طريق غير مباشر ؛ إذ يحفظ بذلك قوام الحيوان ، الذي به قوام بدن الإنسان ، الذي به قوام روحه ، الذي به قوام دينه ، الذي به كمال سعادته ؛ كذلك تتفاضل موضوعات العلوم فيما بينها على نمط هذه النسبة . فأدناها ما يكون خادماً غير مخدوم ، ويلبها ما يكون خادماً مخدوماً معاً على مراتب ... حتى تنتهي إلى موضوع العلم الأعلى ، الذي يكون مخدوماً غير خادم .

ولو أننا أخذنا في تصنيف موضوعات العلوم ، لا باعتبار شرف غايتها المباشرة ، بل بحسب مقوماتها النوعية ، وتكامل عناصرها بالازدياد التدريجي ، لحصلنا بينها على هذا الترتيب التصاعدي نفسه ؛ إذ نرى كل واحد منها يحتوي ما قبله ويزيد عليه عنصراً جديداً : فالحياة النباتية تستلزم وجود الجسم بأجزائه ، وجزئياته ، وعناصره ، وذراته ، وطاقاته ؛ وتزيد عليه وظائف أخرى . والحياة الحيوانية تحتوي الحياة النباتية بجميع وظائفها ؛ وتزيد عليها . والحياة الإنسانية فيها كل الحياة الحيوانية وتزيد وظائف أعلى . وهذه الوظائف نفسها طبقات بعضها فوق بعض ؛ وأعلىها الوظيفة الروحية التي تتطلع إلى الحقيقة الكبرى .

هذا البيان يرينا على أي وجه يمكن أن نفهم الصلة بين العلم الإلهي وسائر العلوم : (طبيعية ، أو رياضية ، أو فلكية ، أو نفسية ، أو اقتصادية ، أو منطقية ، أو اجتماعية ، أو تاريخية ، أو لغوية ، أو غيرها) وأنها ليست صلة واحدة في الموضوع ، ولا اشتراك في الأهداف ؛ إذ مهما تعالج هذه العلوم من مشاكل ، فليس واحد منها يتصدى لعلاج المشكلة الكبرى التي انتبهض الدين لحلها . إنها كلها تبحث عن الكائنات ؛ وليس شيء منها يبحث عن مبدئها الأول وغايتها القصوى . غير أنها كلها تستطيع أن تزجي لهذا المطلب خدمة ما ، من قريب أو بعيد ، ولن يستغنى الدين عن العلوم إلا

لو استغنت المقاصد عن وسائلها ومقدماتها ، أو الدعاوى عن حججها
 وبيناتها ؛ فكما أن المجهول لا يتوصل إليه إلا عن طريق المعلوم ، والغائب
 لا يدرك إلا على ضرب من القياس على الشاهد ؛ كذلك الحقائق العليا
 لا يسهل الصعود إليها إلا على سلم من حقائق الدنيا .
 فإن بعدت صلة بعض العلوم بالدين ، وعجزت عن أن تقدم له مدداً
 إنجائياً ملموساً ، فإنها بما تبدد من ظلمات الأوهام ، وبما تبعث من النور في
 جوانب النفس ، تقوم بوظيفة تطهير وتنقية ، لا بد منها لتهيئة جو عقلي
 صالح لاعتناق العقائد السليمة ، حتى إذا ركن القلب إلى شيء كان ركونه إليه
 على بصيرة ويثبته ، لا مدفوعاً بحمية الجهل ، ولا منقاداً بسذاجة المحاكاة .
 هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ ،
 ومهما يكن من أمر ، فالمنقول أنه ، إن لم يكن بين العلم والدين تعاون
 من قريب ولا بعيد ، كان بينهما على الأقل من التفاهم وحسن التجاور ما بين
 فروع الصناعات المختلفة ؛ إذ ليس يعقل أن يكون هناك تعارض وتناقض
 بين أمرين لا اشتراك بينهما في موضوع واحد .
 وهنا يحق لنا السؤال عن تفسير تلك المصادمات العنيفة ، التي ظهرت في
 التاريخ غير مرة ، بين العلوم والأديان ؛ لا نعني ذلك الصراع الصوري
 الذي يستغل فيه اسم العلم أو الدين أحياناً ، ليكون ستاراً للمقاصد الخفية ،
 والمطامح المختلفة ، من الثروة ، والنفوذ ، والجاه ، وسائر المصالح العاجلة ؛ كما
 لا نعني الصراع الحقيقي الدائم بين النزعات الروحية السامية ، التي تدفع إلى
 التضحية وضبط النفس والاعتدال ، وبين النزعات المادية المضادة ، التي
 تهدف إلى الفوضى والإباحة والاستثثار . وإنما نطلب تفسير تلك المعارضة
 الفكرية التي تقع بحسن نية بين المعسكرين العلمي والديني ، فتقف كل واحد
 منهما موقف التكذيب والإنكار لما عند الآخر .
 والجواب أن هذه المعارضة تحدث فيما نعلم على إحدى صورتين :
 (الصورة الأولى) أن يقف أحد الطرفين موقف المعارضة لما عند

الأخر جملة ، لا بناء على حجة تدحضه ، أو شبهة تضعفه ؛ بل عفواً واعتباطاً ، أو لمجرد جهله به ، ظاناً أنه أن كل ما لم يدخل في دائرة علمه في الحال فليست له حقيقة . وهذا لعمرى من قصر النظر ، بل من الجهل والغرور ؛ فإن التكذيب بما لم يحط الإنسان بعلمه ولم يأت به تأويله خطأ لا يرتكبه الراسخون في العلم والدين ، وإنما يقع فيه المغرورون من العامة أو أُنصاف المتعلمين ، . وهؤلاء أشد خطراً من الجهلاء ؛ لأن عليهم في الحقيقة جهل مركب . وإنما الإنصاف أن يكون كل امرئ عارفاً بقدر نفسه ، واقفاً عند حده ، بناءً غير هدام . والسبيل القاصد في ذلك أن يثبت كل فريق ما وصل إليه ، ولا ينكر ما لم يصل إليه . وقد رأينا العلماء المتخصصين في فرع من العلوم الطبيعية أو العقلية يعتمدون النتائج التي وصل إليها المتخصصون في فرع آخر منها ؛ كل في نطاق تخصصه ، ولا ينتظرون أن يعيدوا كلهم ما جربه أو برهنه بعضهم . وهذا هو الوضع السليم الذي تتقدم به المعارف الإنسانية ، إذ لو وجب أن يعيد كل عالم بحث كل مسألة بنفسه ، لما تقدمت العلوم خطوة واحدة .

فكذلك ينبغي أن يكون الشأن بين حملة العلوم وحملة الأديان .

ألم يجمع العلماء الآن على إمكان تحطيم النوواة الذرية ، واستخدام طاقتها الجبارة في صنع الأعاجيب ، مع أنه لم يباشر هذه التجربة منهم إلا نفر قليل ؟ فإذا بمنعنا أن تؤمن بالتجارب الروحية المتكررة التي شهدتها الأنبياء وأرباب البصائر النبيرة في مختلف العصور . وإن لم يشهد الناس منها إلا نتائجها الحارقة ؟

إنه إذا كان من واجب الأديان أن تهادن العلوم ولا تناهبها ، وكان من الخير لها أن تستثمر كافة المعارف البشرية وتسلمح بنتائجها ، فإن من الخير للعلوم كذلك أن تدع الأديان تكمل ما فيها من نقص ، وتملا ما تركه في النفوس من فراغ ، بما يملؤه من الحقائق الروحية . فإن لم تفعل فلا أقل من أن تلزم شقة حياض ، فلا تعادى الأديان ولا تنكرها جملة ؛ فإن إنكار

الدين جملة إنكار ضمنى لأموور واقعية تحتويها الأديان كلها ولا يحتويها علم من العلوم ، ألا وهي عناصر الإيمان بالحقيقة العليا وتقديسها وعبادتها . معان هي من مادة الحياة التي قد يفسرها العلم ، ولكنه لا يخلقها ؛ وقد ينقب عن أطوارها ويتفهم نشأتها ، ولكنه لا يستطيع أن يتجاهل وجودها ، أو يدعى لنفسه أنه يحل محلها ، (١) .

(الصورة الثانية) أن تكون هناك مسألة أو مسائل معينة تنطق فيها العلوم والأديان بحكمين متناقضين . وإنما يحدث ذلك حينما تتناول الأديان إلى جانب عنصرها الروحي شيئاً من موضوعات العلوم وحقائق المشاهدات ، وتذهب في ذلك مذهباً معيناً ، تفرضه على المتدينين بها فرضاً . فهذا الجانب ، وإن كان عرضياً في الأديان ، وكان سبيله في الغالب سبيل الوسائل لا المقاصد ، إلا أنه يعد معياراً لمقدار ما في كل دين من صحة أو فساد ، على قدر اتفاهه مع مقررات العلم الصحيح وقضايا العقل السليم ، أو اختلافه معها ؛ فإنه إذا كان الدين حقاً والعلم حقاً وجب أن يتصادقا ويتناسرا . أما إذا تكاذبا وتخاذلا فإن أحدهما لا محالة يكون باطلاً وضلالاً .

ومن أهم المقاصد التي يهدف إليها العلم هو الكشف عن الحقائق العلمية والاعتماد على التجربة والبرهان في إثباتها . أما الدين فيرى في الحقائق العلمية ما يراه في الحقائق الدينية من حيث أنها لا يمكن إثباتها بالتجربة والبرهان . فالدين يرى في الحقائق العلمية ما يراه في الحقائق الدينية من حيث أنها لا يمكن إثباتها بالتجربة والبرهان . فالدين يرى في الحقائق العلمية ما يراه في الحقائق الدينية من حيث أنها لا يمكن إثباتها بالتجربة والبرهان .

(١) Durkheim, Formes Élémentaires... p. 614.

البحث الثالث

زعة التدبير ، ومدى أصالتها في الفطرة

نصيا - سعليا - سعا في حرس الأورد - مورعا في القسم

البحث الثالث

في

زعة التدبير ، ومدى أصالتها في الفطرة

إلى أي حد تعد ظاهرة التدبير ظاهرة عريقة في القدم ؟ هل سبقت الحضارات المادية ؟ أم تأخرت عنها في الوجود ؟ أم انقرضت بها ؟
ذهب بعض كتاب القرن الثامن عشر ، الذين مهدوا لثورة الفرنسية ، إلى أن الديانات والقوانين ما هي إلا منظمات مستحدثة ، وأعراض طارئة على البشرية ، حتى قال (فولتير) : إن الإنسانية لابد أن تكون قد طاشت قروما متطلوة في حياة مادية خالصة ، قوامها الحرب ، والنحت ، والبناء ، والحداثة ، والتجارة ... حين أن تفكر في مسائل الدينيات والروحانيات (1)
بل قال : إن فكرة التايه إنما استخرجها دعاء لما كرون ، من الكهنة والقساوسة الذين لقوا من صدقهم من الجن والسحفاء (2)

(1) Voltaire, Essai sur les moeurs, p. 14.

(2) Id. 140, p. 141.

الدين بطل إنكاره في الأمور واقعية تنسبها الأديان كلها ولا يجوزها من
من العلوم . الأديان عناصر الإيمان بالحقيقة العليا وتقديسها وحداثتها
وإيمانهم من مائة الحياة التي قد صيرها لهم ، ولكنه لا يخلقها ، وقد
يقب عن أطوارها وتسميتها ، ولكنه لا يستطيع أن يتعامل
وجودها ، أو يدعي نفسه أنه جعلها .

(الصورة الثانية) أن تكون هناك مسألة أو مسائل معينة تتعلق بها
العلوم والأديان يمكن مناقشتها . وإنما يحدث ذلك حينما نتناول الأديان
إلى جانب عناصرها الروحية شيئاً من موضوعات العلم ، وسنناقش الإشاعات ،
وتلعب في تلك مذهباً **عاشقاً على مذهبها** ،
وإن كان عموماً في الأديان ، وقد سببه في كتاب سبيل الرومان
لا المقامد ، إلا أنه يعد مبرراً للفتنة في كل دين من جهة أو ضد ، على
قدر إيمانه مع بقرات العلم الصحيح ونصايا العقل السليم ، أو اختلاجه
مها ، فإنه إذا كثر الخيال في قلبه لم يزل يدعو ، وأن يفتن بالفتن . أما
إذا تكادبا وتجادلا فإن أحدهما لا علة يكون باطلاً ومثلاً .

البحث الثالث

في

نزعة التدين ، ومدى أصالتها في الفطرة

ماضيها - مستقبلها - متبعا في نفوس الأفراد - دورها في المجتمع

أسئلة تشوف النفس إلى معرفة الجواب عنها :

- متى ظهرت فكرة التدين على وجه الأرض ؟

- ما مصيرها أمام التطورات الفكرية في العلوم ؟

- ما وظيفتها النفسية ؟

- ما مهمتها الاجتماعية ؟

مدرى أقدمية الديانات :

إلى أي حد تعد ظاهرة التدين ظاهرة عريقة في القدم ؟ هل سبقت الحضارات المادية ؟ أم تأخرت عنها في الوجود ؟ أم اقترنت بها ؟

ذهب بعض كتاب القرن الثامن عشر ، الذين مهدوا للثورة الفرنسية ، إلى أن الديانات والقوانين ما هي إلا منظمات مستحدثة ، وأعراض طارئة على البشرية . حتى قال (فولتير) : إن الإنسانية لا بد أن تكون قد عاشت قروناً متطاولة في حياة مادية خالصة ، قوامها الحرث ، والنحت ، والبناء ، والحداة ، والنجارة . . . قبل أن تفكر في مسائل الدينيات والروحانيات (١) بل قال : إن فكرة التأليه إنما اخترعها دهاة ماكرون ، من الكهنة والقساوسة الذين لقوا من يصدقهم من الخلق والسخفاء (٢) .

(١) Voltatre, Essai sur les mœurs, p. 14.
(٢) Id. Ibid. p. 133.

وكذلك كان نظر (جان چاك روسوه) إلى فكرة القانون ، حيث ظن أنها ليس لها إلا قيمة وضعية تحكيمية . وفسّر ذلك بقوله : إن الأفراد الذين سبقوا إلى وضع أيديهم على بعض مساحات من الأرض ، حدا بهم جشعهم ، وحرصهم على المحافظة على ملكيتهم ، إلى أن يأتروا فيما بينهم على وضع تلك النظم والقوانين ، ليخضعوا بها لجمهور ، ويضللوا بها الفقراء^(١) .

هذه النظرة الساخرة إلى الأديان والقوانين ليست مبتكرة ؛ وإنما هي ترديد لصدى مجون قديم ، كان يتفكك به أهل السفسطة من اليونان ، وكانوا يروجونه فيما روجوه من المغالطات والنشكيات . فقديماً زعم هؤلاء السوفسطائية ، أن الانسان كان في أول نشأته يعيش بغير رادع من قانون ، ولا وازع من خلق ، وأنه كان لا يخضع إلا القوة الباطنة . . . ثم كان أن وضعت القوانين ، فاخفت المظاهر العلنية من هذه الفوضى البدائية ، ولكن الجرائم السرية ما برحت سائدة منتشرة . . . فهناك فكر بعض العباقرة في إقناع الجماهير بأن في السماء قوة أزلية أبدية ترى كل شيء ، وتسمع كل شيء ، وتهيمن بحكمتها على كل شيء . . .^(٢) . وهكذا لم تكن القوانين والديانات في تصويرهم إلا ضروباً من السياسة الماهرة التي تهدف إلى علاج أمراض المجتمع بكل حيلة ووسيلة .

ولقد أعان على بعث هذه الآراء وترويجها في أوروبا الحديثة سيبان : أحدهما الانحلال الخلقى عند نفر من رجال الكنيسة ؛ والثاني ظلم القوانين الوضعية ، وسوء توزيع الثروة العامة . فكان من السهل أن يظن الناس أن الدين والقانون كانا كذلك في كل زمان ومكان . على أنه لم ينقض القرن الثامن عشر نفسه حتى ظهر خطأ هذه المزاعم ؛

(١) Rousseau, Discours sur l'Origine et le Fondement de l'inégalité

. parmi les hommes.

(٢) Voir P. de la Boullaye, ouvrage cité, I, 17-18.

حيث كثرت الرحلات إلى خارج أوروبا ، واكتشفت العوائد والعقائد والأساطير المختلفة ، وتبين من مقارنتها أن فكرة التدين فكرة مشاعة لم تخل عنها أمة من الأمم في القديم والحديث ، رغم تفاوتهم في مدارج الرقي ودركات الهمجية . وهكذا ظهر أنها أقدم في المجتمعات من كل حضارة مادية ، وأنها لم تقم على خداع الرؤساء وتضليل الدهاة ، ولم ترتكز على أسباب طارئة أو ظروف خاصة ، بل كانت تعبر عن نزعة أصيلة مشتركة بين الناس .

واعلم أن عموم الأديان لجميع الأديان لا يعنى عمومها لكل أفرادها ؛ فإنه لا تخلو أمة من وجود ذاهلين ، قد غمرتهم تكاليف الحياة وأعباؤها ، إلى حد أنهم لا يجدون من هدوء البال وفراغ الوقت ما يمكنهم من رفع رءوسهم للنظر في تلك الحقائق العليا ؛ كما لا تخلو أمة من « منكرين ساخرين ، يحسبون الحياة لهواً ولعباً ، ويتخذون الدين وهماً وخرافة . لكن هؤلاء دائماً هو الأقلون في كل أمة ، وهم في الغالب من المترفين الذين لم يصادفهم من عبر الحياة وأزماتها ما يشعر نفوسهم معنى الخضوع والتواضع ، وما ينبه عقولهم إلى التفكير في بدايتهم ونهايتهم . وهذا الاستثناء من القاعدة لا ينفي كمن الغريزة الدينية بصفة عامة في طبيعة النفس الانسانية ؛ كما أن غريزة بقاء النوع لا يمنع من عمومها أن بعض الناس لا يتزوجون ولا ينسلون .

ولسنا ننكر أن تكون هناك عقيدة معينة قد استحدثت في عصر ما ، أو أن يكون ثمة وضع خاص من أوضاع العبادات قد جاء مجلوباً مصنوعاً ، فذلك سائغ في العقل ، بل واقع بالفعل . أما فكرة التدين في جوهرها فليس هناك دليل واحد على أنها تأخرت عن نشأة الإنسان .

يقول معجم (لاروس) للقرن العشرين : « إن الغريزة الدينية : مشتركة بين كل الأجناس البشرية ، حتى أشدها همجية ، وأقربها إلى الحياة الحيوانية . . . وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى

النزعات العالمية الخالدة للإنسانية،^(١) . ويقول : إن هذه الغريزة الدينية ، لا تخفى ، بل لا تضعف ولا تذبل ، إلا في فترات الإسراف في الحضارة وعند عدد قليل جداً من الأفراد،^(٢) .

وكتب بارتيلي سانت هيلير : « هذا اللغز العظيم الذي يستحث عقولنا : ما العالم ؟ ما الإنسان ؟ من أين جاء ؟ من صنعهما ؟ من يدبرهما ؟ ما هدفهما ؟ كيف بدءا ؟ كيف ينتهيان ؟ ما الحياة ؟ ما الموت ؟ ما القانون الذي يجب أن يقود عقولنا في أثناء عبورنا في هذه الدنيا ؟ أي مستقبل ينتظرنا بعد هذه الحياة ؟ ... هل يوجد شيء بعد هذه الحياة العابرة ؟ وما علاقتنا بهذا الخلود ... ؟ هذه الأسئلة .. لا توجد أمة ، ولا شعب ، ولا مجتمع ، إلا وضع لها حلولا جيدة أو رديئة ، مقبولة أو سخيفة ، ثابتة أو متحولة ... »^(٣) .

ويقول شاشاوان : « مهما يكن تقدمنا العجيب في العصر الحاضر ... علياً ، وصناعياً ، واقتصادياً ، واجتماعياً ، ومهما يكن اندفاعنا في هذه الحركة العظيمة للحياة العملية ، وللجهاد والتنافس في سبيل معيشتنا ومعيشة ذويتنا ، فإن عقلنا في أوقات السكون والهدوء (عظاماً كنا أو متواضعين ، خياراً كنا أو أشراراً) يعود إلى التأمل في هذه المسائل الأزلية : لم وكيف كان وجودنا ووجود هذا العالم ؟ وإلى التفكير في العلل الأولى أو الثانية ، وفي حتموقنا وواجباتنا ، »^(٤) .

ويقول هنري برجسون : « لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ؛ ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة ، »^(٥) .

(١) و (٢) Larousse du XXème siècle, article : Religion.

(٣) B. St. Hilaire, Mahomet et le Coran, P. XXXIV.

(٤) Chachoin, Evolution des Idées Religieuses, p. 153.

Henri Bergson, Les Deux Sources de la Morale et de la Religion, (٥)

مصير البرابيات أمام التقدم العلمي :

وجاء القرن التاسع عشر وقد تقرر هذا المعنى في النفوس ؛ فلم يجرؤ أحد أن يشكك الناس فيه ، بل ظهرت نظرية جديدة في الطرف المقابل ، مضمونها أن الأديان وإن كانت عريقة في القدم ، لكن تقدمها الزماني لا يكسبها صفة الثبات والخلود ؛ بل هو بالعكس يطبعها بطابع الشيخوخة والهرم ، وينذر بأن مصيرها إلى الاضمحلال والفناء .

هذه هي نظرية (أوجست كونت) . فقد ذهب هذا الفيلسوف إلى أن العقلية الإنسانية قد مرت بأدوار ثلاثة : Loi des trois âges دور الفلسفة الدينية ، ثم دور الفلسفة التجريدية ، ثم دور الفلسفة الواقعية . وهذا الدور الثالث في نظره هو آخر الأطوار وأسمائها . فبعد أن كان الناس يطلون الظواهر الكونية بقوة أو بقوى إرادية خارجة عنها ، انتقلوا إلى تفسيرها بمعان عامة ، وخصائص طبيعية كامنة فيها ؛ كقوة النمو ، والمرونة ، والحيوية ... الخ ؛ ثم انتهوا إلى رفض كل تفسير خارجي أو داخلي ، واكتفوا بتسجيل الحوادث كما هي ، ومعرفة ما بينها من ترابط وجودي ، بقطع النظر عن أسبابها وغاياتها . وعلى هذا يكون دور التفكير الديني يمثل الحال البدائية التي تلت بها الإنسانية في مرحلة طفولتها ؛ فلما كبرت عن الطوق خلعت لتستبدل بها ثوباً وسطاً في دور مراهقتها ؛ حتى إذا بلغت أشدها ، واكتمل رشدها ، أخذت حلتها الأخيرة من العلوم التجريبية (١) .

نقطة الخطأ البارزة في هذا المذهب التطوري هي أن أنصاره جعلوا منه قانوناً يستوعب التاريخ كله في شرط واحد ، قطعت الإنسانية ثلثه بالفعل ، ونقضت أو كادت تنقض يدها منهما إلى غير رجعة ؛ فلن تعود إليهما إلا أن يعود الكهل إلى طفولته وشبابه .

(١) Auguste Comte, Cours de Philosophie Positive. (١)

ولو أنهم جعلوا منه سلسلة دورية ، كلما ختمت شوطاً رجعت عوداً على بدء ، لكان الخطأ في هذه النظرية أقل شناعة ؛ ولكنها بعد ذلك تظل دعوى غير مسلمة ؛ لا لأنها مجردة عن البرهان فحسب ، بل لأنها تحرف التاريخ ، وتصادم العيان . فنحن ما زلنا نسمع ونرى في كل عصر تقديساً للروحانيات ، وشغفاً بالمعنويات والمعقولات الكلية ، عند فريق من الناس ، إلى جانب الكلف بالحوادث والحقائق الجزئية ، عند فريق آخر . وليس الحد الذي يفصل بين المعسكرين هو جهل أحدهما بالتجارب الكونية وخبرة الآخر بها ؛ إذ كثيراً ما نجد من بين الجهال جاحدين متعصبين ؛ كما نجد من بين علماء المادة مؤمنين متحمسين . وهانحن أولاء ، في القرن العشرين ، وفي قلب الحضارة الأوروبية ، نرى إلى جانب البحوث المادية المتشعبة ، دراسات روحية واسعة ، تقوم بها جماعات محترمة من كبار علماء^(٢) الطب والفلسفة والطبيعة ، على منهاج علمي دقيق ، وبأسلوب برهاني يعتمد على التحليل والنقد الصارم ، الذي ينحى عن الوقائع كل ما عساه أن يعلق بها من تزوير وخذاع ، وكل ما يحوم حولها من وهم وتسرع في الحكم ، ولا يقبل منها إلا ما يؤيده اليقين ، وما ينتهي إليه البحث الدقيق الرزين .

فالواقع أن الحالات الثلاث التي يصورها (كونت) لا تمثل أدواراً تاريخية متعاقبة ، بل تصور نزعات وتيارات متعاصرة في كل الشعوب ، وليست كلها دائماً على درجة واحدة من الازدهار أو الخمول في شعب ما ، ولكنها تتقلب بها الأقدار بين بؤسى ونعمى ، ونحوس وسعود .

بل نقول إن هذه النزعات الثلاث متعاصرة متجاورة في نفس كل فرد ، وإن لها وظائف يكمل بعضها بعضاً في إقامة الحياة الإنسانية على وجهها ، ولكل واحدة منها مجال يوائمها . ففي الوقت الذي نفسر فيه الحوادث العادية

(١) أمثال Lodge الفيلسوف الإنجليزي و William James الأمريكي و Richet العالم الفرنسي المتخصص في وظائف الأعضاء .

بأسبابها المباشرة ، خارجية أو داخلية ، فنقول : هلك فلان بضربة سيف أو بالشيخوخة أو المرض ، لا يزال كل واحد منا يفسر الحوادث الشاذة الخارقة بالقضاء والقدر ، أو بسبب غيبي مجهول . بل نذهب إلى أبعد من ذلك ، فنقرر أن النظرة الوقوعية تقع في مبدأ الطريق لا في نهايته ، وأنها تمثل مرحلة الطفولة النفسية ، لا مرحلة النضج والكمال ؛ ذلك بأن مبعثها الحاجة العاجلة وضرورة الحياة اليومية ، وبأنها وظيفة الحس لا العقل ، وبأنها من معدن القابلية والانفعال ، لا من معدن الفاعلية والإنشاء .

أما نظرة التعليل بالمعاني العامة فإنها تنبثق في النفس على أثر ذلك ، متى استيقظت ملكة التجريد والتعميم في التصورات والأحكام ؛ فلا يكتفى الذهن حينئذ بجمع الحوادث المترابطة في سلسلة متعاقبة ، كما تجمع الأعواد في الحزمة ، بل يحاول ربطها برباط معنوي تدور في فلكه ، ويكون كالسلك الداخلى الذى ينتظم حبات العقد . وتؤكد أن المعارف الإنسانية لا تستحق اسم العلم حتى تأخذ بنصيب قليل أو كثير من هذا التجريد والتعميم ، الذى يضع كل مجموعة في نطاق يضبطها ، تحت لقب مشترك يسهل به استحضارها ويكون لها بمثابة قانون كلى تعلق به جزئياتها . بل العلوم الواقعية تسمى الآن جاهدة للاندماج برمتها في منظمة تنسيقها وتخضع جميع ظواهرها لناموس واحد . وهذا هو ما يسمى بمبدأ « وحدة الوجود » بمعناه العلمى *monisme scientifique* وسواء أبلغت العلوم هذا الهدف قريباً أو بعيداً أم لم تبلغه أبداً ، فالذى لا شك فيه هو أن هذه النزعة إلى استنباط المعانى الكلية لم تفتقر بل تزداد قوة .

بقيت النظرة الروحية ، أو الدينية . وواضح أنها لا تولد في النفس إلا حينما يتسع أفقها ، فتتجاوز الكون بظاهره وباطنه إلى ما وراءه . فهى أوسع النظرات مجالا ، وأبعدها مطلباً .

وهكذا ينقلب الترتيب الذى تخيله الفيلسوف رأساً على عقب ، وتعود

الحاجات النفسية الثلاثة إلى أوضاعها الطبيعية المعقولة : حاجة الحس ، حاجة العقل ، حاجة الروح . وإن شئت قلت : حاجة الحس ، حاجة العقل القانع ، حاجة العقل المتسامي . على أن الذي يعيننا هنا ليس هو الوضع التقويمي لكل واحدة من هذه النزعات ؛ وإنما هو دخولها جميعاً في كيان النفس الإنسانية . فكما أننا لا نجد أماراً واحدة تدل على قرب زوال النزعة الاستقرائية ، أو النزعة التعليلية ، كذلك لا نرى أماراً واحدة تشير إلى أن فكرة التدين ستزول عن الأرض قبل أن يزول الإنسان .

يقول سالومون ريناك : « ليس أمام الديانات مستقبل غير محدود فحسب ؛ بل لنا أن نكون على يقين من أنه سيبقى شيء منها أبداً ؛ ذلك لأنه سيبقى في الكون دائماً أسرار ومجاهيل ؛ ولأن العلم لن يحقق أبداً مهمته على وجه الكمال ، » (١) .

ويقول الدكتور (ما كس نوردوه) عن الشعور الديني : « هذا الإحساس أصيل يجده الإنسان غير المتمدين ؛ كما يجده أعلى الناس تفكيراً ، وأعظمهم حدساً . . . وستبقى الديانات ما بقيت الإنسانية ؛ وستتطور بتطورها ، وستجاوب دائماً مع درجة الثقافة العقلية التي تبلغها الجماعة ، » (٢) .

ويقول ارنست رينان Renan في تاريخ الأديان : « إن من الممكن أن يضمحل كل شيء نجبه ، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ؛ ولكن يستحيل أن ينمحي التدين ، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي ، الذي يريد أن يحصر الفكر الإنساني في المضائق الدينية للحياة الأرضية ، » .

ولقد أحسن الأستاذ محمد بك فريد وجدى حين يقول في دائرة معارفه ، تعليقاً على هذه الكلمة ، في مادة (دين) : « نعم يستحيل أن تتلاشى فكرة التدين ، لأنها أرقى ميول النفس وأكرم عواطفها ؛ ناهيك بميل يرفع رأسه

(١) Salomon Reinach, Orpheus, p. 35-6.

(٢) Max Nordau, Réponse au Mercure de France, Paris, 1908.

الإنسان . بل إن هذا الميل سيزداد . . . ففطرة التدين ستلاحق الإنسان ما دام ذا عقل يعقل به الجمال والقبح ، وستزداد فيه هذه الفطرة على نسبة علو مداركه ونمو معارفه ، . . . كما الحال في نمو المعرفة . . . ولنقف قليلاً عند هذه الكلمة ؛ لأنه قد يبدو من المفارقات العجيبة أن يكون ازدياد العلم ونمو المعرفة سبباً في نمو غريزة التدين ، المبنية على طلب الغيب المجهول . ولكننا لو تأملنا لتحققنا صحة هذه المفارقة ، ولعرفنا أن تقدمنا الحديث في العلوم يقربنا حقيقة من الاعتراف بجهالتنا ، والإقرار بأن مثل ما نعلمه من الكون في جانب ما نجهله منه كممثل قطرة واحدة من محيط خضم عميق ؛ ذلك أن كل باب جديد يفتح العلم من دلائل عظيمة الكون وامتداده يفتح معه أفق أوسع للسؤال عما يتصل بهذا الميدان الجديد من المشاكل الكثيرة الغامضة . . .

ولنأخذ مثلاً بمجموعتنا الشمسية ، وما فيها من الكواكب السيارة ، التي لا يرى منها بالعين المجردة إلا عدد يسير . فقد اكتشف فيها من الأقمار والتوابع على عهد لاپلاس La Place ما تبلغ به اثنين وأربعين كوكباً ، ثم أثبتت الأرصاد الأخيرة من أجزاء هذه المجموعة ما يجاوز الألف ؛ ثم قامت الدلائل القوية على أن كل مجموعتنا هذه ما هي إلا واحدة من ملايين المجموعات التي لها أجزاءها ، وتوابعها ، والتي تختلف أعمارها ، وبتفاوت جوها ، ونظام حركاتها ، وتكوين سطحها وطبقاتها ، وأسلوب الحياة فيها ؛ وكل ذلك لا نعرف عنه شيئاً على وجه الوضوح واليقين ، ولا أمل في الوصول إليه الآن إلا على ضرب من القياس والتخمين ؛ فضلاً عما وراء ذلك من فضاء أو ملام . حتى إننا لو عرفنا كيف تتكاثف بعض الغازات السطحية السحابية العليا فتولد منها الشمس ، لبقى علينا أن نعرف من أين تتولد تلك السحبيات نفسها . وهكذا كان اتساع نطاق المعلومات هو بنفسه اتساعاً لنطاق المجهولات ؛ لأن محيط كل دائرة جديدة يماس الحدّين بباطنه وظاهره ، فلا يسع العقل إلا التسليم بأن وراء كل مرحلة يقطعها من

عالم الشهادة مراحل أخرى من عالم الغيب ، في آماذ وآباد لا يدرك الإنسان نهايتها إلا إذا انقلب المحاط محيطاً ، والحادث الفاني أزيلاً باقياً . وصدق القرآن حين يقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » .

فإذا رجعنا من العالم الأكبر إلى العالم الأصغر ، واعتبرنا الأشواط التي قطعها العلم في تحليل المادة إلى أجزائها وأجزاء أجزائها ، فإننا نحصل على نتيجة مشابهة تمام المشابهة ؛ ذلك أنه بعد أن وقف التحليل دهرأ طويلاً عند الذرة *atome* على أنها هي الحد الأدنى الذي لا يقبل الانقسام ولا الفناء ، والذي يحتفظ بكتلته وخصائصه تحت تأثير كل القوى الطبيعية ، وفي أثناء جميع التفاعلات الكيميائية ، أصبحت اليوم هذه الذرة نفسها عالماً معقداً ، مركباً من نواة جامدة وغلاف يدور حولها كما تدور السيارات حول الشمس ؛ وتبين أن هذا الغلاف الذي هو جزء من تركيبها ما هو إلا شحنة كهربائية سالبة *electron* مجردة عن كل حامل مادي ، وأنه يمكن فصله عنها بقوة إشعاعية أو بتسخين هائل . بل تلك النواة نفسها ، التي كانت تعد إلى عهد قريب متماثلة الأجزاء أعني ذات قوة إيجابية حسب *proton* ، قد ظهرت الآن مركبة بدورها من نوعين من الكهرباء : موجب وسالب ؛ وثبت أنه من الممكن تحطيمها وفصل أجزائها^(١) ، وأن القوة الإشعاعية الهائلة التي تستنبط من هذا التحطيم يمكن استخدامها في إصلاح الكون وتعميره ، أو في إفساده وتدميره .

هكذا تخلع الطبيعة ثوبها المستعار ، وتتكشف المادة عن أصلها الأصيل ،

(١) يقول علماء الذرة إن أخف الذرات وأيسرها تركيباً هي الذرة المائية *atome d'hydrogene* التي تحتوي على بروتون واحد وإلكترون واحد ؛ كما أن أثقل الذرات هي ذرة الإريانيوم *uranium* التي عددها الذري ٩٢ ؛ وعدد إلكتروناتها أيضاً ٩٢ . وقد أثبتت التجارب أن الذرة المائية جزء مقوم مشترك في كل نويات الأجسام العنصرية ، كالألومنيوم وغيره ؛ بمعنى أن تحليل هذه العناصر ينتهي في آخر الأمر إلى ذرات مائية .

قف لحظة عند هذه الاكتشافات ، وتأمل التعبير القرآني العجيب : « وكان عرشه على الماء » أي أنه هو أصل المكونات ، قبل أن تخلق السموات والأرض .

فإذا هي طاقة ، أى قوة مجردة ، يلزم البحث عن مصدرها خارج ذلك الهيكل المادى المحطم ، وذلك الصنم الساقط المهدم . وهكذا يقترب عالم المادة رويداً رويداً من عالم المجردات ، ويكاد يتصل عالم الشهادة بعالم الغيب من جهة حده الأدنى ، كما اتصل به من جهة حده الأعلى . وهو غيب يؤمن به العلم وإن لم يره ؛ لأنه يحس أثره ، ويكاد يلمس خطره .

أجل ، لقد أصبح العلم يؤمن اليوم بأن فى الوجود قوى لا يناهاها الحس المجرد ، ولا الحس المجهز بأقوى المجاهر ، المزود بأدق المقاييس والموازن ؛ وبالجملة أصبح يؤمن بأن التجربة الحسية المباشرة ليست هى المعيار الوحيد للوجود . وهكذا وضع يده اللبنة الأولى فى القاعدة التى تقوم عليها الأديان .

على أن هذا الضرب من التجارب العلية التى سرّحنا فيها النظر مصعدين طوراً ومنحدرين طوراً ، والتى حوّلت المادة فى كلا طرفيها إلى هباء أو سراب ، ورجعت بالعلم فى كلتا مرحلتيه من الغرور والكبرياء إلى التواضع والاستسلام ، هذا الضرب من التجارب لا يمثل من العلم الواقعى إلا جانبه التطبيقى ، الذى هو إلى الصناعات والفنون أقرب منه إلى حقيقة العلوم ؛ إذ العلم فى جوهره ليس تحليلاً وتركيباً عمليين ؛ وإنما هو نظرة عقلية تربط النتائج بمقدماتها ، وتستنبط القوانين من جزئياتها ، وتفسر الموجودات تفسيراً تستسيغه النفس ويطمئن إليه العقل . . . ترى هل فى طبيعة العلوم التجريبية وطبيعة مناهجها وأدواتها ما يؤهلها للقيام بهذه المهمة على كمالها ، بحيث لا تتطلع النفس من ورائها إلى تفسير آخر ؟

هيات ، هيات !
لا نكتفى بأن نقول إن هذه العلوم — حتى فى وضعها الحالى الذى سحر الأبصار — لم تكشف من قوانين الوجود إلا جانباً يسيراً ، يمتد من خلفه عالم فسيح من الشواذ والأحوال الفردية ، التى لا تضبطها قاعدة ولا قانون .

ولا ننزع بأن نقول إننا ، فى تلك الحدود الضيقة نفسها ، متى جاوزنا

عالم المواد الأولية الساذجة إلى حيث تشتبك العناصر والعوامل ، وتتعقد العلاقات والمشاكل ، خرجت قوانين العلم عن صرامتها ودقتها ، وأصبحت ضرباً من التقريب المبني على حساب الاحتمالات الغالبة ، والذي إن صدق في متوسطه الحسابي فإنه يدع الأطراف تتراجع في قلب وتذبذب ، بين مد وجزر . هذا إجمال له تفصيل يعرفه كل من زاول علوم الحياة والنفس والاجتماع وأشباهاها .

بل نقول بلسان علوم الطبيعة نفسها إنه لم يوجد ولن يوجد فيها قانون عام واحد يعتمد على منهج تجريبي يقيني شامل . ذلك أنه مهما تتكرر التجربة ، وتنوع الأمثلة ، فإنها كلها أحداث معينة تقع في أزمنة معدودة ، وأمكنته محدودة ، ويظل بين حملتها وبين منطوق القانون الكلي ، الذي لا يحده زمان ولا مكان ، برزخ عريض يفصل ما بين « النهائي » و « اللانهائي » . وإنه لكي يسد العلم هذه الفجوة يلجأ دائماً إلى « وسيلتين » من الرفو والترقيع ، ينسج خيوطهما من مقايسة ذهنية تعتمد على محض الظن والتمنى : أما في « أولاهما » فإنه يمد بين كل معلومة ومعلومة من معالم التجربة الفعلية جسوراً وهمية قصيرة interpolation يفترض فيها أن الحلقات المفقودة التي لم تسجلها المشاهدة تنتظم في سلك مع الحلقات التي سجلتها ، وأن السلسلة المؤلفة منهما تمتد في خط متصل مستقيم ، أو هو على الأقل أقرب إلى الاستقامة وأبعد عن التعرج والالتواء . وأما في « أخراهما » فإنه من وراء تلك السلسلة كلها يثب في عالم الغيب الزماني والمكاني وثبة هائلة extrapolation يفترض فيها أن المناطق التي لم ير منها شيئاً شبيهة بالمنطقة التي رأى بعضها ، وأن ما سيكون شبيه في الجملة بما كان . لا جرم أن قانوناً هذا مبلغه من الارتكاز على الواقع المشاهد — وكل قوانين العلم الطبيعي كذلك — هو عالة في قانونيته نفسها على نوع من الإيمان العقلي بتلك المقدمات المفروضة التي لا تزال تضيف إلى شهادة الحس رقعاً أغلظ منها غريبة عنها ، حتى تبرزها في ثوب العموم والشمول .

ثم نقول بلسان العلم الأعلى ، أعنى علم قوانين المعرفة والفكر ، إن كل تفسير للآثار بأسبابها الطبيعية يحمل في نفسه جرثومة نقصه وعجزه ، ولا يمكن أن يصل إلى حد الإقناع الشافي إلا إذا اقتلع قانون التفكير من جذوره . ذلك أنه لو كان صدور الأثر انبثاقاً طبيعياً من سببه ، لوجب أن يكون وجوده مجرد امتداد لهذا السبب ، ولو جب إذاً أن يشبهه في كل شيء ، حتى إن أدنى اختلاف بينهما في الطبيعة ، أو الكم ، أو الكيف ، يصبح مجالاً لسؤال جديد لا يحير التفسير الطبيعي له جواباً ؛ بل إن مجرد اختلافهما في الزمان أو المكان يجعلنا نتساءل : لم كان هذا قبل ، وذاك بعد ؟ أو لم كان أحدهما عن اليمين ، والآخر عن الشمال ؟ . . . فإذا جرينا إلى نهاية الشوط ، وجب أن يؤول الكون أمامنا إلى وحدة لا تعدد فيها ، أو إلى نقطة لا امتداد لها ، وأن تمحي من أذهاننا فكرة الغيرية ، ولا يبقى فيها إلا مبدأ العينية . . . لكن الفكر نفسه لا حياة له إلا في التعدد والاختلاف ؛ إذ هو حركة بين حدين أو جملة حدود ، يصل بينها أو يفصل . . . هكذا توقعنا التفسيرات الطبيعية بين نارين : فهي إما أن تقف بنا معترفة بعجزها وإفلاسها وتركتنا ظمأى لا تنقع لنا غلة ؛ وإما أن تسعى إلى الوفاء والكمال حتى تفضى بنا إلى الإحالة والخلف . ألا وإنه لا مخرج للعقل من هذا الخلف والتناقض ، ولا سبيل في الوقت نفسه إلى شفاء النفس من هذا العي ، إلا بتجاوز تلك التفسيرات الآلية الخالصة ، والتماس سبب إرادى مفهم ، تكون له الحرية في اختيار هذا التفاوت بين الأسباب ومسبباتها .

وهكذا تلتقى العلوم العقلية والطبيعية ، العملية منها والنظرية ، على الاعتراف بأنها في استمضاء البحث عن أصول الأشياء ومبادئها تنتهي دائماً بالانتصار لقضية الغيب ، وتفسح يدها المجال لبقاء الأديان وخلودها . على أن العلوم في هذا الاتجاه الذي وصفناه إنما تعتمد إلى أحد طرفي المحور مستدبرة طرفه الآخر ؛ وإنما تحاول إرضاء نصف حاجة العقل ، مهملة نصفها الثاني . ذلك أن النفس الإنسانية ليس يشفيها في تفهمها للأشياء

أن تصعد إلى أسبابها ومقدماتها ، بل لا بد لها بعد ذلك من أن تنحدر معها إلى غاياتها ونهاياتها ، وتستفسر عن مقاصدها وأهدافها . فليس يكفيك لكي تحيط بالشيء خيراً أن تعرف نشأته دون أن تعرف مصيره ، ولا أن تعرف كيف كان ؟ دون أن تعرف لم كان ؟ أليست هذه المطالبة النفسية الحديثة دليلاً على ما هو مركز في الجبلية من الاقتناع بأن الحوادث الكونية تسير على خطة مرسومة ، وأن القوة المدبرة للأشياء تهدف منها إلى غاية معينة ، وأنها لا تسير بمحض المصادفة العمياء والاتفاق التحكيمي ؟

فانظر الآن موقف العلوم الحديثة من هذه الضرورة العقلية التي تلح علينا في السؤال عن غايات الأشياء ومقاصدها :

لقد أتى على هذه العلوم زمن أعلنت فيه أنها نفضت يدها من هذا البحث ، وأنها أوصدت دونه بابها ، مدعية أنه إنما يعينها اكتشاف علاقة السببية بين الظواهر ، ومعرفة اطرادها على نسق معين ؛ وليس يعينها ، بل ليس يدخل تحت قدرتها ، أن تتبين : أهذا الارتباط مقصود لغاية ؟ ولا ما هي تلك الغاية ؟ وهكذا شهدت هذه العلوم على نفسها بادية ذي بدء بأنها لن تفي بحاجات العقول ، ولن تؤدي رسالة المعرفة كاملة ؛ إذ أزمعت أن تقف منها في منتصف الطريق . على أنها لم تكن لتدوم طويلاً على هذا الموقف المحايد ؛ فإن العالم الطبيعي لا يستطيع بما هو إنسان أن يهمل هذا الجانب من مطالبه العقلية . ولذلك نراه كلما وصل به العلم إلى مجموعة من الظواهر المتساندة التي يخدم بعضها بعضاً ، والتي يقع كل منها في موضعه الذي كان لا بد منه للحصول على فائدة معينة ، يعود قهراً عنه إلى البحث في العلل الغائية من غير أن يسميها باسمها ، فيسأل عن عمل كل خلية في العضو ، وعمل كل عضو في الجهاز ، وعمل كل جهاز في الجسم . الخ ؛ ويسمى هذه الأعمال بالوظائف ، بدلا من اسم الغايات والمقاصد . وهو كما ترى برقع شفاف لا يكاد يستر ما وراءه . والمهم عندنا ليس هو الأسماء ، وإنما هو تلك الحقائق التي يعترف بها اعترافاً عملياً صامتاً . والأهم من ذلك

هو أن هذا العلم كلما جد في سيره لا يلبث أن يجاوز بضع خطوات حتى يقف عجزاً واعترافاً بأن أمامه ستاراً كثيفاً يحول دون منظر الغايات القصوى ، والنهايات الأخيرة ، التي لا يزال يتشوف إليها ولا يدركها . وبعد ، فأى شيء أكبر شهادة على أن نهاية العلم البشرى ليست هي إطفاء غريزة التدين ، بل زيادة إشعالها ، من أن مؤسس الفلسفة الواقعية وكبار أنصارها قد انتهوا إلى الاعتراف صراحة أو ضمناً بهذه الحقيقة ، بناء على تجربتهم في أنفسهم ؟ فهذا كونت A. Comte الذي كان يتنبأ بأن فناء الديانات سيكون هو النهاية الحتمية لتقدم العلوم ، قد عاد في آخر أمره متصوفاً عجبياً ، وكلل حياته بوضع ديانة جديدة ، طبعها على غرار النظام الكنسي للديانة الكاثوليكية : في عقائدها ، وطقوسها ، وأعيادها ، وطبقات قساوستها . . . رواية كاملة أعاد فصولها ، ولم يغير إلا أشخاصها . وهذا سبنسر R. Spencer ينتهي بأن يقول عن « المجهول » ، إنه « تلك القوة التي لا تخضع لشيء في العقول ؛ بل هي مبدأ كل معقول ، وهي المتبع الذي يفرض عنه كل شيء في الوجود » . أليس هذا « المجهول » ، هو بعينه موضوع الديانات ، يجيئنا الآن باسم آخر على لسان العلم ؟

وما أجمل الصفحة التي كتبها ليتريه Littré يصف نفسه حين كانت خاتمة مطافه في العلوم الواقعية أن رأى نفسه محوطاً من كل جانب ببحر لجى من الأسرار الغامضة ، وهو لا يملك سفينة يخوض بها لجته . وليس معه إبرة يتعرف بها وجهة سفره . . . ترى كيف كان موقفه يازاء هذا المحيط الرهيب ؟ أترأه وقف أمامه وقفه الشاعر الهائم ، أو وقفه العاشق المتدله ؟ كلا ، ولكن وقفه الناسك ، الخاشع ، المتأله ^(١) .

(١) Voir Sabatier, Esquisse d'une Philosophie de la Religion, p. 11-12.

نحو ما يلاحظ في بعض النواحي لا سيما في حقلها المثلث المثلثي
 ينابيع النزعة الدينية في النفس البشرية :

ما هذه إذاً تلك القوة الغالبة ، التي لا تزيد مقاومتها إلا عنفاً
 واشتعالاً ، والتي تقهر في النهاية أنصارها وأعداءها على السواء ؟ أليست هي
 قوة الفطرة التي إن ذبلت أوراقها ، وجفت أغصانها في فترة ما ، فإنها
 لا تلبث أن تورق وتثمر كلما عاودها الربيع قبل ثراها ، وسقى أصولها ؟
 بلى ! وإن هذا الربيع قد تكفي منه قطرة ، وربما تبلور في نظرة . فما هي
 إلا طرق من تأمل الفكر ، أو لحظة من يقظة الوجدان ، أو أزمة من
 صدمات العزم ... فإذا أنت تسبح بخيالك في عالم الغيب الذي منه خرجت ،
 أو في عالم الغيب الذي إليه تصير .
 لو كانت نزعة الإيمان بالغيب والتطلع إليه من ناحية طرفيه : الماضي ،
 والآتي ، عنصراً من عناصر الفكرة الدينية وحدها ، لكان الإنكار
 لما وراء الحس إلحاداً فحسب ؛ ولو كانت هي النتيجة الحتمية لتقدم العلوم
 واتساع أفقها كما رأينا ، لكان هذا الإنكار نقصاً في العلم وقصراً في النظر
 وكفى . أما وتلك النزعة بنت الغريزة والجلبة ، فإن الأمر أعظم من ذلك
 وأخطر : إنه نكسة في فطرة الإنسان ترده إلى مستوى الحيوان الأعجم ،
 ولا نقول إلى مستوى الطفولة الغافلة ؛ فإن كثيراً من الأطفال ذوي الفطر
 السليمة لا يقنعون بالأمر الواقع المشاهد ، ولا يقفون في تعليقه عند حلقة
 من حلقات أسبابه وغاياته القريبة ، بل يصعدون دائماً إلى أسبابه الأولى ،
 ويسترسلون في تعرف نتائجه الأخيرة . فهذه صورة مصغرة من تلك النزعة
 الفكرية الإنسانية التي هي أبدأ في حركة وتقدم بإيمان الوقوف والجمود .
 إن غريزة التطلع هذه هي مبدأ العلم والإيمان معاً . وإن الذي يقف بها
 عند حدود الواقع الحاضر في الحس ليصد الإنسانية عن سبيل الكمال ،
 ويحرم العالم من خير كثير ؛ فضلاً عن أنه بذلك يقاوم طبيعة الأشياء ،
 ويحاول تبديل الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

غير أن العقول حين تنفذ بنورها من نطاق هذا العالم الحسى ، سعيًا إلى الاطلاع على مبدئه ومصدره ، وعلى مصيره وغايته ، ليست على درجة واحدة في هذا السعى . (فأما) العقل القانع المتعجل فإنه يقف عند أدنى مبادئ الغيب وأقرب غاياته ؛ مكتفياً في كل فصيلة من الظواهر الكونية المتشابهة بأن يلح من ورائها مبدأ يدفعها وينظمها ، ومن أمامها قبلة معينة تتجه نحوها ؛ وقلنا يعود إلى السؤال عن منشأ كل واحد من المبادئ ومآله ، أو إلى السؤال عن مبدأ الكائنات جملة ، أو عن وجهتها الكلية من حيث هي كتلة واحدة ، ذات وظائف متساندة . وهكذا تتعدد في نظره القوى المدبرة ، أو الآلهة المقدره : فلريح إله ، وللنصب إله ، وللحياة إله ، وللوت إله ، وللحرب إله ، وللشعر إله . . . (وأما) العقول الواعية ، الطليقة ، المتسامية ، التي تسعى إلى هدفها على بصيرة فيما تطلب ، وفيما تأخذ أو تدع ، غير متعرجة في السير ، ولا متناقضة في الحكم ، فإنها من جهة ترى أن مطلبها أسمى من أن تحده حدود المكان ، أو تقيد قيود الزمان . . . حتى إنه لو أحصى لها العادون ما جمعه البشرية وما ستجمعه من علوم وفنون ، ومتع بدنية وعقلية ، لبقى أمامها في طرفي الوجود شيء لا تفسره العلوم ، ولا تحققه الفنون ، ولا ظل فيها فراغ عميق لا يملؤه الماضي ولا الحاضر ، ولا المستقبل القريب ولا البعيد . . . ولن يتوقف منها هذا التطلع والتسامي ، ولن يستقر فيها هذا القلق والاضطراب ، ولن ينحسم عنها هذا اللجاج في الطلب . . . إلا بحقيقة هي الإتيّة الأولى واللّسّية الأخيرة لكل الحقائق ، حقيقة تأتي طبيعتها الأفلو في أفق الحدوث والإمكان ، ولا تدع مجالاً للسؤال عن قبل أو بعد في الزمان أو المكان . ومن جهة أخرى فإن هذه العقول الفسيحة الأفق تطلب دائماً تحت كل اختلاف امتلافاً ، ومن وراء كل كثرة وحدة ؛ ولذلك تأتي الوقوف عند المقاييس النسبية ، والتفسيرات الجزئية ، ولا ترضى بأحاد القوانين حتى تسمو إلى قانون القوانين ؛ بل إنها لتستشرف إلى اليد التي جمعت تلك القوانين ونسقتها ، وجعلتها تتعاون على

أداء الوظيفة المشتركة لهذا البنيان الكوني . يا سبحان الله ! أليست وحدة النظام بين هذه الكتابب المختلفة الطبيعة ، المتنوعة العمل ، من الكائنات السماوية والأرضية ، آية على وحدة القيادة العامة التي تشرف عليها ، وعلى وحدة الخطة المرسومة التي يسير على هداها كل جهاز من أجهزة هذه الآلة الكبرى ؟ وجملة القول أن العقول السامية تشرئب دائماً من وراء الحقائق الجزئية الحائلة الزائلة ، إلى حقيقة كلية أزلية أبدية ، حقيقة لا يحويها شيء من العلوم والمعارف ، ولكنها تنشوف إليها كل العلوم والمعارف . وتلك هي الحقيقة التي تفردها الأديان العليا بالتقديس ، ولا تنكرها سائر الأديان وإن أشركت معها في هذا التقديس بعض الحقائق الجزئية الفانية .

إن هذا الشوق الغريزي إلى الأزلى الأبدى ، وهذا الطلب الخيبي للكلّي اللانهائي ، له دالتان عميقتان : إحداهما دلالة على مطلوبه ، لا كدلالة الحركة القسرية على مصدر جاذبيتها كما يقول أرسطو ، بل كدلالة الأثر على صانعه ، أو الخاتم على طابعه (حسب تعبير ديكرت) . وثانيتها دلالة على أن في الإنسان عنصراً نبيلاً سماوياً خلق للبقاء والخلود ، وإن تناساه الإنسان وتلهى عنه حيناً ، قائماً بالدون من الحياة الجثمانية المتحطمة .

التدين إذاً — ولا سيما في أديان التوحيد والخلود — عنصر ضروري لتكميل القوة النظرية في الإنسان ؛ فبه وحده يجد العقل ما يشبع نهمته ، ومن دونه لا يحقق مطامحه العليا .

ثم هو فوق ذلك عنصر ضروري لتكميل قوة الوجدان ؛ فالعواطف النبيلة من الحب ، والشوق ، والشكر ، والتواضع ، والحياء ، والأمل ، وغيرها ، إذا لم تجد ضالتها المنشودة في الأشياء ولا في الناس ، وإذا جفت بنايمها في هذا العالم المتبدل المتبدد ، وجدت في موضوع الدين مجالاً لا تدرك غايته ، ومنهلاً لا ينفد معينه .

وأخيراً هو عنصر ضروري لتكميل قوة الإرادة يمدّها بأعظم البواعث والدوافع ، ويدرّعها بأكبر وسائل المقاومة لعوامل اليأس والقنوط .

وهكذا نرى الفكرة الدينية تعبر عن حاجات النفس الإنسانية في مختلف ملكاتها ومظاهرها . حتى إنه كما صح أن يعرف الإنسان بأنه « حيوان مفكر ، أو بأنه « حيوان مدني بطبعه ، يسوغ لنا كذلك أن نعرفه بأنه « حيوان متدين بفطرته » .

وظيفة الأديان في المجتمع :

عرفنا أن الفكرة الدينية هي الغذاء الوافي لقوى النفس المختلفة ، والمداد الخالد لحيويتها . ونزيد الآن أن للأديان وراء هذه الوظائف النفسية الفردية وظائف أخرى اجتماعية ، ليست بأقل من أختها خطراً :

لا حاجة بنا إلى التنبيه على أن الحياة في الجماعة لا قيام لها إلا بالتعاون ، بين أعضائها ؛ وأن هذا التعاون إنما يتم « بقانون ، ينظم علاقاته ، ويحدد حقوقه وواجباته ، وأن هذا القانون لا غنى له عن « سلطان ، نازع وازع ، يكفل مهايته في النفوس ويمنع انتهاك حرمانه .

تلك كلها مبادئ مقرررة . والحديث فيها معاد مملول .
وإنما الشأن كل الشأن في هذا السلطان النازع الوازع : ما هو ؟

فالذي نريد أن نثبته في هذه الحلقة من البحث هو أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوة التدين أو تدانيتها في كفالة احترام القانون ، وضمان تماسك المجتمع واستقرار نظامه ، والثمام أسباب الراحة والطمأنينة فيه .

السر في ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الكائنات الحية بأن حركاته وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها شيء لا يقع عليه سمعه ولا بصره ، ولا يوضع في يده ولا عنقه ، ولا يجرى في دمه ، ولا يسرى في عضلاته وأعصابه ، وإنما هو معنى إنساني روحاني ، إسمه الفكرة والعقيدة . ولقد ضل قوم قلبوا هذا الوضع وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران في الحياة المادية والاقتصادية ، بل يتأثران بها . هذا الرأي الماركسي هو قبل كل شيء نزول بالإنسان عن عرش كرامته ، ورجوع به القهقري إلى

مستوى البهيمية . ثم هو تصوير مقابو للحقائق الثابتة المشاهدة في سلوك الأفراد والجماعات في كل عصر ؛ فإنه ، لكي يختار الناس أن يحيوا حياة مادية لا نصيب فيها للقلب ولا للروح ، لا بد أن يقنعوا أنفسهم بآدىء ذى بدء بأن سعادتهم هى فى هذا النوع من الحياة . فالإنسان مقود أبدأ بفكرة صحيحة أو فاسدة . فإذا صلحت عقيدته صلح فيه كل شىء ؛ وإن فسدت فسد كل شىء .

أجل إن الإنسان يساق من باطنه لا من ظاهره ، وليست قوانين الجماعات ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة تحترم فيها الحقوق ، وتؤدى الواجبات على وجهها الكامل ؛ فإن الذى يؤدى واجبه رهبة من السوط أو السجن أو العقوبة المالية ، لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون .

ومن الخطأ البين أن نظن أن فى نشر العلوم والثقافات وحدها ضماناً للسلام والرخاء ، وعوضاً عن التربية والتهديب الدينى والخلقى ؛ ذلك أن العلم سلاح ذو حدين : يصلح للهدم والتدمير ، كما يصلح للبناء والتعمير ؛ ولا بد فى حسن استخدامه من رقيب أخلاقى يوجهه لخير الإنسانية وعمارة الأرض ، لا إلى نشر الشر والفساد .

ذلكم الرقيب هو العقيدة والإيمان .
غير أن الإيمان على ضربين : إيمان ، بقيمة الفضيلة ، وكرامة الإنسانية ، وما إلى ذلك من المعانى المجردة ، التى تستحي النفوس العالية من مخالفة دواعيها ، ولو أعفيت من التبعات الخارجية والأجزية المادية . وإيمان ، بذات علوية ، رقية على السرائر ، يستمد القانون سلطانه الأدبى من أمرها ونهيها ، وتلتهب المشاعر بالحياء منها ، أو بمحبتها ، أو بخشيبتها . ولا ريب أن هذا الضرب هو أقوى الضربين سلطاناً على النفس الإنسانية ، وهو أشدهما مقاومة لأعاصير الهوى وتقلبات العواطف ، وأسرعهما نفاذاً فى قلوب الخاصة والعامة .

من أجل ذلك كان التدين خير ضمان لقيام التعامل بين الناس على قواعد العدالة والصفه ؛ وكان لذلك ضرورة اجتماعية ، كما هو فطرة إنسانية . وأنت فهل عسيت أن يخاللك شيء من الشك في مدى حاجة الجماعة في مختلف الأمم والشعوب إلى ازدهار هذا الروح الديني فيها ؟ وهل غرك أن دولا كبيرة أسست نهضتها في عصرنا هذا على غير الدين ، وقد استتب النظام فيها ومكن لها في الأرض ؟ إننا لا نريد أن نسبق الحوادث ، وأن تنبأ بمصير هذا البيان الذي أسس على غير تقوى من الله ورضوان . ولكننا نحب أن نقدم لك نموذجا ، لا من أقوال رجال الدين ، بل من أقوال أقطاب العلم ، وزعماء السياسة ، وقواد الحرب ، في تلك الدول نفسها . فاستمع إلى قول روبرت ميلليكان Robert Millikan العالم الطبيعي الأميركي : « إن أهم أمر في الحياة هو الإيمان بحقيقة المعنويات وقيمة الأخلاق . ولقد كان زوال هذا الإيمان سببا للحرب العامة . وإذا لم نجتهد الآن لاكتسابه أو لتقويته فلن يبقى للعلم قيمة ، بل يصير العلم نكبة على البشرية ، » (١) ؛ وقول الدكتور ويلسون Le Président Wilson الرئيس الأسبق للولايات المتحدة بأمريكا : « وخلاصة المسألة أن حضارتنا إن لم تنقذ بالمعنويات ، فلن تستطيع المثابرة على البقاء بماديتها ؛ وأنها لا يمكن أن تنجو إلا إذا سرى الروح الديني في جميع مسامها . . . ذلك هو الأمر الذي يجب أن تتنافس فيه معابدنا ، ومنظلماتنا السياسية ، وأصحاب رموس أموالنا ؛ وكل فرد خائف من الله يحب لبلده ، » (٢) .

وقول المارشال بيتان Le Maréchal Philippe Pétain عاهل الدولة الفرنسية في خاتمة خطابه الذي أذاعه على أمته في يوم ٢٥ يونيو ١٩٤٠ عقب توقيع الهدنة التي التمسها من زعيم ألمانيا المنتصرة : « إنني أدعوكم أول

(١) كتاب (الدين والعلم) للشاعر أحمد عزت باشا ص ١٧٣ .

(٢) كتاب (الدين والعلم) للشاعر أحمد عزت باشا ص ١٧٣ .

كل شيء إلى نهوض أخلاقي ، (١) ؛ وقول المارشال مونتجومري Montgomery في خطبته أمام الجيش الثامن يوم ٤ مارس ١٩٥١ : « إن أهم عوامل الانتصار في الحرب هو العامل الأخلاقي ؛ ولا يمكن لقائد أن يدفع جنوده إلى بذل أقصى جهودهم في العمل إلا إذا كانت ضمائرهم مرتاحة إلى ما يعملونه . ويقىني أن الجيش إذا سار على غير مرضاة الله سار على غير هدى ... إن خطر الانحطاط الخلقى في أفراد الجيش أعظم من خطر العدو . ولذلك لا نستطيع أن نتصر في معركة إلا إذا انتصرنا على أنفسنا قبل كل شيء ، (٢) .

إن الخدمة الجليلة التي تؤديها الأديان للجماعة لا تقف عند هذا الحد . فليست كل مهمتها أنها المبعث القوي لتهديب السلوك ، وتصحيح المعاملة ، وتطبيق قواعد العدل ، ومقاومة الفوضى والفساد ؛ بل إن لها وظيفة إيجابية أعمق أثراً في كيان الجماعة . ذلك أنها تربط بين قلوب معتنقيها برباط من المحبة والتراحم ، لا يعدله رباط آخر من الجنس ، أو اللغة ، أو الجوار ، أو المصالح المشتركة . بل إن هذه العلائق مجتمعة ، مهما يكن أثرها الظاهري من كف الأذى وبذل المعروف المتبادل ، تظل روابط سطحية تضم الأفراد كما تضم الأعواد في ضغث ، ولا تزال تتخللها الفجوات والشغرات والحواجز النفسية ... حتى تشدها رابطة الأخوة في العقيدة ، والمشاركة في المثل العليا ؛ فهناك تعود الكثرة وحدة ، وتصبح النفوس كالمرآيا المتقابلة ، تنعكس صور بعضها في بعض . بل كثيراً ما تستغني هذه الوحدة الروحية عن سائر الوحدات الأخرى ، فتنعقد بها أقوى الوشائج وأدومها بين أفراد اختلفت أجناسهم ، وتباينت لهجاتهم ، وتباعدت ديارهم ،

(١) عن الصحف الفرنسية في ٢٦ يونيو ١٩٤٠ .

(٢) عن الصحف المصرية في ٥ مارس ١٩٥١ .

وتفاوتت مصالحهم . وكثيراً ما نرى الدول التي تقوم على قاعدة المصالح المشتركة في الوطن بين ملل مختلفة تضطر إلى الاستنجاد بما في هذه الأديان كلها من مبدأ التعاون على الخير ، والتناصر على دفع عدوان المغيرين . ولذلك قيل بحق : — إن الوطنية التي لا تعتمد على باعثة من الخلق والدين إنما هي حصن متداع يوشك أن ينهار .

وجملة القول أن الأديان تحل من اجتماعات محل القلب من الجسد ، وأن الذي يؤرخ الديانات كأنما يؤرخ حياة الشعوب ، وأطوار المدينيات .

بجاء الرابع

في

نشأة العقيدة الإلهية

—————

البحث الرابع

في

نشأة العقيدة الإلهية

الجزء الأول: إلهيات

البحث الرابع

في

نشأة العقيدة الإلهية

أثر في البحث الرابع في أصول العقيدة الإلهية في أصولها إلى مبادئ
 من تكملة في يداه . . . ونبادر الآن
 فنكره أن هذين القولين من ههنا كما أنها تتهاون في العقائد الدينية
 عقيدة التوحيد والتعدد . . . وأن من غيرك والرقية والنقاء إنما هي وليدة
 حروف من اللغة أو لا . . . لا يستطيع أن ينع غيره شيئاً لا يملكه
 أي قانون الشيء فيقرر أن شيئاً من | من الممكنات | لا يحدث
 بغيره من غير شئ . . . لأنه لا يحمل في طبيعته السبب الكافي لوجوده .
 « ولا يستقل بإحداث شئ . . . لأنه لا يستطيع أن ينع غيره شيئاً لا يملكه

(١) الصبح للعبود عز أن شيئاً لا يحدث من لا شيء . . . وقد أتينا على : ١٠ من
 تلكات . . . فحقيقاً فيقول المفسر الذي يظن به هذا القول . . . وقد أيقظنا الذي يجر من
 أشبهه في كلامه . . . بلغة أن الأمور لا الضرورية الوجود . . . ككقول الكواكب من
 جزء . . . وكقول القس . . . وأن من الواحد إلى الواحد يتألف منه اثنين . . . وهم الصفر
 في الصفر لا يخرج منه عند زواجر . . . بل غير ذلك من أشكال قانون العينية . . . يحمل في طبيعة
 غير ما يوجب وجودها . . . فمن ضرورة نفسها لا يوجد . . . والأمور والتشعيب . . .
 كقول الجزء أو كقول القس . . . وكقول القس . . . أو حين يوجب . . . إلى أشياء ذلك من
 أشكال قانون التاكس . . . يحمل في نفسها سبب عدمها . . . فلا يحمل الوجود بنفسها ولا غيرها .
 أن . . . تلكات . . . التي تحمل الوجود والتدور . . . ولا تحمل شيئاً واحداً شيئاً . . . بل وجودها إنما
 يرد إليها من سبب خارج عنها كما لا بد في وجودت نفسها تلكات وأية الوجود . . .

خاتمة البحث

عن المال الشعرا

في

تبدأ بالاميقا العاشرا

البحث الرابع

في

نشأة العقيدة الإلهية

العوامل الأولى لإيقاظها في النفوس

أشرنا في البحث السابق إلى أن ظاهرة التدين تستند في أصلها إلى مبدئين مرتكزين في بدهة العقول ، وهما قانونا ، السببية والغائية ، . ونبادر الآن فنكرّر أن هذين القانونين متى فهما على كمالها اتبها إلى أسمى العقائد الدينية : عقيدتي التوحيد والخلود ؛ وأن عقائد الشرك والوثنية والفناء إنما هي وليدة ضرب من الغفلة أو الكسل العقلي يقف بها في بعض الطريق .

أما قانون السببية فيقرر أن شيئاً من [من الممكنات] (١) ، لا يحدث بنفسه من غير شيء ، ؛ لأنه لا يحمل في طبيعته السبب الكافي لوجوده ، ولا يستقل بإحداث شيء ، ؛ لأنه لا يستطيع أن يمنح غيره شيئاً لا يملكه

(١) التعبير المشهور هو أن شيئاً لا يحدث من لا شيء . وقد أضفنا عبارة : « من الممكنات » تحديداً للمجال الحقيقي الذي يطبق فيه هذا المبدأ ، ودفعاً للخطأ الذي ينجم من أخذه على إطلاقه . ذلك أن الأمور « الضرورية الوجود » — ككون الكل أكبر من جزئه ، وكون الشيء عين نفسه ، وأن ضم الواحد إلى الواحد ينشأ عنه اثنان ، وضم الصفر إلى الصفر لا يخرج منه عدد إيجابي ، إلى غير ذلك من أحكام قانون العينية — تحمل في طبيعة مفهومها سبب وجودها . فهي موجودة بنفسها لا بسبب خارجي . والأمور « المستحيلة » — ككون الجزء أكبر من كله ، وكون الشيء غير نفسه ، أو عين غيره ؛ إلى أشباه ذلك من أحكام قانون التناقض — تحمل في نفسها سبب عدمها ؛ فلا تقبل الوجود بنفسها ولا بغيرها . أما « الممكنات » التي تقبل الوجود والعدم ولا تقتضي طبيعتها واحداً منها ، فإن وجودها إنما يرد إليها من سبب خارج عنها حتماً ؛ إذ لو وجدت بنفسها لسكانت واجبة الوجود ، وهو خلاف المفروض .

هو ؛ كما أن الصفر لا يمكن أن يتولد عنه عدد إيجابي . فلا بد له في وجوده وفي تأثيره من سبب خارجي . وهذا السبب الخارجي إن لم يكن موجوداً بنفسه احتاج إلى غيره . فلا مفر من الانتهاء إلى سبب ضروري الوجود يكون هو سبب الأسباب .

وأما قانون الغائية فمن موجهه أن كل نظام مركب متناسق مستقر لا يمكن أن يحدث عن غير قصد ؛ وأن كل قصد لا بد أن يهدف إلى غاية ؛ وأن هذه الغاية ، إذا لم تحقق إلا مطلباً جزئياً إضافياً منقطعاً ، تشوفت النفس من ورائها إلى غاية أخرى . . . حتى تنتهي إلى غاية كلية ثابتة هي غاية الغايات . نعم إن طاقة البشر ، وطبيعة المخلوق ، أعجز من أن تحصى مراحل الأسباب والغايات مرحلة مرحلة ، وتتابع سلسلتها حلقة حلقة ، حتى تشهد بداية العالم ونهايته . ولذلك ينسب العلوم التجريبية من معرفة أصول الأشياء وغاياتها الأخيرة ، وأعلنت عدولها عن هذه المحاولة ؛ وكان قصارها أن تخطو خطوات معدودة إلى الأمام أو إلى الوراء ، تاركة ما بعد ذلك إلى ساحة الغيب التي يستوى في الوقوف دونها العلماء والجهلاء .

ولكن هذا اليأس الإنساني من معرفة أطوار الكائنات تفصيلاً في ماضيها ومستقبلها ، يقابله يقين إجمالي ينطوي كل عقل على الاعتراف به طوعاً أو كرهاً ، وهو أنه مهما طالت سلسلة الأسباب الممكنة والغايات الجزئية ، وسواء أفرضت متناهية أم غير متناهية ، فإنه لا بد لتفسيرها وفهمها ومعقولية وجودها من إثبات شيء آخر يحمل في نفسه سبب وجوده وبقائه ، بحيث يكون هو الأول الحقيقي الذي ليس قبله شيء ، والغاية الحقيقية التي ليس بعدها شيء ؛ وإلا لبقيت كل هذه الممكنات في طي الكتمان والعدم ، (إن لم يكن لها مبدأ ذو وجود مستقل) ؛ أو لبقيت لغزاً وعبثاً غير معقول ، (إن لم تكن لها غاية تامة تنقطع بها لجانة النفس ويستقر مضطربها) .

نقول إن وجود هذه الحقيقة الأولى والأخيرة ضرورة عقلية لا مناص

من التسليم بها ، ولا مجال لأحد أن يكابر فيها متى فكر قليلا في الوضع الذي
يؤول إليه إنكارها . اللهم إلا إذا فرضناه كائناً أخرج ، لا يذعن لقواعد
المنطق والحساب ، ولا يبالي أن يبطل كل شيء في الأذهان .

فإذا سألنا هنا عن نشأة العقيدة الإلهية ، فليس سؤالنا عن منشأ هذه
الضرورة الكامنة في العقل الباطن ، والتي هي من الأوليات التي لا يسأل عن
مصدرها . وإنما السؤال عن العوامل والملازمات التي تكون قد رفعت هذه
الحقيقة إلى مستوى الوعي المتيقظ ، ثم لم تكف بإبرازها أمام العقل قضية
نظرية ، بل حولتها إلى فكرة حية ملهبة للشاعر ، وطبعت موضوعها
بطابع خاص يجعله ذاتاً علوية تتوجه إليها القلوب بالرغبة والرغبة ، والدعاء
والخضوع .

جمهور الباحثين في هذه المسألة لا يطلبون من بحثهم الوقوف على
الأسباب العامة التي تيسر دراستها ويمكن التحقق من وجودها في كل عصر ،
والتي يعقل أنها هي التي أيقظت ولا تزال توقظ الحاسة الدينية في الإنسان ؛
بل يفهمون من كلمة « نشأة الدين » الصورة التي ظهرت فيها الأديان أول
ما ظهرت في الوجود . فالأولية التي يريدون تقريرها ليس أولية في الترتيب
المنطقي فحسب (كتقدم المقدمات على النتائج) ؛ وليست أولية تاريخية نسبية
(أعني بالإضافة إلى العصور المعروفة) بل هي أولية زمانية مطلقة ، تقترن
بظهور الإنسان على هذا الكوكب .

والمنهج الذي يسلكونه للوصول إلى هذا المطلب هو التنقيب عن أديان
الأمم القديمة ، أو أديان الأمم المعاصرة غير المتحضرة ؛ حتى إذا ما انتهى
بهم السير في تلك العصور المظلمة ، أو تلك الأقطار المنعزلة ، إلى أقدم مظهر
معروف من مظاهر التفكير الديني ، اعتبروه صورة مطابقة لما كان عليه
الإنسان الأول .

ولما كانت المرحلة النهائية في نظر باحث معين لا تنطبق دائماً على المرحلة الأخيرة التي يصل إليها باحث آخر ، انقسم الباحثون في الموضوع إلى شعبتين عظيمتين ، تسييران في خطين متعاكسين :

« ففريق منهم ، يذهب إلى أن الدين بدأ في صورة الخرافة والوثنية ، وأن الإنسان أخذ يترقى في دينه على مدى الأجيال حتى وصل إلى الكمال فيه بالتوحيد ؛ كما تدرج نحو الكمال في علومه وصناعاته . حتى زعم بعضهم أن عقيدة « الإله الأحد ، عقيدة جد حديثة ، وأنها وليدة عقلية خاصة بالجنس السامي .

هذه النظرية نادى بها أنصار مذهب « التطور التقدمي ، أو التصاعدي ، Evolutionnisme progressiste ou ascendent ، الذي ساد في أوروبا في القرن التاسع عشر ، في أكثر من فرع من فروع العلوم ، وحاول تطبيقه على تاريخ الأديان عدد من العلماء منهم سبنسر Spencer ، وتيلور Tylor ، وفريزر Frazer ، ودوركايم Durkheim ، وغيرهم ، وإن اختلفت وجهات نظرهم في تحديد صورة العبادة الأولى وموضوعها .

« وفريق آخر ، يقرر بالطرق العلمية بطلان هذا المذهب ، ويثبت بالعكس أن عقيدة الخالق الأكبر هي أقدم ديانة ظهرت في البشر ؛ مستدلاً بأنها لم تنفك عنها أمة من الأمم في القديم والحديث . فتكون الوثنيات إن هي إلا أعراض طارئة ، أو أمراض متطفلة ، بجانب هذه العقيدة العالمية الخالدة .

وهذه هي نظرية « فطرية التوحيد وأصالته ، التي انتصر لها جمهور من علماء الأجناس ، وعلماء الإنسان ، وعلماء النفس . ومن أشهر مشاهيرهم لانج Lang الذي أثبت وجود عقيدة « الإله الأعلى ، عند القبائل الهمجية في أستراليا ، وإفريقيا ، وأمريكا . ومنهم شريدر Schroeder الذي أثبتتها عند الأجناس الآرية القديمة ؛ وبروكلمان Brockelman الذي وجدها عند الساميين قبل الإسلام ؛ ولرواه Le Roy وكاترفاج Quatrefages عند أقزام

أواسط إفريقيا ؛ وشميدت Schmidt عند الأقرام وعند سكان أستراليا الجنوبية الشرقية . وقد انتهى بحث شميدت هذا إلى أن فكرة « الإله الأعظم ، توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس الإنسانية^(١) » .

غير أنه مهما تفاوتت النتائج في نظر المذهبيين : « التطوري والفظري » فإنهما متفقان على موضوع البحث ، وهو تحديد صورة العقيدة « البدائية » الحقيقية ، وعلى مناجهه ، وهو دراسة الشعوب المتأخرة والأمم الغابرة .

ونحن نرى أن وضع المسألة على هذا الوجه ، ومحاولة حلها من هذا الطريق ، ينطوي على خطأ مزدوج : خطأ في الغاية ، وخطأ في الوسيلة .

أما من حيث الغاية التي يهدف إليها البحث ، وهي تحديد الأصل الأصيل للعقيدة ، والمظهر الذي ظهرت به في أول الأزمنة بإطلاق ، فلأن هذه المنطقة « البدائية المحضة » قد اعتبرها العلم شقة حراماً حظرها على نفسه ، وأعلن في صراحة كاملة خروجها عن حدود عمله . فاقترحها الآن باسم العلم تعامل بصك مزيف ، وتستر بثوب مستعار . وكل حكم يصدر تحت هذا الاسم يكون صادراً عن قاض معزول ، فاقداً للركن الأول من سلطته الشرعية . ومؤرخو الديانات على الخصوص معترفون بأن الآثار الخاصة بديانة العصر الحجري وما قبله لا تزال مجهولة لنا جهلاً تاماً ؛ فلا سبيل للخوض فيها إلا بضرب من التكهن والرجم بالغيب .

وأما من حيث المنهج وهو الاستدلال على ديانة الإنسانية الأولى بديانة الأمم المنعزلة المتخلفة عن ركب المدنية ، فلأنه مبني على افتراض أن هذه الأمم كانت منذ بدايتها على الحالة التي وصل إليها بحثنا ، وأنها لم تمر بها أدوار متقلبة . وهو افتراض لم يبق عليه دليل ؛ بل الذي أثبتته التاريخ واتفق عليه المنقبون عن آثار القرون الماضية ، هو أن فترات الركود والتقهقر التي سبقت مدنياتها الحاضرة كانت مسبقة بمدنيات مزدهرة ، وأن هذه

Schmidt, ouv. cité, p. 30.

(١)

المدنيات قامت بدورها على أنقاض مدنيات بائدة ، قريبة أو بعيدة ؛ في أدوار تتعاقب على البشرية ، كما تتعاقب الفصول السنوية على الطبيعة ... بحيث يصبح من العسير أن نحكم بصفة قاطعة بأيهما بدأت دورة الزمان . وليس تعيين أحد الأمرين للابتداء الحقيقي بأثبت تاريخياً من مقابله . فكذلك نقول في شأن العقائد الدينية : إنه من الممكن أن تكون الخرافات القديمة بداية ديانات ؛ كما يمكن أن تكون نتيجة تحلل وتحريف لديانة صحيحة سابقة مزقت أهلها الحروب ، أو أفسدتهم الآفات الاجتماعية ، فقلت عنايتهم بأصول دينهم ، وتلقوا بالتسليم والقبول كل ما سمعوه من أفواه الأدعياء والدجالين ، وشاعت بينهم هذه الروايات وتوارثوها حتى أصبحت سنناً مقدسة . ولقد أنصف العلامة هوفدنج Höfding حين قال : « إنه يبعد كل البعد أن ينجح تاريخ الأديان في حل مشكلة بزوغ الدين في النوع الإنساني ... فإن التاريخ لا يصور لنا هذه البداية الأولى في موضع ما ؛ وكل ما نجده إنما هو سلسلة من صور مختلفة لديانات متقدمة قليلاً أو كثيراً ... » ، « حتى إن أحط القبائل الهمجية التي نعرفها قد مرت بأدوار شتى ، وتطورت تطوراً بعيداً ،^(١) .

فقد بان لك مبلغ ثبات الفرض الذي بنيت عليه البحوث الحديثة كلها ، وأنها أسست على جرف هار لا تظمن عليه الأقدام .

ويمتاز المذهب التطوري بأنه مبني على افتراض آخر لم يقم عليه دليل كذلك ، وهو قياس الملكات والأحاسيس الروحية ، على القوى البدنية والمكتسبات العقلية والتجريبية : فكما أن الإنسان ينتقل في نموه البدني من الضعف إلى القوة ، وفي نموه العقلي من الجهالة إلى المعرفة ، قد يلوح أيضاً أنه بدأ حياته الروحية بالسخف والخرافة ، ولم يصل إلى العقيدة السليمة إلا بعد جهد وعناء .

ونحن نسأل قبل كل شيء عن الأصل الذي بني عليه هذا القياس :

هل صحيح أن قوى النفس المختلفة تسير في نموها على قدم المساواة ، وأن حياة الناس الروحية تمشي في كل أدوارها جنباً إلى جنب مع حياتهم المادية ؟ أو لسنا نرى هاتين الظاهرتين تسيران أمامنا في طريقين متعارضين ؟ فإذا صح ما يقال من أن الإنسان كان في بدايته قانعاً بكهف يؤويه ، وجلد حيوان يستر به بشرته ، وشيء من الأعشاب يدفع مخضته ، ألا تكون قلة مشاغله ومطامحه المادية قد تركت في نفسه فراغاً عميقاً للتأملات التي ترهف حاسته الدينية ، وتنمي مشاعره الروحية العليا ؟ كما أن اشتغال الناس في عصور المدنيات بترف الحياة الجثمانية ، يؤدي إلى عكس هذه النتيجة . ذلك أن الغرائز المتقابلة تضعف وتتقلص ، بقدر ما تنمو وتقوى أضدادها ، ككفتي الميزان : لا ترتفع إحداهما إلا انخفضت الأخرى .

على أن قليلاً من التأمل يهدينا إلى أن قياس الأديان على الفنون والصناعات إنما هو محاولة للجمع بين أمرين لا تؤلف بينهما حقيقة نوعية مشتركة ، بل تتباين طبائعهما ووسائلهما . فبينما حقائق العلوم ثروة واسعة ترحل النفس في طلبها واكتسابها ، ويتطلب اقتناؤها وتنميتها علاجاً ومثابرة ، واستعانة بأدوات منفصلة في غالب الأمر ، حقيقة الدين توجد عناصرها قارة بين الجوانح ، وتعرض دلائلها لائحة أمام الحس ، حتى إن التفاتة يسيرة لتكفي للظفر بها في حدس سريع ، كالبرق الخاطف . وليس إدراك هذه الحقيقة الكبرى محصول إدراكات لحقائق الكون ودقائقه الجزئية ، ولا هو أشق منها كما ظن^(١) ؛ بل إنه يتقدمها ويمهد لها ، في نظرة كلية تلم بها جملة ، قبل أن تفحص أجزاءها وتفصيلاتها . ولذلك يستوى العالم والجاهل في أصل هذا الإحساس : كل على قدر فهمه يجد في الكون ما يبهره ويستولي على مشاعره .

ولقد كان مقتضى الوضع السليم ، في تعرف ما كانت عليه بداية الأديان فيما قبل التاريخ ، أن نسترشد في مقارنتها — لا بسير الفنون والصنوعات —

(١) انظر أول صفحة من كتاب العقاد عن نشأة العقيدة الإلهية (الله) .

بل بسير الديانات المعروفة منذ طفولة التاريخ إلى اليوم . ألا وإننا نعرف بالاستقراء أن كل واحدة من هذه الديانات بدأت بعقيدة التوحيد النقية ، ثم خالطتها الشوائب والأباطيل على طول العهد . فالأشبه أن تكون هذه سنة التطور في الديانات كلها : أن بدايتها دائماً خير من نهايتها .

فإذا أئبنا إلا أن نقيس تطور الدين على تطور الفن ، كان من الحق علينا ألا نأخذ في هذه المقارنة بالمقاييس السطحية والنشابه اللفظي الأجوف ، بل ننظر إلى جوهر الأشياء وأعماقها ، وحينئذ ينقلب هذا القياس نفسه حجة في يد أنصار « الفطرية » . ذلك أن معنى « التطور » في الفنون — كما في كل كائن حي — هو أنها تبدأ في صورة ساذجة ، متحدة ، متجانسة ؛ ثم تنتقل تدريجياً إلى نوع من التكثر والتركب ، يزداد به تعقيداً كلما بعدت عن أصلها . وواضح أن تطبيق هذا القانون التطوري بمعناه العلمي الخيوي على العقيدة الإلهية يستوجب أنها سارت أيضاً من الوحدة إلى الكثرة ، ومن النقاوة والسهولة واليسر ، إلى التعقد بالإضافة الأسطورية ، والنزوات الخيالية ، التي لا ضابط لها من العقل السليم .

أما « التطور » بمعناه الأدبي ، وهو الترقى من النقص إلى الكمال ، فليس قانوناً عليماً ، ولا سنة طبيعية مطردة ، ولا يمكن تطبيقه بصفة آلية على التاريخ البشري ؛ وإنما هو إحدى القيم العليا التي تطمح إليها النفوس ، وتشرئب إليها الأعناق ، فتبلغها حيناً ، وتنحسر عنها أحياناً . نعم إن كل مصلح لا بد أن يكون مؤمناً بإمكان تحقيق هذه الغايات السامية ؛ إذ لولا الأمل في قابلية الأخلاق والعقائد للتحويل والرقى ، لبطل كل تشريع ، ولأصبح من العبث بذل أدنى مجهود للتقدم . ولكن شتان ما بين قابلية الترقى وبين تحققه بالفعل ، فهذا مطمح لا يناله إلا من أدى مهره من العزيمة الصادقة ، والمجاهدة المتواصلة . وتاريخ الإنسانية لا يسير في هذا الاتجاه على خط رأس مستقيم^(١) .

(١) نعم إن الناظر في الأديان السماوية الثلاثة يلاحظ بينها تطوراً فعلياً ، وتعدداً تدريجياً =

هكذا نرى أن التحليل النفسى ، وشواهد التاريخ ، والتطور الصحيح ، لا يقف شيء منها في صف الدفاع عن النظريات الموسومة بالتطورية ، والتي تجعل الخرافة والأسطورة هي بداية الأديان ؛ بل إنها بالعكس ، تميل إلى تأييد النظرية المقابلة . غير أن تأييدها لهذه النظرية الأخيرة لا يرفعها إلى صف الحقائق التاريخية المفروغ منها ؛ لأن هذه الدلائل كلها لا تقدم لنا ضماناً من المنطق ولا من الواقع تثبت به أن الحوادث كانت تسير بالفعل دائماً على وفق ما ألفناه من الأوضاع ، ولا على الوجه الذى كان ينبغي أن يكون .

بل ها هنا نظرية ثالثة يمكن الأخذ بها في المسألة . ونقررها أن الرشد والضلال في الفكرة الدينية ليستا ظاهرتين متعاقبتين فقط ، صعوداً أو انحداراً على مدى العصور ، بل هما ظاهرتان متعاصرتان ، موزعتان في كل أمة وجيل ، تبعاً لاختلاف الأفراد في درجات استقامة الحدس العقلى ، ونبل الحس الباطنى . فلا يخلو جيل ما من نفوس صافية تدرك الحقيقة نقية من شوائب الخرافة ؛ وأخرى دون ذلك . ولعل هذا الوصف هو أقرب الأوصاف تصويراً للواقع المعروف ؛ فقد اتفق المؤثوق بهم من مؤرخى الأديان كما أسلفنا على أن أشد الشعوب همجية ووثنية لم تنفك عن الاعتقاد بإله خالق هو رب الأرباب . لكن بين القدر الذى عرفناه من تاريخ البشرية وبين عصر نشأتها ، لا تزال الثغرة واسعة لم تسد ولن تسد ؛ إذ لم يقل أحد إن الوقائع المفقودة الوثائق يمكن إثباتها على وجه قاطع بمثل هذا الضرب من التخمين ، اعتماداً على مجرد حسن المقابلة وجمال التناسق

== محققاً . لكن هذا التقدم لا يبرز فيها بصفة مطردة من حيث هي حقيقة خارجية تطبيقية حسباً تدن بها أهلها ، كما كان يترجم لو صح المذهب التطورى ؛ بل في حقيقتها التزيلية من حيث طبيعة دعوتها ومناهج تشريعها . . وحتى من هذه الوجهة الأخيرة ليس هو تطوراً من الخطأ إلى الصواب كما تريد أن تصوره المذاهب التطورية للأديان ؛ وإنما هو تدرج تصاعدى في مراتب الوفاء والشمول والكمال . ولعلنا نؤاتينا الفرصة لعرض هذه المقارنة مقتبسة من النصوص المقدسة نفسها .

بينها وبين الوقائع المعروفة ، دون تثبت من تشابه الظروف والملابسات في طرفي القياس .

هكذا عجزت وسائل العلوم أن تقدم لنا بياناً شافياً يطمئن إليه القلب عن ديانة الإنسان الأول . أما من أحب أن يسترشد بنصوص الكتب السماوية ، فإنه سوف يجد فيها ما يشد أزر القائلين بأولية العقيدة الإلهية الصحيحة ، لا في الغريزة حسب : « فطرة الله التي فطر الناس عليها ، بل في التطور الزمني كذلك . فهذه النصوص تنادي بأن الناس بدم وحياتهم مستقيمين على الحق مؤتلفين عليه ، وأن الانحراف والاختلاف إنما جاء عرضاً طارئاً بعد ذلك : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ، ؛ وأن استمرار هذا الخلاف واتساع شقته إنما كان بتأثير الوراثة وتلقين كل جيل عقيدته للناشئين فيه : « كل مولود يولد على الفطرة ؛ فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، . وإلى ذلك كله فإن الكتب السماوية متفقة على أن الجماعة الإنسانية الأولى لم تترك وشأنها تستلهم غرائزها وحدها ، بغير مرشد ومذكر ؛ بل تعهدتها السماء بنور الوحي من أول يوم ، فكان أبو البشر هو أول الأفاضل الملهمين ، وأول المؤمنين الموحدين ، وأول المتضرعين الأوابين .

لكن الالتجاء إلى هذه النصوص اعتراف ضمنى بأن وسائل العلم البشري وحدها عاجزة عن أن تصل بنا من طريق يقيني إلى نقطة البدء الحقيقي للدين . والواقع أن الحل النهائي لهذه المسألة إنما يكون عن طريق الوحي ؛ لأنها داخلية في منطقة الغيب التي هي موضوع الإيمان ، وليست من شأن العلوم الاستقرائية ، ولا العلوم الاستنتاجية .

وجملة القول أن كل النظريات التي حاولت تحديد ديانة الإنسان الأول بالتطبيق على ديانات القرون الماضية ، أو الأمم الهمجية ، فصورتها لنا تارة سليمة ، وتارة سقيمة ، وتارة ملفقة ، إنما هي افتراضات مبنية على افتراضات . فهي لا تصف الحق الثابت le vrai ، الذي هو مطلب العلم الصحيح ،

وإنما تعرض احتمالات تشبه الحق قليلا أو كثيرا - vraisem- blables) (+ ou -

فإذا نحن عرضنا الآن شيئا من هذه النظريات ، فليكن معلوما أننا لن نتابعها في تلك الدعوى العريضة ، وهي أنها ترسم الصورة الأولى المطلقة للحياة الدينية ، بل سنقتنع منها بالجانب التحليلي ، أو الجانب التاريخي النسبي ، لا أكثر من ذلك .

المذاهب الكونية أو الطبيعية

١ - الطبيعة العادية :

يرى فريق من العلماء أن العامل الأول في إثارة الفكرة الدينية كان هو النظر في مشاهد الطبيعة ، ولا سيما الأفلاك والعناصر . ذلك أن التأمل في هذا المجال غير المتناهي يجعل الإنسان يشعر بأنه محوط من كل جانب بقوة ساحقة غلابة ، قوة مستقلة عن إرادة البشر ، يخضع الجميع لتأثيرها ، ولا قدرة لهم على تحويل سيرها أو تعديل نظامها ؛ فيجتمع له من ذلك شعور مؤلف من دهشة وإعجاب ، يرى به الكون أشبه شيء بالمعجزة ، وفي الحق هو أكبر المعجزات ؛ فإنه لا شيء أقل طبيعية من الطبيعة نفسها .

أشهر مقرر هذه النظرية هو العالم الألماني ماكس ميلر Max Müller في كتابه عن الأساطير المقارنة Comparative Mythology وهو لا يدينها على هذا الاعتبار النفسى وحده ، بل يستند فيها إلى وثائق لغوية ، استمدتها من دراساته المقارنة للأساطير والتماثيل القديمة ، وعلى الأخص من دراسة الفيدا les Vedas (كتب الديانة البراهمية) ؛ حيث وجد أن أسماء الآلهة فيها هي في الغالب أسماء لتلك القوى الطبيعية العظيمة ، كالسماء ، والنار ، ونحوهما ؛ وأن هذه الأسماء بعينها تشابه حروفها في سائر اللغات المسماة بالهندية الأوربية . فخلص من ذلك إلى أنه ، قبل تشعب الشعوب الإنسانية

وخروجها من موطنها الأول ، كانت هناك لغة واحدة . تعبر عن هذا التقديس العام لقوى الطبيعة الكبرى . فتكون إذاً هي الفكرة الأولى قبل ظهور الحضارات .

غير أنه لما كانت الديانة بمعناها الحقيقي لا توجد إلا حيث يوجد اعتقاد بكائنات حية عاقلة ، فعالة ، يتوجه إليها بالعبادة ، لزم السؤال عن سبب هذا التطور الفكري : من النظر في مشاهد الطبيعة ، إلى التفكير في تلك الكائنات الروحية .

يجيب ما كس ميلر بأن هذا من أثر اللغات نفسها ؛ لأنها في العادة تنسب لكل ظاهرة فعلا يشبه أفعال الإنسان ، فنحن نقول إن النهر «يجرى» ، والشمس «تطلع» ، والهواء «يثن أو يزجر» ، والنار «تشبق أو تزفر» ، إلى غير ذلك . فهذه التعبيرات التي كانت في أصلها تعبيرات مجازية تشبيهية ، طال بها الأمد حتى أخذت على حقيقتها ؛ فصارت هذه العناصر نفسها تأخذ في الأذهان صورة الكائنات الحية المفكرة ، ومن هنا نشأت عادة تمثيل الأفلاك والعناصر في رموز مجسمة على صورة الحيوان أو الإنسان ، ولعب الخيال في ذلك دوراً هاماً : فكان تارة يرمز إلى الشيء الواحد بتماثيل مختلفة ، على عدد ما له من أسماء ؛ وتارة يرمز إلى الأشياء المتعددة التي يجمعها اسم مشترك باعتبارها حقيقة واحدة تتحول من نوع إلى نوع ؛ وهكذا .

هل نحن بحاجة إلى تذكير القارئ بأن هذه المحاولة ، التي قد تنجح في تعليل الأساطير والمثُل ، لا تصلح تفسيراً للأديان ؟

لقد اعترف ميلر بأن العقلية التي تتصور العناصر بصورة الحيوان المفكر عقلية مريضة ، أوقعها الوهم والخيال في حباته حتى وصل بها إلى درجة الخبل والهذيان .

ونزيد نحن أنها في الوقت نفسه ليست عقلية دينية ، كما يعلم مما أسلفناه في تحديد معنى الدين ، وأنه اعتقاد في «روح» مستقلة تسيطر على الطبيعة ، لا في «نفس» محصورة في الطبيعة ، مسارة لها .

فالصواب في تفسير هذه النقلة الفكرية ، من المادة إلى الروح ، أنه انتقال من الكائن إلى المكوّن ، وهو انتقال معنوي طبيعي من غير حاجة إلى توسط اللغات . فكما أن الناظر في جمال أثر فني لا يقدر أن يمنع نفسه من التفكير في ذوق الفنان ؛ والناظر في دقة الآلة المركبة ينتقل فكره تَوّاً إلى مهارة المهندس ؛ كذلك التأمل في عظمة البدائع الكونية ينساق بطبيعتها إلى التفكير في عظمة القوة العاقلة التي تدبرها . وإذا كانت تلك النظرة الأسطورية (التي تستنطق الجحاد وتعتقد أن في جوفه روحاً عاقلة) ليست عقلية ولا دينية ، فهذه النظرة الاستنتاجية ، على عكس ذلك ، دينية منطقية معاً . ذلك أن العقل الإنساني لا يكاد يتصور أن جمادات لا روح فيها ولا شعور يمكن أن تتحرك بنفسها وتنقل في أوضاع منظمة ، بين أجرام أخرى متحركة بحركات منظمة مباينة لها ، على أبعاد محددة ، وبطريقة مؤدية إلى غايات معقولة ، من غير أن تكون مدفوعة ، مباشرة أو من طريق غير مباشر ، بشيء ذي إرادة وشعور ، يحركها وينقلها في تلك الأوضاع ، على حساب ثابت دقيق .

قدر في ذهنك بيتاً منسق البنيان ، فاخر الأثاث والرياش ، قائماً على جبل مرتفع ، تكتنفه غابة كثيفة ... وقدر أن رجلاً جاء إلى هذا البيت ، فلم يجد فيه ولا حوله دياراً ولا نافخ نار ... فحدثته نفسه بأنه عسى أن تكون صخور الجبل قد تنائر بعضها ، ثم تجمع ما تنائر منها ليأخذ شكل هذا القصر البديع ، بما فيه من مخادع ومقاصير ، وأبهاء ومرافق ؛ وأن تكون أشجار الغابة قد تشققت بنفسها ألواحاً ، وتركبت أبواباً وسوراً ، ومقاعد ومناضد ، ثم أخذ كل منها مكانه فيه ، وأن تكون خيوط النبات ، وأصواف الحيوان وأوباره ، قد تحولت بنفسها أنسجة موشاة ، ثم تقطعت طنافس ، ووثائر ، وزرابي ، فانبثت في حجراته ، واستقرت على أرائكه ؛ وأن المصايح جعلت تهوى إليه بنفسها من كل مكان ، فنشبت في سقفه زرافات ووحداناً ... ألسنت تحكم بأن هذا حلم نائم ، أو حديث خرافة ، قد

أصيب صاحبه باختلاط في عقله ؟ فما ظنك بقصر... السماء سقفه ،
والأرض قراره ، والجبال أعمده . والنبات زينته ، والشمس والقمر
والنجوم مصايحه ؟ أيكون في حكم العقل أهون شأناً من ذلك البيت
الصغير ؟ أو لا يكون أحق بلفت النظر إلى باريء مصور ، حتى قيوم ،
خلق فسوى ، وقدر فهوى ؟

وإذا كان الإعجاب بالآثر الفني البارِع ، يحمل الإنسان بفطرته على
النسأول عن الفنان الذي أبدعه ، ويحفزه إلى التوجه بفكرته إليه ، سواء
أعرف شخصه أم لم يعرفه ، ليعبر له عن هذا الشعور والتقدير ، أليس
الإعجاب ببذائع الملكوت أحق بأن يتحول إلى مناجاة مبدعه ، والإنضاء
إليه بعبارات التبجيل العميق ، والتقدّيس البليغ ؟ وهل العبادة في جوهرها
ولها الا ذلك ؟

ألا وإنك لو أخذت تحلل هذه المناجاة الخاضعة ، لوجدتها تنطوي
بالضرورة على عنصرين جوهريين : فهي تفترض (أولاً) أن الشيء الذي
توجه إليه أهل لأن يستقبل حديث من يناجيه ، وتفترض (ثانياً) أنه أسمى
مقاماً وأكمل صفة من الإنسان ؛ لأنه يستطيع ما لا يستطيع الإنسان .
فلا يمكن والحالة هذه أن يكون مادة صماء عمياء ، لا تحسك ولا تراك ،
ولا تسمع نجواك ؛ وإلا لكان المعبود محروماً من مزايا الحياة والعقل
والشعور التي يتمتع بها عابده ، وهو قول متناقض يهدم نفسه .

هكذا تتولد العقيدة الإلهية ، والحركة العبادية ، من تزاوج مبدئين
نفسيين : أحدهما غريزة عقلية ، وهي غريزة التطلع لفهم الطبيعة ، والثاني
حاسة وجدانية ، وهي حاسة التذوق الفني لما في الطبيعة من جمال وجلال .
وإن مما يؤيد القول بأن فكرة التأليه وليدة هذه النظرة في الطبيعة ،
أن الارتباط بين هذا الإحساس الكوني ، وهذا الإحساس الديني ، تثبتته
التجارب النفسية المتكررة في كل الأمم وفي كل العصور . تبارك الذي
بيده الملك وهو على كل شيء قدير... الذي خلق سبع سموات طباقاً ،

ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت . فارجع البصر : هل ترى من فطور؟ ثم ارجع البصر كرتين ، ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير . ولذلك لا يزال هذا التفسير من أصح التفاسير وأقواها ، على الرغم مما وجه إليه من اعتراضات .

الاعتراضات على هذه النظرية :

استبعد بعض الناقدین أن يكون النظر في صحيفة الكون سبباً في إيقاظ هذا الشعور الديني العميق ؛ فقال : إن استمرارها على نسق واحد يجعلها أمراً مألوفاً ، لا يلفت النظر ، ولا يحتاج إلى تعليل . وعلى فرض أنها تبعث الدهشة والخشوع في نفوس المفكرين ، فليس لها هذا الأثر في تلك العقول الساذجة^(١) التي تزعم أنها قادرة على تغيير قوانين الطبيعة ، وأنها تستطيع — بوسائل خاصة — أن تستثير الرياح ، وتستنزّل الأمطار ، الخ . ويضيف هذا الناقد أن العقيدة الدينية نفسها تقرر هذا المعنى في عقول أهلها ، حيث تعلمهم أن « قوة الإيمان تزحزح الجبال » . وهكذا تكون العقيدة مستمدة من روح العظمة والقدرة في مواجهة الطبيعة ، لا من روح الضعف والخضوع

(١) هنا يحسن التنبيه إلى أن أكثر الباحثين يقررون الفرق بين العقول المستنيرة والجماعة على عكس هذا الترتيب ؛ ويرون أن هذا الشعور الرهيب ، الذي يدعو إلى تعليل الظواهر الكونية بقوى سرية عظيمة تحدتها ، إنما يخاطب العقول القظرية التي لم تتمرس بالعلم الطبيعي وقوانينه . ولا شك أن تقرير الفرق على هذا النحو أقرب إلى الفهم من مقابله ؛ ولكنه لا يقل عنه خطاً ، إذ الواقع المشاهد هو أن العلم لا يضعف هذا الإحساس بل يزيده قوة . وناهيك بكلمتي الفيلسوفين : پاسكال Pascal وكانت Kant ، حيث يقول أولهما : « إن هذا الصمت الأبدى لذلك القضاء اللانهائي ليحذف في قلبي روعة ورهبة » *Le silence éternel des espaces infinis m'effraie* . ويقول الآخر : « شيئان يملآن قلبي إعجاباً وإكباراً يتجددان وينموان كلما أعمت فيهما تأملتي : السماء المزودة بالنجوم من فوق ، وقانون الأخلاق في ضميري » :

« Deux choses remplissent le cœur d'une admiration et d'une vénération toujours nouvelles et toujours croissantes, à mesure que la réflexion s'y attache et s'y applique : le ciel étoilé au-dessus de moi, et la loi morale en moi » .

أمامها (١) . قال : ولو كان باعث العقيدة هو الضعف أمام الطبيعة ، والتماس الطريق لاجتلاب خيرها ، واتقاء شرها ، لكانت الديانات كلها ضرباً من الخرافة ؛ لأنه ليس بالدعاء والصيام وتقديم القرابين ونحو ذلك يكون استدرار الأمطار ، وإجراء الأنهار ، واتقاء الحر والبرد ، والجوع والعري ، والفقر والمرض . وقد أثبتت التجربة فشل هذه الوسائل في غالب الأمر . ومن جهة أخرى لو كان مبعث العقيدة هو المشاهد الكونية ، وهدف العبادة هو استرحام الطبيعة ، لما استمر الإنسان على التدين ، بعد ما ظهر له أنه محاولة عابثة . وإذا أن الديانات لم تنقطع يوماً ما ، ولن تنقطع عن الجماعة الإنسانية ، فلا بد أن يكون لها منشأ وهدف آخران . على أننا إذا استطعنا تفسير عبادة القوى الطبيعية العليا بشعور الانبهار أمام مظاهرها ، فكيف نفسر عبادة الأحجار ، والأشجار ، والحشرات ، وتافة الأشياء التي لا توحى مثل هذا الشعور ؟ وأخيراً كيف نفسر بذلك ما في الأديان من الفصل التام بين الأمور المقدسة والأمور العادية ؟

هذه هي خلاصة النقد الذي وجهه دوركايم (٢) إلى نظرية التدرج من الشعور الكوني إلى الشعور الديني .

الجواب

إنه لا ينكر أحد أن الإلف والعادة يفلان من حدة الشعور ، وأن استمرار المحسات على نسق واحد يضعف باعثة التفكير في مصدرها . ذلك ما لا شك فيه . ولكن الظواهر الكونية مهما تشابه أدوارها المتقابلة لا تفتأ كل حركة منها تعرض على حواسنا صوراً متبدلة ، وألواناً طريفة : فتغير وجوه القمر ، واختلاف مواقع النجوم ، ومطالع الشمس ، ومناظر الفجر والشفق ، واختلاف الليل والنهار ، وتقلب الرياح والفصول والخصب

(١) قد أخذ هذا المعنى بعض الكتاب العصريين وتوسع فيه ؛ ولكنه ما لبث أن تقض آخر كلامه أوله ، انظر كلام العقاد في كتابه عن نشأة العقيدة الإلهية : (الله) ص ١٠ و١١ .

(٢) Durkheim, ouvr. cité, pp. 112-121.

والجذب ، كل أولئك يحمل تنبيهاً جديداً لمن ألقى سمعه وبصره . على أنه ليس المدعى أن كل أحد لا بد له أن يسأل نفسه عن منشأ هذه الظواهر ومغزاها ؟ ولكن المدعى أن كل من ألقى هذا السؤال على نفسه وتنبه إلى هذه الآثار رأى فيها آية عجيبة ، وأحسن أمامها بروعة وخشوع . والقول بأن « البدائيين ، قاصرون عن هذا الإدراك لأنهم يزعمون لأنفسهم القدرة على تسخير عناصر الطبيعة لأهوائهم قول مناقض للواقع إذا أخذ على عمومته في كل الأفراد والأحوال . فجمهور العامة أضعف من أن يظنوا ذلك بأنفسهم . والأفذاذ الذين يزاولون بعض وسائل السحر أو الكيمياء ، إذا ظفروا بتسخير شيء من القوى الدنيا لم يمنع ذلك خضوعهم واستسلامهم للقوانين العليا التي لا تمتد إليها يد مخلوق . فالله يأتي بالشمس من المشرق . فمن يأتي بها من المغرب ؟ وكل نفس ذائقة الموت ، فهل يستطيع بشر أن يكتب لنفسه الخلود ؟ وهل يتبهاً لأحد أن يفارق ظله ؟ أو أن يسترجع ماضيه ؟ أو أن يصنع ولده كما يشاء خلقاً وخلقاً ؟ بل أن يخلق حشرة أو ذبابة ؟

ولقد أسلفنا أن فكرة السحر مباينة تماماً لفكرة التدين في طبيعتها وفي موضوعها . فالشعور بالسلطان والقوة على تسخير الطبايع يمكن أن يكون شعور كيميائي أو ساحر ، ولا يمكن أن يكون شعور عابد لها ؛ لأن الإنسان لا يعبد شيئاً مسخراً له حين يسخره ، ولا يسخر شيئاً يزعم أنه يعبده حين يعبده .

والقول المأثور : « إن قوة الإيمان تزحزح الجبال ، لا يمكن أن يكون معناه أن الإيمان مبعثه القوة ؛ فإن فرقاً شاسعاً بين أن يكون الإيمان باعثاً للقوة ، وبين أن تكون القوة هي التي تبعثه . والالتباس بين الأمرين قلب واضح للأوضاع ؛ إذ يصور الآثار بصورة أسبابها ، ويضع النتائج موضع مقدماتها . وهكذا لا يلد التسرع والإكثار إلا أقوالاً ينقصها التحري والدقة في التعبير . ثم ما هذه القوة التي يبعثها الإيمان ؟ أليست هي قوة

الثقة والطائفة التي تجيء تعويضاً وعلاجاً لما نشعر به باديء ذي بدء من الضعف والحيرة الأصيلين في طبيعة الإنسان ، والذين هما مبعث الإيمان ؟ ثم من أين تستمد تلك القوة الجديدة المكتسبة من الإيمان ؟ أليس منبعها الاعتماد على القوة الروحية العليا التي يلجأ إليها المؤمن ؟ فهي إذن ليست قوته الذاتية البشرية . وأخيراً ليس لنا أن نخلط بين قوة الفهم والتأمل في الكون ، وبين القدرة على تصريف الكون ؛ فإن أقوى الناس فهماً ، وأوسعهم علماً بحقائق الكون هم أشدهم إحساساً بضعف الإنسان وضآلته في جنب هذا الصرح العالمي ، وبخضوعه وتبعيته للقوانين العليا التي لا يد له في تغييرها . وهذا الإحساس هو مبدأ الإيمان ، ومبعث التأليه والعبادة . وهنا نسأل عن مغزى هذه السلسلة المتلاحقة من الحركات النفسية ، التي تنتقل من النظر والتأمل . . . إلى الاستعظام والإكبار . . . إلى التوجه والمناجاة : هل يجب أن يكون لها هدف وراء ذلك ؟ ألسنت إذا وقفت أمام أثر فني بارع ، فلا صدرك ، واستبد يا عجبك ، تجد في نفسك باعثة قوية للتعبير لصاحب هذا الأثر عن شعور الإكبار لصنعه ، والاعتراف بعظمته ، كأن هذا دين في عنقك تؤديه ، لا تبغى منه جزاء ، ولا تقضى به وطراً ، غير الترجمة عن صدق شعورك وتقديرك لهذه الآية القيمة ؟ فما ظنك بأعظم الآثار وأبهرها ؟ ألا يستحكك على التوجه لصانعه بهذا التعظيم البليغ ، تسيحاً بحمده ، وتقديساً لجلاله ، بغير غرض ولا عوض ؟ فإذا شعرت بأنك أنت نفسك جزء من هذا الأثر العظيم ، وأنتك مدين بوجودك وفهمك وقوتك لهذا الصانع ، الذي خلقك وصورك ، وشق سمعك وبصرك ، ومنحك العقل والبيان ، ومكنك من الانتفاع بما في السماء والأرض ، ألسنت تقبل عليه بقلبك وجوارحك مقيداً بقيود إحسانه إليك ، معترفاً بعبوديتك له ؟ فهذه كلها غايات نبيلة تؤديها الأديان ، ولم تفشل فيها يوماً من الأيام . ومن ذا الذي قال إن الخشوع أمام روعة الكون ، والاتجاه بالتعظيم لصانعه ، وهو تلك الانبعاثة الكريمة التي تُعطى ولا

تطلب ، يمكن أن يفسر بذلك الشعور الضارع ، شعور الالتجاء لتحقيق مطلب من مطالب الحياة ، أو استدفاع ضرر من أضرارها ؟

لقد خلط الناقد هنا خطأً واضحاً بين نظريتين منفصلتين : نظرية الإعجاب التي نحن بصدددها ، ونظرية الرغبة والرغبة التي سنعرضها في الشبهة الثانية من المذاهب الطبيعية ؛ فاعترض على إحداهما بالنتائج المترتبة على الأخرى .

على أنه في الحالة التي يكون فيها الباعث على العبادة هو الشعور بتلك الحاجة ، والتي يتحول فيها معنى العبادة من التسبيح والتقديس إلى التماس الحماية — نقول إنه حتى في هذه الحالة — لا يجعل العابد من عبادته وسيلة يقينية للحصول على ما ربه ، كأنها عملية حسابية ، أو قياس منطقي ، أو تجربة مفروغ منها لا بد أن توثق ثمرتها ؛ لأن التدين ينطوي دائماً على اعتقاد أن القوة المتوجه إليها لا تصدر في تصرفاتها إلا عن مشيئتها المستقلة . ولذلك نلاحظ في توجهاته شعوراً مزدوجاً ، هو مزاج من الاستسلام والرضى بما يقع ، ومن الأمل والرجاء فيما يتوقع . وإذا كان اللاعب المغامر لا يعد نفسه فاشلاً لمجرد تكرار خسارته ، ولا ييأس من مؤاناة الحظ له بالربح في فرصة قريبة أو بعيدة ، فالمؤمن أحق بتنحية عوامل اليأس من حسابه ، وإرخاء جبل الأمل لنفسه إلى آمام بعيدة في حياته أو بعد مماته . بل المؤمن الصادق حين يلتجئ إلى ربه ، ويناجيه برغائبه ومخاوفه ، يجد في هذه التوسلات والدعوات نفسها شفاء وراحة هو عليهما أشد حرصاً منه على موضوع شكواه . وحسبه أنه في هذه الانبعاثة يعبر تعبيراً واعياً صادقاً ، بأقواله وأفعاله وأحواله ، عن مبلغ إدراكه للحقائق ، ومدى شعوره بالتفاوت بين ضعف المخلوق وقوة الخالق ، وأنه بذلك الإدراك وهذا التعبير يحقق المهمة العليا للإنسان في هذه الحياة . فسواء عليه بعد ذلك أن تصادف دعوته قبولا أو رداً ، فقد أصاب من قبل حاجته الكبرى بهذا الخضوع الذي هضم به كبرياء نفسه ، ووضع به كل شيء في موضعه ، وبهذه العبودية التي أتم بها تصفية روحه وإنضاج فطرته . وتلك هي قرّة عين

المؤمنين ، والهدف الأسمى للمتعبدين .
 يبقى الاعتراض بأنه لو كان منشأ التدين هو النظر إلى جمال الطبيعة
 وجلالها ، لكان يجب أن يوجه التقديس أول كل شئ إلى القوى الكونية
 العظمى : إلى الشمس ، والقمر ، والبحر ، والجبال ، والرياح ، وأشباه
 ذلك ؛ لا إلى محقرات الأمور من أنواع النبات والحيوان . والمفروض
 أن عبادة هذه أقدم من تلك فيما يزعم المعترض .

لقد أشرنا من قبل إلى أن البحوث التاريخية والتنقيبات الأثرية في هذه
 المسألة قد أدت إلى نتائج متعارضة ، لا يمكن الركون إلى واحدة منها بصفة
 نهائية ؛ وأن المرحلة التي ظن هذا المعترض أنها أقدم ما يمكن الوصول إليه
 قد جاوزها كثير من الباحثين ، واكتشف وراءها ظاهرة دينية مخالفة ؛
 وأنه لما كان من الممكن أن يكتشف العلم في المستقبل مرحلة أسبق من
 كليهما ، تكون ذات صيغة دينية مختلفة عنهما ، أصبح الاعتماد على التاريخ
 والآثار هنا اعتماداً على جرف هار ، عرضة للتغيير والتبديل دائماً ، كلما ظهر
 اكتشاف جديد . كما بينا أن حجج القائلين بأسبقية العقائد السليمة وأقدمية
 عبادة الخالق الأكبر ، وإن كانت لا تصل إلى درجة اليقين العلمي الاستقرائي
 إلا أنها من الوجهة النظرية أقوى من مقابلتها .

فإن كنت لا تزال على ذكر مما سبق في تحديد معنى الدين ، فسوف
 تأخذ على صيغة الاعتراض شيئاً آخر وهو إسنادها العبادة إلى الطبيعيات
 نفسها إسناداً فيه كثير من التجوز ؛ فقد قرر مؤرخو الأديان أن الماديات
 والحسيات ، علوية كانت أو سفلية ، لم تكن يوماً ما هي المقصودة بالعبادة
 الحقيقية ؛ وإنما كان تقديسها بطريق التبع والمجاورة : إما لأنها تعد مهبطاً
 ومزاراً لقوى خفية علوية ، وإما لأنها تعتبر رمزاً لتلك القوى ، أو تصويراً
 مجسماً لصفات وأفعالها . والعجب أن صاحب النقد نفسه قرر هذا المعنى في
 غير موضع من كتابه . فوقوف العابد أمام هذه المواد هو أشبه شئ
 بوقوف العشاق على ديار الأحبة أو على أطلالها ورسومها ، لا شغفاً

بالمكان ، ولكن شوقاً إلى السكان . وفي وسعنا أن نقول إن الالتفات إلى أنواع من مخلوقات الصغيرة ، باعتبارها مظهراً أو رمزاً لهذه القوة العلوية ، يتضمن الشعور بأثر تلك القوة في الجلائل بالأحرى . بل المعقول أن الاعتبار بالدقائق لا يظهر إلا في طور عقلي متأخر عن طور الالتفات إلى العظائم الكونية ، التي يحس بها كل ذى عينين . وهو على كل حال دليل على عمق في التأمل ، ودقة في الفهم لما في أجزاء الكون المختلفة من شأن عجيب وآيات باهرة ، وفي كل شيء له آية .

أما التفرقة بين « المقدس » ، و « غير المقدس » ، فإنها ، في هذه النظرية ، ترجع إلى التفرقة بين « الإلهي » ، و « الإنساني » ، أو بين العظيم الفائق العجيب ، وبين العادي المبذل المطروح . ذلك أنه ليس كل ما تقع عليه الحواس سواء في استدعاء الانتباه ، واستيقاف النظر ، وإحياء العبرة ، واختلاب الألباب . وليس كل الذي تراه أنت بارعاً باهراً أراه أنا كذلك ؛ فقد تمر بزهرة أو حشرة ، فترى فيها ما يستوقف نظرك ، وبأسر قلبك ؛ بينما غيرك لا يأبه لها ، ولا يستوحى منها أدنى عظمة روحية ، وهكذا تنقسم الكائنات في نظر الناس خاصتهم وعامتهم إلى ما هو عادي لا يؤبه له ، وما هو جليل يذكر بالمعاني الإلهية ، ويوحى فكرة « التقديس » ؛ أعنى أنه يبعث في النفس أبلغ معاني الخضوع وأعظم آيات التعظيم^(١) .

(١) كان (دوركايم) في تحديده لماهية الدين ينكر تعريف المقدس بمعنى المعظم حيث قال :
« إنه ليس بلازم أن يكون الشيء المقدس أشد قوة ولا أعلى مقاماً » .
« Le sacré » n'est pas nécessairement supérieur en dignité et en pouvoir.
Durkheim, Ouvr. cit. pp. 51-52.

ولم يعتبر هناك من التقديس إلا شطره العملي ، ولا من هذا الشطر إلا جانبه السلبي ، وهو الحجر والمنع وتحريم اللبس ؛ ولكنه رجع هنا فاعترف ضمناً بالمعنى الذي نجاه من قبل ، وقرر أن فكرة « العظمة » فكرة دينية في جوهرها :
« L'idée de majesté est essentiellement religieuse », Ibid, p. 87.

ونحن نرى أن التقديس بالمعنى العملي إنما يستمد سلطانه على النفوس من معناه النظري ؛ فإنه ليس كل منهي عنه يعد مقدساً ، وإنما المقدس من التهيئات هو ما كان مصدر النهي عنه قوة إلهية . ثم لا معنى لتقديس هذه المحرمات بعدم الاقتراب منها إلا الاعتقاد بأن هناك قوة =

لا لهذه الكائنات أنفسها ، ولكن لبارئها ومصورها .

٢ — الطبيعة الشاذة العنيفة :

يرى العالم الانجليزي جيفونس Jevons أن النظر في مشاهد الطبيعة كان على الجملة هو منشأ العقيدة الإلهية . ولكنه يقرر في كتابه « المدخل إلى تاريخ الديانات ، Introduction to the History of Religion أن الظواهر العادية لا تكفي في إيقاظ هذه الفكرة ؛ لأنها لتكرر عرضها على الحواس تألفها النفس ، فلا تحتاج إلى التماس تفسيرها . أما الحوادث الأرضية المفاجئة ، والعواض السماوية النادرة ، التي يضطرب بها النظام العادي ، كالبرق ، والرعد ، والعواصف ، والصواعق ، والخسوف ، والكسوف ، والظوفان ، والزلازل ، فإن تأثيرها على المشاعر كتأثير دق الجرس ، في تنبيه الغافل وإيقاظ الوجدان ؛ ذلك أنه قد ارتكز في الغرائز البشرية (والحيوانية أيضاً) استحالة أن يحدث شيء من لا شيء (حتى إن الطيور والدواب لتفزع عند سماع صوت مزعج ، وتلتفت إلى جهة الصوت شعوراً بأن له فاعلاً) . فكان من الطبيعي أن هذه الحوادث المفاجئة الرهيبة تزعج من يشهدها ، وتحفزه إلى السؤال عن مصدرها . وإذا كان لا يرى لها سبباً ظاهراً ، اضطرب عقلياً أن ينسبها إلى سبب خفي ذي قوة هائلة ؛ إذ لا يخرج للعقل من هذه القسمة الثنائية .

على أن جيفونس لا يرى مانعاً من أن يكون التأمل في الحوادث العادية والسنن الكونية المستمرة ، باعثاً أيضاً لهذا الشعور ؛ ولكنه يرى أن ذلك لا يكون إلا بنظرة ثانية ، عند هدوء البال ، ونضج الفكر ، وانزياح أسباب السهو والغفلة . وعلى هذا يكون شعور الرهبة والخشية أسبق أثراً في التدين من شعور الإعجاب .

لا حاجة بنا إلى التذكير بأن أكثر الأسئلة التي أثرت بصدد التفسير

== معنوية تحميها ، وتتم من انهماكها ، وتجعل لها سبباً من الحرمة احتراماً لأمر حاميتها .
فهذا الاحترام والتوقير هو حجر الزاوية في معنى التقديس .

الأول ، والأجوبة التي قدمت لحلها ، يمكن أن تسرى على هذا التفسير ؛ لأنهما فضيلتان من نوع واحد .
غير أن هذا التفسير ، وقد تفادى من الاعتراض الأول الذي وجه إلى تفسير « ميلر » ، قد تعرض لنقد وجيه ، أشار إليه ساباتييه (١) ؛ وهو أن شعور الرهبة والخرف من القوى العلوية لا يكفي وحده لتفسير الفكرة الدينية ، ولا بد له من شعور آخر يوازنه ويلطف من حدته . ذلك أن الخوف إذا استأثر بالنفس سحق الإرادة ، وشل الحركة ، وولد اليأس . ومن وقع فريسة للرعب إن لم يتصور إمكان الخلاص لم يفكر في البحث عن عون ينقذه من الخطر الذي وقع فيه . فلا بد لتحقيق الشعور الديني من مقاومة الخوف والرهبة بما يعادلها من الأمل والرجاء ، اللذين يبعثان على الدعاء والتضرع . وهذه هي حقيقة التدين .

المذاهب الرومية (المشهورة باسم الحيوية animisme) :

رأينا في التفسيرات السابقة كيف تتولد العقيدة الإلهية عن النظر في صحيفة الكون المادي . ولذلك اشتهرت تسمية هذه التفاسير بالمذهب الطبيعي ؛ حتى نسب إليها القول بأن العبادة الأولى كانت عبادة الطبيعة .
والآن نأخذ في بيان النظرية المقابلة لها ، وهي النظرية التي اشتهرت تسميتها باسم المذهب الحيوي animisme ، ونسب إليها أن الأصل كان عبادة أرواح الموتى ،
لا ريب عندنا في أن وضع المذاهب على هذا النحو من التقابل بين المادة والروح ، فيه شيء كثير من اللبس بين منشأ الفكرة ، وموضوع العبادة ؛ فقد قلنا غير مرة إن العبادة توجه دائماً إلى مبدأ رוחي غير مادي ؛
وها قد رأينا آنفاً رئيس المذهب الطبيعي (ما كس ميلر) يصرح بأن النظرة في عجائب الأفلاك والعناصر ، لا تلبث أن تنتقل من قواها الطبيعية إلى

(١) Auguste Sabatier, ouvrage cité, p. 13.

قوى روحية ذات شخصية إرادية ، وأنه لو لا هذه النقلة ما كان لها أن تدخل في موضوع الأديان .

فالواقع أنه لا اختلاف في هذا القدر بين مختلف التفاسير ؛ وإنما الخلاف في نقطة الابتداء وطريقة الانتقال : - فبينما يرى المذهب الطبيعي أن هذه القوة أو القوى الروحية المسيطرة على العالم ، إنما جاء الاعتقاد بها من طريق الحدس أو التأمل في عالم المادة (استرشاداً بعظمة الصنعة ومعقوليتها ، على مهارة صانعها وعاقليته ؛ كما يستدل على وجود قوة عاقلة في الإنسان بمشاهدة آثارها المنظمة في الأقوال والأفعال ، من غير أن يبصر أحد تلك القوة أو يلبسها) يرى المذهب المقابل له أن الاعتقاد في تلك الروح أو الأرواح الفعالة يستند إلى تجارب مباشرة في البيئة الإنسانية . فالنتيجة على التفسيرين واحدة ؛ ولكن التجانس بين المقدمات والنتائج في هذا التفسير أشد منه في المذهب الطبيعي . فهناك الانتقال من مادة إلى روح ؛ وهنا من روح إلى روح .

هذه النظرية الروحية قررها تيلور Tylor في كتاب « المدنية البدائية ، La Civilisation Primitive » وتابعه عليها مع تعديل يسير الفيلسوف الانجليزي هربرت سبنسر Herbert Spencer في كتاب « مبادئ علم الاجتماع ، Principes de Sociologie » .

ولا بد لنا قبل كل شيء من إزالة اللبس الذي يسهل الوقوع فيه هنا من جراء الاشتراك اللفظي لهذه الكلمة . نعم لا بد لنا من تفسير كلمة « الروح » التي يرى المذهب الحيوي أن التجارب في شأنها كافية لإيقاظ الاعتقاد بروح علوية جديرة بالعبادة . كما يحمل بنا بعد ذلك أن نسلك في تقرير النظرية منها مستقلاً ينفذ إلى لبها وجوهرها ، قبل الإشارة إلى عناصرها الإضافية القابلة للمناقشة .

ليس المقصود بالروح هنا - حسبما يوحى به التعبير غير الموفق باسم المذهب الحيوي - مبدأ الحياة الحيوانية ، أعني تلك القوة التي تقوم عليها

وظائف النمو ، والتنفس ، والحس ، والحركة ؛ بل المقصود نوع آخر أسمى من ذلك ، هو مبدأ حياة التفكير ، والإرادة المنظمة ، والعاطفة ، والضمير ، وبالجملة مبدأ الحياة العاقلة الرفيعة .

كل أحد يستطيع أن يميز بين هذين النوعين ، ويدرك أن هذا الروح ، الذى هو خاصة الإنسانية ، ذو كيان مستقل عن ذلك الروح المشترك بين الإنسان والحيوان . فنحن نرى النائم والمغمى عليه والمصروع يتنفسون ويتغذون ويمشون ؛ فهم أحياء بالحياة الحيوانية ليس غير ، حتى تعود إليهم تلك القوة الخاصة فيعود إليهم شعورهم المنظم وتفكيرهم المستقيم .

هذه التجربة تجربة صحيحة ؛ والفكرة التى استنبطت منها ، وهى التمييز بين القوتين ، فكرة سليمة ، لا يزال العلم يقررها حتى يومنا هذا .

ولكن الفكر ، إذا أرسل على بحيته ، لا يقف عند هذا الحد فى الاستنتاج ، بل إنه يصعد من التفرقة العملية بين الوظيفتين ، إلى التفرقة الذاتية بين القوتين ؛ فيجعل منها مبدئين منفصلين ، وجوهين مستقلين ... حتى إذا ما تقرر عنده هذا الطابع الاستقلالى انتقل به خطوة أخرى . ذلك أنه متى اقتنع بأن الروح العاقلة ، حين تغيب عن بدننا بالنوم ، لم تصبح عدماً محضاً ، أخذ يتساءل : لم لا يكون الأمر كذلك فى انفصالها بالموت ؟ — نعم إن تناوب الحياة والموت على الشخص الواحد لم يتحقق فى تجارب العادية كتبادل اليقظة والنوم عليه . ولكن الحكم بعودة الروح إلى البدن بالفعل ، أو عدم عودتها إليه ، شئ ؛ والحكم بأنها بانفصالها قد أصبحت عدماً صرفاً شئ آخر لم يقم عليه دليل ؛ بل تأباه الطباع السليمة ، وتقاومه غريزة الحياة النفسية ، الموصولة من أحد طرفيها بماض لا تطيق تناسيه ، وتحرص على استبقاء ذكرياته ، ومن الطرف الآخر بمستقبل تنتظر فيه عودة الغائب وإن بعدت غيبته ، ووجدان المفقود ولو طال فراقه . بل نقول إن هذا الحكم تأباه العادة العقلية التى تستمد أحكامها من تجارب الواقع وسننه المستمرة : فكما أنه ليس من المألوف أن شيئاً يحدث من لا شئ ؛

كذلك ليس من المألوف أن شيئاً يصبح لا شيء ؛ وكل ما يتصوره العقل في فقد الأشياء إنما هو تغير في صورها ، وتبدل في أوضاعها الزمانية والمكانية . فالتصور الطبيعي لظاهرة الموت أنها انفصال لعنصرى المادة والروح ، يرجع به كل منهما إلى طبيعته وبيئته : فتعود المادة إلى عالمها ، وتأخذ الروح صورة أخرى من صور الوجود الغيبي . وهكذا ينشأ الاعتقاد بوجود أرواح مستقلة عن الأبدان .

وهنا تجيء الحلقة الرابعة والأخيرة في هذه السلسلة المتصلة ، بل في هذه الدوائر المتداخلة ، من التفكير الطبيعي . ذلك أن انتقال العنصر الروحي من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ليس من شأنه حتماً أن يضعف سلطانه ؛ بل من المعقول أنه قد يزيده قوة ؛ لأن الروح في عهد اتصالها بجسم معين تظل شبه أسيرة لهذا الهيكل ، مشغولة بتديره ، وليس لها سلطان مباشر على غيره من الكائنات . ولذلك ليس من حقها في هذه الحال أن تسمى روحاً مسيطرة « esprit » وإنما هي نفس مسخرة « ame » . فإذا ما قدر لها أن تنفصل عن ذلك الجسم بالنوم أو بالموت أو بسبب آخر ، أصبحت جديرة باسم « الروح » ، وأضحت أوسع مجالاً ، وأملك حرية العمل في الميدان الذى تختاره : إن نفعاً وإن ضراً ، من حيث لا يشعر بها أحد .

ولا تحسن هذه النقلة الأخيرة ضرباً من النزوات الخيالية ، أو التجريدات العقلية ، المعتمدة على محض التشبهى أو الفروض الممكنة ؛ فالواقع أن الفكر قد يلجأ إليها ليجاء لتفسير ظواهر معينة لا يجد لها تفسيراً آخر . ذلك أنه كثيراً ما يحدث في ميدان النشاط الإنسانى حوادث عجيبة ، تخرج خروجاً ينفرد ، علواً أو انحطاطاً ، عن المستوى المألوف للناس ، أو المألوف للشخص نفسه في مجرى حياته العادية ؛ بل لا يكاد يخلو عصر من العصور من وجود هذه الشواذ التى لا يعرف لها سبب ظاهر ، فتنسب إلى سبب من تلك الأسباب المعنوية السرية ؛ فالعريف الماهر ، والشاعر الملهم ، والخطيب المفوه ، والبطل الموثق ، والصائد الذى لا يخطئ سهمه ، والحاسب السريع

الحساب ، السديد الجواب ، من غير استعانة بقرطاس ولا قلم ، في أطول المسائل وأشدّها تعقيداً ، ووالألمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمع ، كل أولئك ينسب نجاحهم وعبقريتهم إلى أنهم قد أمدوا بروح خيرة ، ذات قوة خارقة . وبعكس ذلك يقال فيمن يصاب بالصرع أو الجنون ، وفيمن يولعون بالردائل المبكرة ، أو الجرائم الشاذة المنكرة ، إنهم قد مستهم روح خبيثة شريرة .

أضف إلى هذا كله ضرباً من التجارب الجزئية في الرؤيا الصادقة ، والفراسة السديدة ، والإلهام الكاشف ، والعلم بالحوادث البعيدة ساعة وقوعها ، ورؤية الأشباح ، وسماع الأصوات ، إلى غير ذلك من الظواهر التي لا يستقيم تفسيرها بسبب من الأسباب المادية .

وليس يعيننا أن تكون كل هذه الملاحظات والتجارب والاستنباطات سليمة مستقيمة ؛ ولكنها في جملتها يظاهر بعضها بعضاً على تكوين الاعتقاد في أمرين : (١) أن في الوجود كائنات عاقلة لا يقع عليها الحس ؛ سواء أكانت في الأصل أرواحاً إنسانية انتقلت عن أبدانها ، أم كانت منذ بدايتها أرواحاً مستقلة كالجن والملائكة ، أم كانت روحاً أعلى من ذلك وأسمى . (٢) أن هذه الكائنات الغيبية ، المزودة بتلك القوة الخارقة ، قد تتصل بعالم النفس أو عالم الحس من الحياة الإنسانية وتترك فيه أثراً من آثارها العجيبة (١) .

هكذا تنشأ عقيدة التأليه من أقرب المقدمات وأيسرها :
فذلك الكائن الغيبي ، الذي كانت المذاهب الكونية تستنتجه استنتاجاً من مطالعة الآثار العظمى في عالم المادة ، أصبحت تشتق صفاته من جنس

(١) لا يفوتنا أن نجلها هنا أن نزع الاعتقاد في تلك القوى السرية وتأثيرها لا تخص أمة معينة من الأمم ، ولا ديناً خاصاً من الأديان ؛ بل أنها نعم الشعوب المتحضرة وغيرها ، وتكاد لا تخلو منها ديانة من الديانات المعروفة . وهما هي ذى البحوث الحديثة سائرة اليوم في طريق تأييدها بالتجارب والوسائل العلمية ، فيما يسمونه بعلم الروحانيات Spiritisme .

عمله نفسه ، ومن نوع التجارب التي دلت عليه . فهو لا ريب روح عظيم ، ذلك الذي يصنع الأسرار والعجائب الروحية ؛ وهو لا شك عقل خلاق ، ذلك الذي يمد العقول بمزيد من النور أو يكف عن إمدادها .
سيقول قائل : - لكن أليس تنوع هذه الآثار العجيبة آية على اختلاف مصدرها ؛ كما أن تعدد الأنهار دليل على اختلاف منابعها ؟ وإذا لم يكن في الغيب كائن فعال واحد ، بل كائنات كثيرة ، فهل كلها استوجب التأليه والعبادة ؟

الجواب أن ذلك يختلف باختلاف دقة الأفهام وغلظها :
فأما الأنظار القصيرة ، التي لا ترى أبعد من أنفها ، فإنها تحدد آلهتها وتعدّم بحدود الحوادث الفردية أو النوعية وأعدادها . فروح هذا الولي أو القديس الذي استجيب عنده الدعاء ، وفاضت من حوله البركات ، إله ؛ وقرين ذلك الكاهن أو العراف الذي صدقت نبوءته أو فراسته ، إله ؛ والروح الذي هبط على الشاعر المفحم فخلّ عقدة لسانه ، إله ؛ والملك الذي أوحى إلى صاحبه ما أوحى ، إله . . . وهكذا يقف الغافلون شاخصة أبصارهم في مواجهة كل أثر روحي عجيب ، ثم يخرون سجداً أمام مصدره المباشر ، أو روحه الخاص الموكل به ، كأنما هو المنبع الحقيقي للقوة ؛ وقلما يتحررون من ربة هذه الأسباب القريبة ، المحدودة المجال ، الخاضعة لعوامل الحدوث والفناء ، وتقلبات الظهور والاختفاء ، للتفكر في الكائن الغيبي الأعظم ، الأزلي الأبدي ، الذي ييده مقاليد الأرواح والأشباح على السواء . فمثلهم كمثل الذي يرى تفرق منابع الأنهار في الأرض ، ولا يذكر أن مردّها جميعاً إلى أصل واحد ، هو الماء الذي أنزله الله من السماء فسلكه ينابيع .

وأما العقول النافذة في بواطن الأمور ، الممتدة إلى منابعها ، فإنها لا تركز لحظة واحدة إلى هذه الظلال المتقلصة ، والسحب المتشعبة ، ولا تلهيها حركات هذه الجنود المنتشرة في السموات والأرض عن التوجه إلى

قيادتها العليا : إلى رب الأرباب ، ومسبب الأسباب ، الذي لا تخلو وثنية من الوثنيات عن الاعتراف به ، وإن كانوا لا يذكرونه إلا قليلا .

والآن نرسم لك بإيجاز الطريق الذي سلكه (تيلور) وأتباعه في بيان تولد العقيدة الإلهية عن التجربة الروحية :

فقد ذهبوا إلى أن هذه العقيدة تمت على مرحلتين : (الأولى) الاعتقاد في بقاء أرواح الموتى (والثانية) الاعتقاد بوجود أرواح للأفلاك والعناصر . واتفقوا على تفسير المرحلة الأولى بأن فكرة الروح فيها تعتمد في جوهرها على تجربة الأحلام ، وعلى التفسير البدائي لهذه التجربة . وخلصته أن الحلم عند البدائيين ، انتقال حقيقي لروح الشخص المرئي ، أى جسم شفاف على صورته ، هو أشبه بظل أو مثال له ، ينبثق منه ويحيى إلى الرائي في المنام فيراه رؤية حقيقية على شكل طيف ، كما ترى صورة الشخص في المرآة . وإذا كانت الرؤيا المنامية تتعلق بالأموات كما تتعلق بالأحياء ، بمعنى أن أرواحهم أى مثلهم تجيء إلى الرائي في المنام كما تجيء أرواح الأحياء ، دل ذلك على بقاء أرواح الموتى ، واستمرار اتصالها بالأحياء ، وتمكنها من نفهم وضرهم . فاقضى الأمر التقرب إليها لتجنب أذاها واستدرار عطفها . أما المرحلة الثانية ، وهى عبادة أرواح الكواكب والعناصر الطبيعية ، فلهم في تفسيرها مذهبان : فأما (تيلور) مؤسس النظرية فيرى أن العقلية البدائية فيها من سذاجة الطفولة ما يقصر بها عن التمييز بين الجماد والحيوان ، ويجعلها تعامل كلا منهما معاملة الكائنات الحية ؛ كما يداعب الطفل دميته ويناجيه كأن فيها روحاً . وأما (سبنسر) فإنه يرفض هذا التفسير بحجة أنه لا ينطبق على نفسية الطفل ، ولا على نفسية الحيوان ، فضلا عن العقلية البدائية ، ؛ ويرجح أن عبادة الطبيعيات ليست نتيجة التباس عقلي كما زعم تيلور ، بل وليدة التباس لغوي في أسماء الأسلاف المقدسين . ذلك أن هؤلاء الأسلاف كانوا يسمون أحيانا بأسماء مواد طبيعية ، فكان بعضهم

مثلاً يسمى «نجماً» ، والآخر «نمراً» ، والثالث «حجراً» ، فانتقل التقديس من أصحاب تلك الأسماء إلى الأشياء المسماة بتلك الأسماء نفسها ، خلطاً بين الاسم المنقول لمجرد التمييز ، والاسم الدال على أصل معناه .

وهذا التفسير ، كما ترى ، ليس خيراً من سابقه ؛ فكلاهما يجعل العبادة في هذه المرحلة مبنية على اعتقاد حيوية الأفلاك ؛ وكلاهما يجعل هذا الاعتقاد قائماً على وهم أو لبس ؛ وكلاهما يجعل العبادة موجهة إلى النفوس المتصلة بالكواكب ، لا إلى روح مفارقة مهيمنة عليها . كما أن عبادة الأسلاف ، في التفسير المتفق عليه بينهما ، مبنية في جوهرها على نوع واحد من التجارب ، وهو تجربة «الحلم» ، وعلى تفسير خرافي لتلك التجربة . وهكذا تصبح المذاهب الروحية في تقريرها معلقة على خيط أو هن من خيط العنكبوت .

ولقد وجه (دور كايم) كل قوته الجدلية لمهاجمة هذه النقطة الضعيفة في النظرية ، مبيناً أن البدائين ليسوا في حاجة إلى تفسير ظاهرة الأحلام ، وأنهم إن احتاجوا إلى تفسيرها فليس الطريق الذي وصفته النظرية متميناً . الخ . ونحن نحفظ من بين هذه الوجوه برجه واحد نحرص على تقريره وتأنيده ، لا لصحته وصلته بجوهر الموضوع فحسب ، ولكن لأنه في الوقت نفسه يحدد فكرة «عبادة الأسلاف» ، تحديداً معقولاً ، ويبرز أسبابها الحقيقية . ذلك أن تجربة الحلم إن سلم أنها تكفي للاعتقاد بالروح فإنها لا تكفي بمجرد لتعليل الاعتقاد بالوهية مصدرها ؛ فإن من الرؤى ما هو هذيان وأضغاث أحلام ، ومنها ما هو مجرد ذكريات ماضية عادية ؛ وليس شيء من ذلك يثير عقيدة التأليه . وإنما يثيرها نوع خاص ، وهو الرؤى التي يتجلى فيها معنى الوحي والإلهام بحوادث غير متوقعة ، أو بحقائق لا تدرك بنور العقل البشري العادي . ومن جهة أخرى فإنه لا يعرف في أمة من الأمم أن احترامها للموتى أو الأسلاف وصل بها إلى عبادة جميع الموتى أو جميع الأسلاف ؛ وإنما الذي كان موضعاً لهذا التقديس من بينهم

من كان قد عرف في حياته بقوة خارقة ممتازة تركت أثراً باقياً في الطبيعة أو في المجتمع . فليس الموت إذاً شرطاً ولا سبباً في هذا التقديس ، وإنما معيار التقديس هو تلك القوة السرية الخارقة ، أو تلك الجوهر الإلهية التي تتجلى آثارها في الحوادث الإنسانية العظيمة .^(١) أما سائر الوجوه التي أتعب الناقد فيها نفسه ، وظن أنه قد نقض بها التفسير الروحي من قواعده ، فإنها مناقشات شكلية لم تمس إلا الصورة البدائية التي وصفتها النظرية وطبعتها بطابع الخرافة ؛ وما زال جوهر التفسير الروحي سليماً لا غبار عليه ولم تنل منه هذه المجادلات شيئاً . والواقع أن عالم العجائب الروحية ليس بأقل من عالم العجائب الطبيعية إيماء لفكرة الألوهية ؛ بل هو أوسع ميداناً ، وأقدم تاريخاً ، وأقوى بنياناً من تلك الصورة البدائية . وقد اعترف الناقد بأنه ، كما لا تخلو أمة من ديانة ، كذلك لا تخلو من فكرة عن القوة الروحية ،^(٢) .

المذاهب النفسية :

هذه فصيلة أخرى من النظريات ، تلخص فكرتها العامة في أنه لأجل الوصول إلى العقيدة الإلهية لم يكن بالناس حاجة إلى التأمل في الطبيعة وجمالها ، ولا في التقلبات الكونية وأحوالها ، ولا إلى التجارب العجبية في عالم الأرواح وأسرارها ؛ بل إن تجارب الإنسان النفسية ، في حياته العادية المألوفة له في كل يوم ، كانت كافية لتوجيه نظره بقوة إلى تلك الحقيقة العليا .

١ - نظرية ساباتييه :

حاول (أوجيست ساباتييه) Auguste Sabatier في الفصل الأول من

(١) Durkheim, ouv. cité, p. 343

يبحثه عن فلسفة الدين. *Esquisse d'une Philosophie de la Religion*. أن يؤسس العقيدة الإلهية على بعض الملاحظات النفسية، فقال : إن هذه العقيدة تتولد في الإنسان منذ نشأته على أثر شعوره بمناقضة جوهرية بين حساسيته وإرادته ؛ وهما القوتان اللتان تتألف منهما حياة النفس في أيسر مظاهرها . وفي الحق أن حياتنا النفسية قائمة في جوهرها على حركتين متعاكستين : إحداهما تتجه من الخارج إلى الداخل (من المحيط إلى المركز) ؛ والأخرى من الداخل إلى الخارج (من المركز إلى المحيط) . فالحركة الأولى تمثل تأثير الأشياء على النفس بواسطة الإحساس (وتلك هي حال انفعال النفس وقابليتها) ؛ والحركة الثانية تمثل مجاوبة النفس على الأشياء بتوسط الإرادة (وهذه هي حالة تأثير النفس وفعاليتها) بيد أن هاتين الحركتين لا تنطبقان تمام الانطباق ، وليس بينهما كمال تناسق وتجاوب . ذلك أن الحساسية تسحق الإرادة وتكبتها ، فكلما اندفعت موجة الحركة الإرادية من داخل النفس ، وارتطمت على صخرة الأشياء الخارجية فانكسرت عليها ، رجعت كثيبة مبتنسة ، وهذه الصدمات المتوالية ، وتلك المنازعات المستمرة ، بين النفس وبين العالم الخارجي ، هما السبب الأول لكل أنواع الآلام ؛ ولكنها في الوقت نفسه هي منبع النور ، ومصدر الشعور . ذلك أن ارتداد الموجة إلى مركزها يولد في هذا المركز حرارة تشبه الحرارة الناشئة من حركة العجلة على محورها ، ثم لا تلبث هذه الحرارة أن تبعث شرارة ضوئية تضيء جوانب الوجدان . وذلك هو الوعي وتنبه البصيرة ، الذي تصبح به النفس مدركة مدركة ، وحاكمة محكومة معاً ، كأنها كائن مزدوج : أحد شقيه هذه النفس المثالية ، والآخر تلك النفس المسكوبة الواقعية .

هكذا ولدت الحياة النفسية بين وخزات الألم والإخفاق . أليست كل ولادة تصحبها الآلام والدموع ؟

قال : ولو أننا تابعنا هذه الملاحظة في سائر الحالات النفسية ، لرأيناها كلها كما تولد من مناقضة ، تفتى في مناقضة أخرى : فرغبة العلم تنتهي

بالاعتراف بالجهل ؛ ورغبة الاستمتاع تنتهى بالتقزز ، كأنها تحمل في نفسها جرثومة فئتها ؛ والإسراف في الحرص على السعادة يذهب براحة الطمأنينة والرضى ، ويزيد الألم شدة .

فأين المفر ؟

إن من الخطأ أن يعتمد الناس على تقدم العلوم الطبيعية في إنقاذهم من هذا البؤس والحрман ؛ فإن العلم بدلا من أن يلفظ من هذه المناقضة العتيدة ، يزيد في حدتها ، ويشحذ سلاحها الفتاك . ذلك أن كل اكتشاف على يضم حلقة جديدة إلى سلسلة الأسباب الضرورية ، التي لا بد منها في نظام الأشياء واتساقها وثباتها ، فيزيد بذلك قيماً في حريتنا ، وغلا في أعناقنا . ولا نزل نتقدم في هذه السيل ، حتى نصل إلى المناقضة العامة بين العلم والعمل ، بين التفكير والحركة ، بين قوانين الطبيعة وقوانين الأخلاق . وهكذا نقيم حرباً داخلية بين ملكات النفس ، وننتهى إلى شعور اليأس من قيمة الحياة .

من هذه الأزمة الداخلية ينشأ التدين ؛ كأن هذه الأزمة تفتح في صخرة الطبيعة شقاً يتفجر منه ماء الحياة . لا على معنى أن الدين يقدم لنا حلاً نظرياً لهذه المشكلة ؛ لأن الحل الذي يقدمه لنا التدين هو في الحقيقة عملي محض ، فهو لا يفتح لنا باباً جديداً من المعرفة ، بل يعود بنا عملياً إلى المبدأ الذي اقتبسنا منه وجودنا ، ويمنحنا شعور الثقة والإيمان بمبدأ الحياة وبنهايتها . منزلة هذه الثقة من عالم النفس كمنزلة غريزة البقاء من عالم الطبيعة المادية ؛ ولكنها صورة أسمى من تلك ، فإنها في عالم المادة تسير بقوة قاهرة عمياء . أما في عالم النفس فإنها تستضيء بنور الشعور والإرادة المفكرة . ومن جهة أخرى فإنها تستند إلى حقائق واقعية ؛ وتقوم على شعور ملازم لكل فطرة إنسانية ، وهو شعور التبعية المطلقة لقانون الوجود العام .

أجل ! من ذا الذي يستطيع أن يبعد عن نفسه هذا الشعور ؟ أليس حظنا من القدر قد رسم دون استشارتنا ، ففوضى علينا أن يكون وجودنا

في زمان ومكان معينين ، وترك لنا ميراثاً من الملكات والطبائع لم يكن لنا فيه شيء من الاختيار ؟ بل إننا لانجد في أنفسنا ولا في أية مجموعة أخرى من الكائنات الفردية السبب الكافي لوجودنا ، ولا غايته النهائية المعقولة ، ولذلك نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نبحث عن هذا السبب وهذه الغاية خارجاً عنا . في الوجود العام . وما التدين إلا الاعتراف بهذه التبعية في تسليم وخضوع .

هذا الشعور بالتبعية هو الأساس التجريبي للعقيدة الإلهية . ومهما تكن فكرة الألوهية في عقولنا ناقصة غير محددة ، فإن موضوعها لا يفلت قط من شعورنا ؛ فهو حاضر لدينا ، بل يفرض نفسه علينا في هذا الشعور . حتى إنه يسوغ لنا أن نضع هذه المعادلة الحسائية مطمئنين : إن شعورنا بالتبعية المطلقة هو شعورنا بحضور السر الإلهي فينا . هذا هو ينبوع العميق الذي تفيض منه الفكرة الإلهية بقوة لا تقاوم .

غير أنه يجب أن نعرف كيف يقبل العقل الإنساني هذه التبعية لمبدأ الحياة العالمية ؟ هذا العقل النائر الذي يرى نفسه من طبيعة غير طبيعة الأشياء الخارجية ، ويرى أن أخص خصائصه هو أنه يفهم هذه الأشياء ويسيطر عليها ويسخرها ؟ فالإنسان — كما يقول پاسكال — : ليس إلا قصبه ضئيلة ، ولكنها قصبه مفكرة . حتى إنه لو سحقه الكون سحقاً لكان هو أنبل من الذي يسحقه ؛ لأنه يعرف أنه مسحوق ، بينما الكون لا يعي من أمر نفسه شيئاً .

من هنا يتبين أن المبدأ العالمي الذي يخضع له الإنسان ليس هو ذلك الكون المادى ، بل الروح العالمية التي تدبره ، ذلك أن القوة العاقلة لا تخضع إلا لسلطان قوة عاقلة تسيطر عليها وعلى العالم على السواء ، وهكذا نجد الحياة العقلية ، التي كانت قد افتتحت بالنزاع بين الشعور الذاتى والتجربة الخارجية ، تكمل وتختتم بجد ثالث جامع ينتظم الحدين معاً : وهو الشعور بخضوعهما جميعاً لهذا السلطان الأعلى .

هذه الصفحة الرائعة التي كتبها أوجست ساباتيه لا تزال تحتفظ بجمالها ودقة تصويرها للفكرة الإلهية في الديانات العليا . ولكن هل تنطبق على سائر الديانات ؟ أليست من دقة الفلسفة والمبالغة في التجريد بحيث يبعد أن تكون فكرة عالمية ؟ .

لقد أحس الفيلسوف بهذا السؤال ، فكتب يقول :
 « إن الذين يعترضون بذلك إنما يرهنون على أنهم لم يروا جيداً هذه المناقضات الأصلية في حياتنا اليومية ، من مبدئها إلى نهايتها ، فإنه لأجل أن يتحقق الإنسان من هذه المناقضات ويقاسمها ليس بحاجة إلى أن ينتظر حتى يصبح فيلسوفاً . إنها لتتجلى في كل العقول على اختلاف درجاتها من الثقافة والاستنارة ؛ وإنما في نفوس الهمج الذين ترعبهم تقلبات الجو في وسط الغابات ، ليست بأقل منها في نفوسنا حين تضرب أفكارنا أمام اللغز العالَمي وأمام ظاهرة الموت . لقد تختلف العبارة ونوع الشعور ؛ ولكن الهزة الدينية التي تزلزل الإنسان هي في جوهرها شيء واحد . فكل أحد ، حين يكف عن التفكير في مجزه وجهله وفنائه ، وحين يجمع أمره — صابراً مستسلماً — على أن يقضى الحياة كما هي ، يشعر رغماً عنه بزفرة يفيض بها صدره ، وتكاد تنطق بها شفثاه ؛ وما هي في الحقيقة إلا فاتحة دعاء ومناجاة ، (١) .

٢ — نظرية برجسون :
 هذه النظرية تلتقي مع سابقتها في القول بأن العقيدة الإلهية تقوم على عوامل نفسية تثيرها حياة الإنسان اليومية . ولكن بينما النظرية السابقة تواجه من هذه الحياة جانبها المتصل بقوانين الطبيعة الثابتة ، التي تصطدم

بها الإرادة فلا يسعها إلا الخضوع والاستسلام للقوة التي فرضت هذه القوانين وأحكمت وثاقها ، يعتمد (هنرى برجسون) H. Bergson في كتابه عن « ينابيع الخلق والدين Les Deux Sources de la Morale et de la Religion. » على جانبين آخرين من تلك الحياة العادية : « أحدهما ، يرتبط بالقوانين الأدبية التي يفرضها المجتمع وما فيه من العرف والعوائد ؛ والآخر ، يتعلق بالحوادث المستقبلية ، التي تفتح لها أبواب الإمكان ، وتوسع للاحتتمالات وللصادفات ، فلا يمكن التنبؤ بها بصفة قاطعة .

أما كيف تنشأ العقيدة الإلهية عن الشعور بالواجبات الاجتماعية فيبانه أنه لما كان نظام المجتمع وتماسكه يتطلب من الفرد إخلاعه عن بعض رغباته ، وتضحيته بجانب من حريته ، وتحمله أعباء تقتضيها مصلحة غيره ، ولا يعود عليه منها نفع مباشر ، وكان ليس من الهين أن يتقبل المرء عن طيب خاطر كل هذه التضحية وكل هذا الحرمان ، إذ كانت الغريزة الاجتماعية عنده أضعف من أن تحمله على نسيان نفسه في خدمة المجموع ، وأن يجعل مثله كمثل النملة أو النحلة حين تذهل عن نفسها في خدمة جماعة النمل والنحل ، وكان استعمال ذكائه العادي في حساب مصلحته يدعو بالعمى إلى الأثرة ، وإلى التضحية بمصلحة الآخرين في سبيل إصلاح شأن نفسه ، وإن لا بد من قوة أخرى تحفظ التوازن ، وتواخي بين مصالح الفرد والجماعة . تلك القوة قد أعدتها الفطرة الإنسانية في النفوس حين أشربتها الفكرة الدينية . وذلك أنها صورت أمامها المحظورات الاجتماعية بصورة مخيفة تجعل من المخاطرة انتهاكها ؛ وما زالت تبالغ في هذا التصوير حتى خيلت للنفس أن هذه المحظورات يقوم على حمايتها حارس معنوي . أمر ، ناه ، محاسب ، ينذر من ينتهكها بالبطش والعقاب ، وذلك هو معنى الإله .

وهنا يضيف (برجسون) أن صورة هذا الحارس وإن لم تكن وليدة التفكير المنطقي ، بل من عمل الواهمة أو المخيلة التي تشخص المعنويات ، وتجسم المجردات ، ولكنها ليست من قبيل تخيل الفنانين ، وهو المثالين

والمصورين وأصحاب الأساطير ؛ فإن آثار هؤلاء لا تعدو أن تكون نوعاً من الترف الذى يمكن الاستغناء عنه ، بخلاف الصورة الإلهية التى تخلقها الحاجة الاجتماعية ؛ فإنها وإن تكن وهماً إلا أنه وهم تفرضه الحياة ، ومن أجله وجدت هذه الملكة الرمزية فى طبيعة الإنسان^(١) .

فإذا ما انتقلنا إلى ميدان الأعمال اليومية وجدنا فيه كذلك فراغاً نفسياً عميقاً ، لا يملؤه إلا العقيدة الإلهية . فالصائد حين يسدد سهمه إلى فريسته ؛ والتاجر فى سعيه إلى الربح ؛ والمريض فى تناوله الدواء ، وتطلعه إلى الشفاء ؛ والزارع فى طلبه للثمرة ؛ والمزوج الذى ينتظر الولد ؛ وراكب السفينة الذى يطلب النجاة ، ولاعب الميسر الذى يرقب حظه بين اليأس والأمل ؛ وكل ذى حاجة ينتظرها وهو لا يدري ما قدر له من النجاح أو الإخفاق ... كل أولئك لو استلهموا عقولهم ، وقاسوا أعمالهم بمقدار نتائجها المحققة أو الغالبة ، لتعدوا عن السعى ، ولوقف بذلك دولاب الحياة . غير أن دفعة الحياة حركة تأبى الوقوف والجمود ؛ فكان لا بد لها من ثقل تضعه فى الكفة الأخرى من الميزان النفسى ، لترجح به جانب العمل ، رغم كل تفكير وحساب . وما ذلك إلا الأمل تبعثه ، والاعتماد على الحظ المحتمل تقدره ؛ ولا تزال بهذا الحث والتشجيع ، حتى تصور أمام النفس إرادة خفية يركن القلب إليها ويعتمد عليها . تلك هى إرادة « الإله المستعان » ، كما كان ذلك السلطان سلطان « الإله الديان » .

(١) اعلم أن هذا التفسير إنما ينطبق فى نظر (برجون) على نشأة العقيدة الإلهية عند العامة الذين يعيشون متأثرين بقوانين المجتمع وعوائده فى الجماعات العادية ، المحدودة بمحدود القبيلة أو الشعب أو الأمة ، والتى يسميها بالجماعات « المنطقية » . ولكنه لا ينطبق فى نظره على العبارة للمتأثرين ، الذين لا يستمدون عقيدتهم من قواعد المجتمع وعوائده ، ولا حاجة بهم إلى هذه المقاييس النفعية . فهؤلاء يفترون من منبع الحياة الصافي حتى نجيش به صدورهم ، فيدفعون الجماعة وراءهم دفعاً ، بدلا من أن يندفعوا بها ، ويضعون لها القوانين بدلا من أن توضع لهم القوانين . وما الجماعة فى نظره إلا الإنسانية العالمية التى لا تعرف الحدود والمواجز وما قانونهم إلا المحبة التى لا تنتظر جزاء ، ولا تبتغى ثمناً ولا عوضاً .

الذي نلاحظه على هذه النظرية هو أنها جعلت فكرة الألوهية في مظهرها عند العامة فكرة رمزية لا تعدو أن تكون ضرباً من ذلك الأسلوب القصصي الذي يخوف به الأطفال أو يداعبون به . وهذا وصف لا يستساغ في القسم الأول منها ، إلا لو صح أن كل ما يجري في المجتمع من سنن وعوائد ، سواء ما كان منها ذا طابع ديني أو اقتصادي أو غيرهما ، كان في جملة مبعثاً لعقيدة إلهية في عقول العامة . فهناك فقط يسوغ أن يقال إن فكرة الإله عندهم لا تدل على حقيقتها ، وأنها محض رمز لما في نفوسهم من سلطان رهيب للمجتمع ؛ ولا شك أن الذي يعيش أسيراً لعوائد قومه ولو تحكّمية ، ولتصرفاتهم ولو همجية ، ولقوانينهم ولو جائرة ، لو بلغ به استسلامه إلى حد الظن بأن تلك الوضعيات البشرية أوضاع إلهية ، يقوم على حمايتها جنود من السماء حين تغيب عنها جنود الدولة ، لكان أقل ما يقال فيه إنه سخيف واهم ، وأنه يسمى الأشياء بغير أسمائها . أما إذا أخذنا قانون الأخلاق في جوهره الصحيح ، واعتبرنا ماله من سلطان مركز في طباع الناس على اختلافهم موجباً للعقيدة الإلهية ، ودليلاً على صنعة الفاطر الأول ، الذي ألهم النفوس هداها ، ورسم لها طريق فجورها وتقواها ، فتلك فكرة سليمة ومنطق مستقيم . وسنرى الفيلسوف الألماني (عمانويل كانت) يجعل قانون الأخلاق هو المقدمة الأولى في الاستدلال على وجود الله .

وكذلك نقول إن الاستدلال على وجود القدر الإلهي بالحوادث المستقبلية التي لا يد للبشر في تصرفها ، والتي تقع تارة على وجه وتارة على وجه آخر ؛ دون أن تخضع في سيرها لقانون طبيعي ثابت ، نقول إن هذا الاستدلال شديد قويم ، لا يعتمد على شيء من الوهم أو التمثيل ؛ لأنه ينطوي على مقدمتين (الأولى) أن هذه الحوادث تستند إلى سبب خفي . وهذا حكم انفصالي يقيني ؛ إذ أن ما لم يوجد له سبب في عالم الشهادة يجب أن يكون له سبب في عالم الغيب . ولا ثالث . (الثانية) أن هذه القوة

الغيبية قوة عاقلة إرادية ، مقدرة للحوادث قبل وقوعها . وهذه قضية لا يؤيدها العقل السليم بحسب ، بل تشهد بها التجارب المتكررة في كل أمة ؛ فإن هذه الحوادث التي لا يمكن التنبؤ بها من طريق النور العقلي وحده ، قد يكشفها الروحانيون الملهمون وينبشون بما ستكون عليه في وقتها المحدود ، ثم يقع مصداق نبوءتهم ، بينما ، لا يخالطه شك ولا وهم . فذلك لا شك آية على أنها ليست وليدة المصادفة والاتفاق ، ولا نتيجة آلية لدفعة الحياة العمياء كما يظن برجسون^(١) . وإنما هي خاضعة لخططة مرسومة من قبل ، رسمتها يد مدبرة قاصدة لما تفعل ، مقدرة لكل ما يجري في مملكتها .

٣ - نظرية ديكارت :

لا مناص من الاعتراف بأننا سنجاوز حدود موضوعنا قليلا حين نضم إلى هذه السلسلة من التفاسير النفسية طريقة من طرق الفيلسوف الفرنسي (ديكارت) Descartes في إثبات وجود الله ، مع أنه لم يقدمها تفسيراً لهذه العقيدة في نشأتها ، ولا في نظر الجمهور ، بل في نظره هو . غير أنه لما صرح بأن أساسها نفسى فطرى ، لم تر بأساً من نظمها في هذا السلك . وجد هذا الفيلسوف في تأملاته Méditations أن عقيدة وجود الله تعتمد على تجربة نفسية ، أقرب من هذه التجارب كلها ، وأقل تعقيداً ؛ حتى إن الذى يغمض عينيه ، ويسد أذنيه ، ويقطع علاقته بالكون وبالناس ، ثم ينطوى على نفسه ، ويتحسس أفكاره وتصوراته ، يجد مفتاح هذه العقيدة حاضراً فيها بين طيات نفسه ، كلما شعر بالفرق بين الشك واليقين ، أو بين الجهل والعلم ، وبالجملة كلما قرأ في لوحة نقصه عنوان : « الكمال ، الذى ليس له . »

(١) هذا الفيلسوف يهودى الأصل ، وشاع أنه اعتنق المسيحية في أخريات حياته . ولكن فلفته كلها تدل على أنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا فادين مطلقاً ، وإنما كان يؤمن بالحياة من حيث هي قوة مندفعة في أعمالها تخبط خبط عشواء ولا تدرى مقبة اندفاعها .

ليست فكرة « الكمال » ، هذه في نظر (ديكارت) فكرة مستنبطة من فكرة أخرى ، وإنما هي حقيقة أولية فطرية ، بل هي أسبق في العقل من فكرة النقص ؛ فإن من لا يعرف الشيء لا يتفقده ، ولا يحس بحرمانه حين يفقده ؛ إذ كيف أعرف أنني ناقص لو لم تكن عندي فكرة كائن أكمل مني أجعله مقياساً أعرف به مواضع نقصي ؟ فالرغبة في الكمال وحدها دليل على أسبقية وجود هدفها في التصور العقلي . ثم ليست هذه الفكرة معنى سلبياً (كالكون : عدم الحركة ؛ وكالظلام : عدم النور) بل هي جماع الحقائق الإيجابية ، ونظام ضروب الكمالات كلها .

من أين تجيء هذه الفكرة إذا ؟

لا جائز أن يكون من هاوية العدم مطلعها ؛ فإن العدم لا يخلق الوجود ، كما أن الصفر لا يلد عدداً إيجابياً .

ولا جائز أن يكون من قرارة النفس منبعها ؛ فهذه النفس هي مصدر النقص الذي أحاول التخلص منه .

ولا يقال إن الكمال الذي لم أحرزه بالفعل هو حاصل عندي بالقوة ، وأنا دائب في سبيل اكتسابه ، بالترقي في مراتبه تدريجياً ، وهذه النزعة إليه هي التي أنشأت فكرته في نفسي . فذلك فرض باطل من وجهين :

(أولهما) أن هذه الفكرة لا تصوّر في نفسي درجات الكمال التي سألها أو التي يمكنني نيلها فحسب ؛ بل إن كل درجة من الكمال أتصورها في نفسي

أو في غيري ، أتصور دائماً فوقها درجة أعلى منها ... (وثانيهما) أن فكرة الكمال الأعلى التي أجدها في نفسي تحتوي كل درجات الكمال الوجودي

الفعلي ، الذي لا شيء منه بالقوة الإمكانية القاصرة ؛ وإلا لم يكن هو المثل الأعلى ، ولما أمكن وجود شيء من الكمالات الجزئية بالفعل ؛ لأن ما هو

بالقوة والإمكان فحسب لا يمكن أن يحدث ما هو بالفعل في حقيقته الإيجابية الظاهرة الباهرة ، فإن فاقده الشيء لا يعطيه غيره .

وأخيراً ، ليست هذه الفكرة اختراعاً وفرضاً افتراضه خيالي ، بل هي

ضرورة تفرض نفسها على عقلي وعلى كل العقول . فلم يبق إلا أن تكون صورة منعكسة على مرآة النفس من حقيقة إيجابية ، وذات خارجية ، هي مادة الكمال المطلق ومصدره ، وهي المثل الأعلى . وما وضع هذه الصورة على لوحة نفسى إلا كوضع دسمة الصانع ، على صنعمته ، أو توقيع الكاتب ، في رأس رسالته .

هذا التفسير لم يكن ديكارت ، أسبق الناس إليه ، ولكنه أجاد تفصيله ، وأحسن تمييزه ، في التأمل الثالث من تأملاته Méditation troisième . وقد أكثر الناس من الاعتراض عليه ، حتى في عصر ديكارت نفسه . وظن الفيلسوف الألماني (كانت) أنه استطاع هدم هذه الحججة ؛ بقوله : إنه وإن تكن خصائص الماهيات العقلية يمكن استنباطها كلها من طبيعة تلك الماهيات ، كما تستنبط خصائص الأشكال الهندسية من مفهوماتها ، إلا أن صفة الوجود ، على الخصوص لا يمكن أخذها من تلك المفاهيم العقلية . حقيقة المثلث وإن ثبت لها الخواص الهندسية المعروفة ، بالضرورة العقلية ، إلا أنه لا يلزم من ذلك وجود مثلث في الخارج ؛ وكل ما في الأمر أنه إن وجد مثلث كان على هذه الأوضاع ، وكانت له هذه الخواص . وهكذا سائر المفاهيم العقلية ، ليس وجودها في الذهن دليلاً كافياً على وجودها في الخارج ؛ بل إن منها ما هو مخترع اختراعاً بحتاً ، كما تتصور قصرأ من ماء ، وإنساناً من هواء .

ولكن فات هؤلاء الناقدون ما هناك من بون شاسع^(١) بين تلك الماهيات الممكنة التي يعترضون بها ، والتي لا يلزم من فرض عدمها محال ، وبين الماهية العقلية الواجبة ، التي بلغ من رسوخها في كيان العقل أن إبطالها يعد إبطالا لكل معقول ومعلوم ؛ إذ لا بد في العقل من التسليم بوجودها في الخارج لتستمد منها كل الممكنات وجودها في الأعيان والأذهان .

(١) أشار إليه ديكارت نفسه .

المذهب الأهملافي :

ذهب الفيلسوف الألماني (عمانويل كانت) Emmanuel Kant في نقده للعقل العملي Critique de la Raison Pratique إلى أن وجود الذات الإلهية ليس موضوع علم ومعرفة ، بحيث يثبت بالبرهان أو بالتجربة ؛ بل هو موضوع إيمان عقلي ، بمعنى أنه مقدمة مسلية ، لا مناص للعقل من أن يعتمد عليها لتصحيح الفكرة الأخلاقية الراسخة في النفوس . ويبان ذلك حسبما قرره (كانت)^(١) ينتظم في مقدمات ثلاث :

(١) أن كل إنسان ، حتى الطفل المميز ، يجد في نفسه استحساناً لبعض الأفعال ، واستهجاناً لبعضها ، ويدرك بنفسه أن بعضها يجب أن يفعل ، وبعضها يجب أن يجتنب . هذا القانون الأدبي يضاهي القانون الطبيعي ، في أن كلا منها ضرورة لا مفر منها ؛ ولكنه ليس كالقانون الطبيعي في التعبير عن شيء واقع بالفعل تحققه المشاهدة والتجربة ، بل عن شيء لم يقع بعد وإنما يطلب تحقيقه طلباً مؤكداً ، وهو في الخارج يمكن أن يقع وألا يقع . بل قد يقال إنه ليس في الوجود مثال واحد يشهد لوقوعه على الوجه المطلوب ؛ فكل بني آدم خطاؤون ، وما الطهر والعصمة إلا لله وحده . حتى إن الذين يؤدون أعمالهم طبقاً لقانون الواجب « حرفياً ، لا سبيل إلى اليقين بأنهم يؤدونها « روحياً ، كما يجب ، أي بقصد أداء الواجب خالصاً من شائبة الهوى والغرض ، ودون تلقي معاونة عليها من الميول والنزعات الفطرية الشريفة .

فالواجب هو أداء الواجب ، للواجب ، وبالواجب ، أي تحت سلطان « فكرة ، الواجب ، لا « حب ، الواجب . وكل خدش في عنصر من هذه العناصر يجعل العمل هباء . فن ذا الذي يستطيع أن يجرد نفسه هذا التجريد؟ ومع ذلك فهذا هو حكم قانون الأخلاق الذي يفرض نفسه علينا

(١) Kant, ouy. cité, 2ème partie, IV et V.

فرضاً غير مكترث بمعارضة قانون الطبيعة المتسلط على حواسنا وجوارحنا وإرادتنا بصفة قاهرة . ومنه نعلم أن الإنسان ينتسب إلى عالمين : عالم العقل ، وعالم الطبيعة والحس . كلاهما يطالبنا بحاجته ، وما القانون الأدبي إلا ترجمان العقل الخالص ، ينطق بلسانه متجاهلاً ما للطبيعة من سلطان .

(٢) غير أنه لما كان العقل يطالبنا بالجاح أن نحقق هذا الخير المطلق ، كان من الضروري أن تكون هناك وسيلة لتحقيقه ؛ لأن وجود الشيء بالعقل دليل إمكانه ، وإلا لما كان العقل عقلاً . وإذا لا سبيل إلى تحقيق هذا الخير الكامل في لحظة من لحظات حياتنا ، فلم يبق إلا إمكان تحقيقه على التدرج إلى ما لا نهاية . . . وهكذا يجب أن تفرض لنا حياة لا تنانح ، يتم فيها ذلك التقدم اللانهائي ، الذي هو الهدف الحقيقي لإرادتنا العاقلة . فكان خلود الروح مطلباً لا بد من تسليمه ليصح في العقل وجود ذلك القانون الأخلاقي . ودعوى أن الإنسان يمكنه في هذه الدنيا أن يصل إلى القدسية والفضيلة الكاملة دعوى باطلة ؛ كدعوى أن الواجب الأخلاقي يكتفى منا بأدنى مراتب الكمال .

(٣) فإذا حققنا الخير المطلق ، بتحصيل الفضيلة الكاملة ، فقد نرى المطلب الأخير من مطالب العقل ، وهو تحقيق الخير الأعلى . وليس الخير الأعلى معنى مفرداً ، بل هو جماع عنصرين : أحدهما الفضيلة ، والآخر السعادة ، التي هي حصول المرء على ما يرضيه في الحياة ، بحيث يجري كل شيء في الوجود على وفق ما يهواه . ألا وإننا نرى هذين العنصرين يسيران أمامنا في طريقين منفصلين قلما يلتقيان . فقلما تعيش الفضيلة العاملة الكادحة ، الصامته القانعة ، إلا في زوايا الخمول والنسيان ، والتقتير والحرمان ؛ بينما الرذيلة الصاخبة المتبجححة ، الملققة الطامحة ، لها القوة ، والثروة ، ورغد العيش ، والجاه ، والنفوذ والسلطان . لكن مقتضى الوضع العقلي السليم أن تكون الفضيلة والسعادة صنوين ، والرذيلة والشقاء توأمين ، وأن توزع درجات البؤس والنعيم على حسب الأعمال وبواعثها ومقاصدها . فلا بد

إذاً من مبدأ أعلى يحقق هذا التوازن . مبدأ تخضع الطبيعة لإرادته ، ويسير هو في تصرفاته على وفق قانون عادل . وما ذلك إلا خالق الطبيعة والإنسان جميعاً ، وهو الله تعالى .

فكان وجود الله هو المطلب الأخير ، الذي لا بد من تسليمه لتصحيح معقولة القانون الأخلاقي .

الناظر في هذا النسق الفكري قد يروقه ما فيه من نسيج بديع مبتكر . ولكن الذي يفلى سداه ولحمته سوف يجد في طياته خيوطاً واهنة ، وعناصر غريبة ، سترتها مهارة الصنعة وحسن السبك ؛ بل سيجد أن هذه المقدمات الثلاث التي يتألف منها الاستدلال ليست بالمقدمات البديهية ، ولا بالمبرهنة ، ولا بالتى يتوقف عليها صحة المطلوب .

أما المقدمة الأولى فلأن القانون الأخلاقي وإن كان في جملة مركزاً في أصل النفوس ، ولكنه على الصورة التي يصوره بها (كانت) لا يفرض نفسه على كل العقول ، بل تمججه كثير من الطباع السليمة ، ليس لأنه عفيف ، قاس ، غريب ، أو لأنه يمحو الفروق بين الواجبات الأساسية والواجبات التكميلية ، بل لأنه فوق ذلك كله يقلب الأوضاع والموازن المألوفة ، إذ يقتضى أن الذى يمثل الأمر عن أريحية ورضى لا يكون قد أدى واجبه ، وإنما يكون ممثلاً إذا فعله وهو كاره له ، متبرم به . وهكذا تبعد النفوس الخيرة عن المثل الأعلى للفضيلة ، بقدر ما تقترب منه النفوس الشريرة حين تحمل نفسها على فعل الواجب حملاً .

وأما المقدمة الثانية فلأن الواجب المطلوب (وهو تحقيق الخير المطلق لذاته غير مشوب بطلب منفعة ، ولا معاضداً بنزعة شريفة أو غيرها) إن لم يكن ممكناً لم يكن واجباً ، كما يعترف به (كانت) . وإن كان ممكناً في هذه الحياة لم يكن هناك حاجة إلى فرض الخلود . وإن كان يمكن تحقيقه في مرحلة ما من مراحل الحياة المستقبلية لم يبق لفرضية أبدية الروح مستند ؛ إذ

يكون القول ببقائها لحظة واحدة بعد أداء الواجب قولاً بما هو أكثر من المطلوب . وإن كان ليس هناك لحظة واحدة في الحاضر ولا في المستقبل يمكن فيها إخلاص الامتثال ، يكون القول بالخلود قولاً بما هو دون المطلوب ؛ لأنه متى فرض أن انضمام أدنى باعث للخير إلى باعث الامتثال المجرد يهدم الفضيلة من أساسها ، أصبحت المسألة ليست مسألة تدرج يترقى فيها الناقص نحو الكمال ، بل هي مسألة أعداد سلبية متتالية ؛ وضم السلب إلى السلب لا ينتج إيجاباً ، ولو سار إلى غير نهاية . على أن التكامل على الوجه الذي يفهمه (كانت) يفضى بنا إلى صورة عجيبة جداً ؛ إذ لا بد أن يفترض أن النزعات الشريفة في تلك الحياة الباقية تأخذ في الاضمحلال شيئاً فشيئاً ، لتحل محلها نزعات مقاومة للخير ، تحتاج إلى مجاهدة عنيفة تزداد عنفاً على مر الزمان ، ليكون أداء الواجب معها لمحض الواجب رغم كل مقاومة .

فأبدع هذا الفردوس الذي لا يتبوأ عرشه إلا الشياطين !

وأما المقدمة الثالثة فلأنها أدخلت باسم قانون الأخلاق عنصراً غريباً عن قانون الأخلاق ، وهو مطلب السعادة بمعناها العامي (ألا وهو تحقيق الأمانى وإرضاء الرغبات الحيوية) . والواقع أن الفضيلة والسعادة بهذا المعنى حقيقتان متباينتان : إحداهما إلزام عقلي يجيء من عل ؛ والأخرى نزعة مادية تلتمس وتتضرع لقضاء حاجتها . وطلب النفس الجمع بين هذين الطرفين ، تشوقاً إلى قانون أعلى ينتظم القانونين الأدبي والطبيعي ، وينسق اتجاههما ، إنما هو تشوق إلى حلية شكلية ، ووضع هندسى تكميلي ، وليس تشوقاً إلى ضرورة عقلية ، ولا إلى مطلب أخلاقي . أما أن هذا الاتساق ليس ضرورة عقلية ، فلأنه لا يلزم من فرض عدمه محال ؛ ولا أدل على إمكان الانفصام بين القانونين من وقوع هذا الانفصام واستمراره بالفعل . وأما أنه ليس مطلباً أخلاقياً فلأننا نعرف أن الفضلاء يغبطون — وهم في أحضان البؤس والشقاء ، يقاسون ألوان الحرمان وأنواع التضحيات — بمجرد شعورهم بإرضاء ضميرهم وأداء واجبهم . ويجدون في هذا متعة

حقيقية لا تدانيها متعة في الحياة .
 على أنه إذا كان لا بد للفضيلة من مقابل مادي ، فلماذا نقرض هذا
 المقابل في حياة مستقبلية ؟ لماذا لا نقدر أننا قد استوفينا هذا المقابل مقدما
 في أنواع النعم السابقة التي لا تحصى ؟ وبذلك يكون واجب الفضيلة سداداً
 لدين قديم في أعناقنا لشكر تلك النعم ، لا افتتاحاً لمعاملة جديدة تنتظر الجزاء .
 كل هذه الفجوات كان يمكن تجنبها لو أن الفيلسوف الألماني اختصر
 الطريق ، بالانتقال مباشرة من القانون الأخلاقي المجمل إلى واضح هذا
 القانون وغارسه في النفوس ؛ كما فعل (ديكارت) في فكرة «الكمال» .
 ولكن طريقة التعقيد والتحايل والدوران قد أطالت عليه الشقة ، ولم تصل
 به في النهاية إلا إلى فرض غير محقق (في نظره) ، ولا قائم على أساس
 متماسك .

المذهب الاجتماعي :

يخالف العلامة (دوركايم) Durkheim جميع المذاهب المتقدمة في
 دعواها أن التدين حالة نفسية تنبع من فطرة الأفراد كلها فكر في الآفاق
 أو في نفسه ؛ ويرى هو أن التدين وليد أسباب اجتماعية^(١) ؛ بل يذهب
 إلى أبعد من ذلك ، فيزعم أن عناصر التفكير ، وأسس المعرفة العقلية
 نفسها ، ما هي إلا صور ولدتها حياة الجماعة ، وطبعتها على غرار النظم
 الاجتماعية^(٢) . ونحن لا يعنيننا هنا نقد فكرته في نظرية المعرفة ، بل نريد
 أن نعرض رأيه في أصل التدين ثم نعقب عليه .

لقد مهد لمذهبه بتقديم جملة مقدمات ، أهمها أن خير وسيلة لتفسير
 ظاهرة معقدة كالظاهرة الدينية أن ندرس في بداية نشأتها ، قبل أن تخالطها

(١) Durkheim, ouv. cité, p. 132

(٢) Id. Ibid., Introduction

عنصر غريبة عنها ؛ وأن ذلك إنما يكون في بيئات الأمم البدائية ،^(١) وهي ، في نظره تلك الأمم التي لا تتميز فيها الأسر الخاصة بحياة مستقلة ، بل تقوم على نظام القبائل tribus والفصائل phratries والعشائر clans . ومعروف أن العشائر (وهي النواة الصغرى في تلك المجتمعات) قوامها وحدة اللقب المشترك بين أفرادها . وهو لقب يشتق في الغالب من اسم حيوان ، أو نبات ، وفي النادر من اسم عنصر جمادى ، أو كوكب من الكواكب ؛ وتعتقد العشيرة أن لها بمسمى هذا الاسم صلة قديمة ، حيوية أو روحية (إما على أنها تسلسلت عنه ، أو أنه كان حليفاً أو حارساً لجدها الأعلى ، أو نحو ذلك) . ولذلك تعظمه وترسم صورته على مساكنها ، وأدواتها ، وأسلحتها ، وراياتها ؛ بل تتخذ الأفراد منه وشماً يطبعونه على أجسامهم ، كأنه بطاقة شخصية لتحقيق انتساب كل منهم إلى عشيرته . هذا النظام يسمى نظام التوتيم Totem^(٢) أو اللقب الأسرى ، وهو نظام معروف في الشعوب القديمة : (المصرية ، والآثيوبية ، والعربية ، واليونانية ، والرومانية ، والغالية) وتوجد آثار منه في الأساطير الشعبية في أوروبا الآن^(٣) ، ولا يزال منتشرأ في القبائل غير المتحضرة في أمريكا ، وأستراليا . وهذه الأخيرة — فيما يعتقد (دوركايم) هي أخصب مكان لدراسة هذه

(١) لقد مضى الزمن الذي كانت فيه كلمة « البدائية » أو « البدائية » تستعمل بسهولة ويظن أنها تنطبق على شعوب موجودة بالفعل باقنين على فطرتهم الأولى ، لم يمروا بطور من أطوار الحضارة . واليوم وقد زال هذا الوهم من النفوس أصبح كل كاتب يحترم نفسه لا يستسبع أن يكتب هذه الكلمة إلا إذا وضعا بين أقواس صغيرة للإشارة إلى أنها كلمة اصطلاحية ينقلها عن غيره ولا يحمل هو تبعثها .

(٢) هذا الاسم مأخوذ من لغة الهنود الحمر في أمريكا الشمالية . وهو اسم لم يتفق بعد على ضبطه ولا تحديد معناه . فهو في للشهور totem ولكن يكتب أيضاً : totam أو toodaim أو dodaine أو ododaim . ويفسر تارة بمعنى موطن العشيرة ومستقرها ، وتارة بمعنى العلامة والشعار (Reinach, ouv. cité, p. 23 ; Durkheim, ouv. cité, p. 144) .

(٣) كما في مدينة برن Berne بسويسرا حيث تعظم القبيلة . وكلمة (برن) أصلها في الألمانية جمع بير ، بمعنى فيل .

الظاهرة ؛ لأن سكانها أقل تطوراً وأقرب إلى الطبيعة الأولى من غيرهم .
ولذلك استمد منها الوقائع التي بنى عليها نظريته .
وخلاصة هذه الوقائع أن تلك الأمم في تعظيمها لألقابها تعظم في الوقت
نفسه مسمى تلك الألقاب . ولما كان الاسم مشتركاً بين الحيوان ، وبين الجند
الأعلى ، وبين أفراد العشيرة ، وكانت الصلة بين هذه المعاني الثلاثة في نظرها
صلة تجانس تام ترجعها إلى جوهر واحد ، شمل التعظيم ثلاثتها . لكن الحظ
الأكبر من التعظيم يدخرونه لهذا الاسم المشترك ، أو لتلك الصورة الجامعة
وهي الوشم أو الوشم ؛ حتى إنهم نسبوا إلى هذه الصورة خصائص عجيبة
فزعّموا أن الذي يحملها ينصر في الحرب على أعدائه ، ويوفق في تسديد
السهم إلى رميته ، وأن وضعها على القروح يسرع في التئامها ، إلى غير ذلك .
إلا أن هذا التعظيم في العادة لا يصل إلى درجة العبادة ، ولا يوحى فكرة
التدين والتقديس والتأليه . ولذلك يقضون جل أوقاتهم في حياة فطرة ،
كل يسعى لقوته منعزلاً في الجبل للاحتطاب ، أو على شاطئ البركة للصيد ؛
وليس لهم مظهر من مظاهر التدين في هذه الأحوال العادية سوى التورع
عن بعض المحظورات . وإنما يأخذ التدين حقيقته ومظهره التام عندهم في
مواسم خاصة ، تقام فيها الحفلات المرحية الصاخبة ، التي يطلقون فيها العنان
لحركاتهم العنيفة ، وصيحاتهم المنكرة ، على إيقاع الطبول ، ولحن المزامير ،
وقد ركزوا السارية التي تحمل علم العشيرة في سرّة الحفل ؛ فينتهي بهم هذا
الخماس الصاخب إلى الدهول والهديان ، بل يفضي بهم إلى انتهاك سياج
المحرمات الجنسية ، التي يحترمونها أشد الاحترام في العادة . وربما نسبوا هذا
التطور العجيب إلى حضور سر الأجداد فيهم عن طريق هذا الرمز المنصوب
أمامهم . وهكذا يبررون تقديسهم لهذا الرمز ، وعبادتهم للروح التي يرمز
إليها ، ظناً منهم أنها هي التي أحدثت فيهم هذا التحول الروحي الغريب .

ها هنا ، وها هنا فقط ، تتدخل النظرية لتكشف الغشاوة عن أعينهم ،

وتنبههم إلى ما حدث من تحول شعورهم عن منبعه وهدفه الحقيقيين ،
 وأنهم إذا كانوا يتوجهون بعبادتهم إلى مصدر هذا الأثر الجديد ، فليعلموا
 أنه ليس هو النصب ، ولا ما يرمز إليه النصب ، وإنما هو هذا الاجتماع
 الأثر نفسه ؛ فإن من طبيعة هذه الاجتماعات أن تنسلخ النفوس فيها عن
 شخصياتها الفردية ، وتمحى كلها في شخصية واحدة هي شخصية الجماعة .
 وهكذا يكون الاجتماع هو مبدأ الدين وغايته ، وتكون الجماعة إنما تعبد
 نفسها من حيث لا تشعر .

هذه النظرية تبدى صفحتها لضروب من النقد لا تحصى . وقبل كل شيء
 فإنها — ككل النظريات عن العقليات البدائية ، — تقوم على أساس
 مشكوك فيه ، ولا بد في قبوله من تحفظ بليغ ، واحتراس شديد ، ألا وهو
 تلك المعلومات التي يدونها الرحالة والسائحون عن عقائد الهنود وعواندهم ،
 والتي يبدو عليها الضعف من وجوه : (منها) أنه ليس كل السائحين على
 جانب من علوم النفس والمنطق والدين والأخلاق يكفهم لاستبطان غور
 الأمور ، ووضع الأسئلة الدقيقة المحددة في هذا الشأن ، وليسوا في غالب
 الأمر مزودين بمنهاج معين ديني أو أخلاقي ، بل هذا الجانب هو أقل
 ما يسترعى اهتمام أكثر السائحين . (ومنها) أن هذه المعلومات لا تستقى
 من آثار مكتوبة ؛ إذ الفرض أن هؤلاء الأقوام محرومون من العلوم
 والفنون المدونة ، وإنما تؤخذ من أفواه قوم لم يصلوا بعد إلى تحليل أفكارهم
 وتحديد شعورهم في هذه المسائل . فمن الراجح أنهم يسرعون إلى الإجابة
 بكلمة : « نعم ، أو لا ، من غير مراجعة لعقولهم وإحساساتهم العميقة .
 ومهما نفترض الدقة وحسن النية في السائل والمجيب ، فقد بقيت عقبة هذه
 اللغات البدائية ، التي لم تنضج أدواتها ، ولم تستكمل وسائل التعبير عن تلك
 المعاني الدقيقة الغامضة ، التي يصعب أداؤها حتى في أرق اللغات وأوسعها .
 أضف إلى هذا أنه ليس كل فرد هناك يمثل الفكرة العامة للعشيرة أو القبيلة ؛

إذ قد تختلف التفسيرات بين شخص وآخر ، بل الشخص الواحد قد يجمع متناقضات من التصورات . وليس أدل على وهن المعلومات المدونة بهذه الوسيلة من أن الكتاب أنفسهم قد يتناقضون^(١) في وصفهم لتلك القبائل . ولنجاوز الآن هذه الملاحظات العامة لننظر في أسس النظرية نفسها : يقول صاحب النظرية : إنه ينبغي أن تدرس الظاهرة الدينية في أقدم عصورها ، وأقربها إلى عهد نشأتها ؛ ويقرر أن نظام القبائل والعشائر أقدم وجوداً من نظام الأسر ، وأن قبائل أوستراليا الوسطى تمثل أقدم الأطوار المعروفة للقبائل ، فهي أحق بأن يقع عليها الاختيار للبحث والدرس .

أما المقدمة الأولى فإنها وإن كانت مبدأ سليماً في الجملة ، لمن يعنيه تكملة بحث المسألة من وجهتها التاريخية البحتة ، إلا أن اتخاذ نتيجة البحث قاعدة عامة تعرف منها حقيقة الدين من حيث هو ، يعد عملاً مجافياً لقانون المنطق السليم . أفصح لنا أن نحدد حقيقة الإنسانية من النظر في أول أطوار الجنين ، أو وهو بعد في الأدوار التي تمر بها سائر الكائنات الحية ، قبل أن تتميز أجهزته الخاصة ، وتعين وظائف أعضائه ، وقبل أن يحيا حياة مستقلة ، وقبل أن تستيقظ فيه ملكات الفهم والبيان وغيرها ؟ إن تحديد الدين بذلك المعنى الغامض الذي يتلجلج في صدر الإنسان في طور طفولته ، وهو بعد لا يستبين حقيقة شعوره ، ولا أهداف أعماله ، فساد في المنهج لا يقل عن تعريف الإنسان بالجنين . ولقد أصاب هوفدنج إذ يقول : « إنه ليس من المستطاع دائماً أن نستقي معلومات كافية عن الطبيعة الحقيقية لكائن ما ، من مجرد النظر في أصل تكوينه ؛ فإن التغييرات والنظم التي تحدث له في أثناء نموه ، قد تبرز فيه صفات وخصائص ما كنا نرى منها أدنى أثر في بدايته .

(١) من أمثلة ذلك أن مستر (مان) Man مكث سنين عديدة في جزائر اندامان Andaman ، درس فيها عوائد القوم وعقائدهم ، وكتب عنها في سنة ١٨٨٢ . ثم جاء مستر براون Brown إلى هذه الجزائر نفسها وعاش فيها أمداً طويلاً كذلك ، وكتب ملاحظاته سنة ١٩٢٢ فكان معظم كتابه نقضاً لكتاب مستر (مان) (Denis Saurat, Histoire des Religions, p. 19).

إن الطبيعة الحقيقية لكائن ما ، إنما تتكون من قانون تطوره منذ نشأته الأولى إلى صورته النهائية ،^(١) . المذهب الاجتماعي يذهب إلى أن القبائل الأقدم من نظام الأسرة ، وهي أن نظام القبيلة يمثل طوراً تاريخياً أقدم من نظام الأسرة ، فهي دعوى لا تزال يعوزها الدليل ، بل تقوم بعض الأدلة الأثرية والتاريخية على عكسها ؛ فالآثار الباقية من عهد القبائل الآرية والسامية يتبين منها أنها كانت قائمة على النظام الأسري ، الذي تتضمن فيه أفراد الأسرة في الحقوق والواجبات ، والذي يتمتع فيه الأب بأوسع السلطات على أعضاء أسرته . وإذا قرأنا الأوصاف التي ذكرها (أرسطو) Aristote و (هوميروس) Homère للشعوب المعاصرة ليونان ، والتي كانت أقرب منهم إلى الفطرة والسذاجة ، نرى أن المعيار الذي كانوا يميزون به هذه الشعوب عن الشعوب المتحضرة هو أنهم ليس لهم مجالس شورى ، وأن كل واحد منهم يتولى الحكم على زوجه وأولاده^(٢) .

وكذلك نقول في المقدمة الثالثة ، وهي أن قبائل أستراليا الوسطى تمثل أقدم نظام معروف للقبائل ؛ فهي أيضاً مسألة فيها نظر . وهذا (روبرت شميت) من كبار الباحثين ، الذين قاموا بدراسات شخصية دقيقة في أستراليا ، يقرر أن القبائل المذكورة هي أحدث القبائل الأسترالية وأكثرها تقدماً ، وأن أقدم قبائل أستراليا هم سكان جنوبها الشرقي . وهؤلاء لا يعرفون نظام الألقاب الحيوانية السالفة الذكر ، وفي الوقت نفسه توجد عندهم عقيدة «الإله الأعلى» ، بصفة واضحة . على أن اللوحة التي رسمها (دوركايم) نفسه لحياة قبائل الوسط تكفي وحدها للدلالة على أننا أمام أمة قد بعدت عن سذاجة الفطرة ، وقطعت أشواطاً واسعة في نظامها المدني والاقتصادي . يبدو ذلك جلياً فيما عندها من قواعد الزواج ، والنسب ، والملكية ، وتنظيم مواسم الصيد وغيرها . بل إن نظام التسمية

(١) Höfding, ouv. cité, p. 126.

(٢) تاريخ القانون لعل بدوى بك ، ص ١٥ .

وأحده كان يحتاج في إنشائه وتثبيته إلى عصور متطاولة للتواضع عليه بين الأمة جيلاً فجيلاً ، حتى وصل إلى هذا الوضع الهندسي الدقيق ، الذي يلاحظ فيه دائماً أن تقسم كل قبيلة إلى فصيلتين اثنتين ، لا زائد عليهما ، وأن يكون لقب القبيلة مشتقاً من جنس عام ، وألقاب الفصيلتين من نوعين متقابلين تقابل التضاد تحت هذا الجنس ، ثم تتفرع من كل فصيلة عشائرها المتعددة بألقابها المختلفة ، كأغصان الشجرة ؛ بحيث لا تشترك عشيرتان قط في لقب واحد . ولذلك عد علماء هذا الفن نظام الـ totem نظاماً مديناً ، قضائياً ، اقتصادياً ، أكثر منه نظاماً دينياً^(١) ؛ بل إن الباحثين (لانج) Lang و (فريزر) Frazer لم يريا فيه عنصراً دينياً ألبتة ، وقررا أن فكرة الدين والألوهية تكونت في هذه القبائل بعيداً عن نظام اللقب الأسرى المعروف^(٢) .

ونحن نذهب إلى هذا المذهب الأخير ، ولا نرى في هذه الألقاب والرموز عندهم إلا شعاراً قومياً يعرفهم أنسابهم ، وينمي فيهم شعور الوطنية ، وباعثة التعاون ، واحترام قانون توزيع الملكية وسائر قوانين الجماعة . فهم لا يعبدون تلك الرسوم ولا مدلولاتها ، بل لهم معبود روحي يعتمدون عليه في جلائل أعمالهم ودقائقها ، حتى إنهم ليستلمونه أو يستخبرونه أو يدعونه ليرشدهم إلى انتقاء أمثل الأسماء لأبنائهم ؛ كما أنهم في تحريمهم لبعض المحرمات إنما يستندون إلى روايات دينية متوارثة عن أسلافهم ، ينسبونها إلى أمر الله .

والعجيب أن رئيس المدرسة الاجتماعية الفرنسية يعترف بأن عدداً من قبائل أستراليا قد وصلوا إلى فكرة الإله الأعلى ، أو الإله الأحد ، وأنه كائن أزلي أبدي تسير الشمس والقمر والنجوم بأمره ، وأنه هو الذي

(١) Voir H. Hubert, Introduction à la traduction de Chantepie de la Saussaye, Manuel d'Histoire des Religions, p. XXXIX.

(٢) Durkheim, ouv. cité, p. 264.

يشير البرق ، ويرسل الصواعق ، وإليه يتوجه في الاستسقاء وفي طلب
الصحو ، وهو الذي خلق الحيوان والنبات ، وصنع الإنسان من الطين
ونفخ فيه الروح ، وهو الذي علم الإنسان البيان ، وألهمه الصناعات ،
وشرع له العبادات ، وهو الذي يقضى في الناس بعد الموت ، فيميز بين
المحسن والمسيء^(١) ثم يقرر أيضاً أن هذه العقائد كلها ليست مقتبسة
من أوروبا كما ظن تيلور ، بل أنها قديمة في هذه القبائل قبل أن يصل إليها
المبشرون الأوروبيون ، وأنهم يعبرون عن هذه العقائد بعبادات حقيقية ،
ترفع فيها الأيدي إلى السماء عند الدعاء^(٢) . يعترف دوركايم بكل هذا ،
ولكنه عند استنباط نظريته في الألوهية يضرب الذكر صفحاً عن هذه
الصورة الدينية الحقيقية ، ثم يعمد إلى ضرب من اللهو الخليع يأتيه بعض
القبائل في حفلات تضم كل شيء إلا الدين والعبادة ، ويترخص فيها
بارتكاب أعمال شاذة تنافي قواعد الأخلاق المقررة والمتبعة بانتظام عندهم .
يعمد إلى هذه الحفلات المماجزة ، فيرسم لنا منها لوحة بارزة يعرضها علينا
قائلاً : إذا أردتم معنى الدين فما هنا منبعه ومظهره .

هكذا وصل الأمر بهذا البحاثة في تقديره لعقول قرائه إلى حد محاولة
الهائم عن الحقائق ، وتسمية الأشياء لهم بغير أسمائها . فهو يريد أن يقول
لهم : إن كل حمية جنوية يثيرها مجتمع صاحب ، وكل سورة إباحية تنطلق
فيها الوجدانات من عقالها بعدوى المحاكاة ، أيا كان هدفها وباعثها ، فهي
نوع من الدين ، ولو كان سيل الشبهوات الجامحة فيها يجترف كل ضابط من
ضوابط العقول ، ويقتحم كل معقل من معاقل الآداب المحترمة في الشعب
نفسه .

إننا نرى لزاماً علينا أن ننبهها هنا إلى خطأ منهجي صريح ، وقع فيه
صاحب المنهج نفسه :

(١) Durkheim. ouv. cité. p. 412.

(٢) Id. Ibid. p. 412.

ذلك أن الذي يريد أن يصور الحالة الطبيعية للجماعة يجب عليه بمقتضى القانون الذى وضعه الرئيس^(١) أن يستقرىء هذه الحالة من سلوك غالب أفرادها فى غالب أزماتها وأمكتتها . فإذا كان من المتفق عليه أن الدين يكاد يسيطر على كل شىء فى حياة الجماعات الفطرية ، أفلا يكون من أشنع المخالفات القانونية أن تلتبس الظاهرة الدينية عند هذه الشعوب فى تلك الحالة النادرة ، وذلك المظهر الاستثنائى الذى لا يتكرر فى مجرى حياتهم العامة ، وأن نهمل ما وراء ذلك من معتقدات وعبادات ، وأخلاق وعادات ، يتألف منها هيكل الحياة الشعبية ؟ لئن كان الفيلسوف قد أصاب حين طلب إلينا أن نميز بين لونين متباينين فى حياة الجماعة الفطرية ، لقد عكس الوضع بعد ذلك ، حيث جعل الشاذ منهما قاعدة للغالب ؛ وأساء الاختيار ، حيث أخذ اللون الإباحى اللادينى ، فجعل منه حقيقة الدين .

على أنه لم يكن من العسير عليه أن يجد التفسير الحقيقى لهذا اللون الشاذ الماجن ، لو أنه وضعه فى نطاق النظم الاجتماعية والأخلاقية لهذه الشعوب ، وهى نظم تقوم على الفصل التام بين الجنسين ، وعدم اطلاع أحدهما على شىء من دخائل الآخر ؛ حتى أن المرأة لا يباح لها أن ترى الدم الناشئ عن عملية الختان للصبيان ، وكذلك الصبي يبقى مبعداً عن الشؤون الخاصة بالرجال إلى أن يحين وقت بلوغه ؛ فهناك فقط ينبه إلى فكرة الصلة الجنسية ، ولا سيما فى وقت ختانه ، حيث يحتفلون فى هذه المناسبة احتفالاً مرحاً ، كما كان يحتفل بالختان فى بلادنا الشرقية إلى عهد قريب . إلا أن الأوستراليين يبالغون فى المرح فيقدمون فيه نموذجاً تخيالياً يبهون به أذهان المراهقين إلى حياتهم المستقبلية ، مذكرين إياهم بأن هذه سنة الآباء والأجداد ، الذين يدين لهم الشعب بوجوده . ولو أننا تتبعنا تفاصيل ما يجرى فى هذه الحفلات لرأيناها كلها تدور على محور هذا اللعب والمجون ، ولرأينا بعد

(١) رئيس المدرسة الاجتماعية الفرنسية ، وهو العلامة دوركايم نفسه ، فى مؤلفه النفس :

« قواعد المنهج الاجتماعى » Les Règles de la Méthode Sociologique, ch. III, pp. 69-70.

الشقة بين هذه الملهاة الموسمية ، وبين جدّ الحياة الطبيعية و قدسيتها عندهم .
 إنه لمن السخرية والتهكم إذاً أن يعرض علينا هذا المسرح المتهتك ، باسم
 المحراب المقدس للأديان . وإنه لمن العجيب حقاً أن الفيلسوف الذي جعل
 معيار الأشياء المقدسة هو حرمة انتهاكها ، يجعل مظهر انتهاكها أو الترخّص
 فيها هو مظهر الدين وجوهره ، قائلاً : إنه لا تكاد تلمس الظاهرة الدينية
 فيما سواه
 ونعود الآن فنسلم جدلاً جميع المقدمات التي ناقشناها :
 نسلم صدق روايات الرحالة والسائحين ؛ ونسلم براءتها من التناقض
 والاختلاف ؛ ونسلم استقامة تفسيرها للوقائع ؛ ونسلم صلاحية الديانات
 البدائية لتعريف فكرة الدين بوجه عام ؛ ونسلم أن نظام القبيلة يمثل النظام
 البدائي ؛ ونسلم أن نظام أستراليا الوسطى هو أقدم نظام للقبائل ؛ ونسلم
 أن النظام التوتمي نظام ديني ؛ ونسلم أن هذه التجمعات والاحتفالات دينية
 في جوهرها وأهدافها نسلم هذا كله ، ولكن يبقى أن نعرف هل توصلنا
 هذه المقدمات مجتمعة إلى النتيجة المطلوبة . وهي أن الدين في جملته نظام
 اجتماعي ، بمعنى أنه خلقته الجماعة ليعود إليها بالعبادة والتقديس ؟
 إننا نبصرها هنا هوة سحيقة بين النتيجة ومقدماتها ، ونرى أن
 الاستنتاج يظفر بنا من مقدمات نخيلة ، إلى دعوى عريضة فضفاضة .
 ولنسجل في هذا المعنى اعترافاً قبيحاً لأحد أعضاء المدرسة الاجتماعية نفسها ،
 حيث يقول في مقدمة ترجمته لكتاب في تاريخ الأديان ما نصه : وإنه
 لا يمكن أن يقال إن الظواهر الدينية تحدث في جماعة وتختلف باختلاف
 الجماعات ، لإثبات أنها ظواهر اجتماعية حقيقية فالظواهر الاجتماعية
 الحقيقية — كما نشاهده في القوانين والقواعد الاقتصادية — ذات وجود
 خارجي مستقل عن أفراد الجماعة ؛ ونشاط الأفراد فيها إنما يحدده أو يعدّله
 مجرد تجاورهم وتعاونهم ، من غير أن يكون لهم شعور بها أو موافقة عليها .

فهل الظواهر الدينية ظواهر اجتماعية بهذا المعنى ؟ — لا شك أن جانباً كبيراً منها يبدو لنا كذلك ، وهو جانب الأنظمة والشعائر العملية ، التي حددت في قواعد ثابتة ، والتي تظل مستمرة على الرغم من إرادة الأفراد وآرائهم ... ولكن هل هذه الحالات الجماعية التلقائية هي الحالات الجوهرية في الدين ؟ وهل هي أعظم وأقدم وأشمل ظواهر الدين ؟ — إنه قد يغرينا على الجواب بالإيجاب اقتصارنا على اعتبار الديانات القديمة أو البدائية ؛ لأن بعدها عنا يمحو في نظرنا فوارق الأفراد فيها ، وينظمهم في الكتلة الإجماعية للشعب . أما إذا درسنا الظواهر الدينية وهي ماثلة أمامنا ، وفي ديانة يشترك فيها الأفراد بقلوبهم إلى حد ما ، فإن ذلك يقودنا بالطبع إلى أن نخصص جانباً عظيماً منها للابتكار الفردي ،^(١) .

هكذا استدرك أنصار النظرية على مؤسسها ، بأنه ينبغي فيها التمييز لا التعميم ، وأنه إذا كان الجانب السطحي من الدين ، أعنى رسومه ونظمه العملية ، يعد ظاهرة اجتماعية ؛ لأنه يحمل طابع الإلزام الجمعي ، وليس للفرد اختيار في تكوينه ، فإن القسم الرئيسي منه ، وهو قسم الاعتقادات والتصورات ، يأبى بطبيعته أن يكون اعتناق الفرد إياه ضربة لازب من خارج ، لا يجد فيها أدنى تجاوب مع أفكاره ووجداناته وأحاسيسه .

ذلك ولو أنعمنا النظر قليلاً لرأينا عبء الإلزام الجمعي في الشعائر الظاهرية نفسها إنما يقاسيه الفرد في ديانة قد تكونت واستقرت ، واعتنق هو مبادئها أو انتسب إليها من قبل . وليس هذا مجال بحثنا ، ولا موضوع دراستنا . وإنما الشأن في نشأة الدين ومبدأ ظهوره . فهل سمع أحد بديانة ناشئة تحمل تعاليم جديدة ، وتدعو إلى شعائر غير مألوفة ، يكون موقف الجماعة منها موقف حمل الأفراد عليها ، وإلزامهم بها ؟ أم يكون موقفها موقف المناهضة لها ، والمقاومة العنيفة لداعيها ؟ حدثنا أيتها التواريخ !

(١) Henri Hubert, Introduction à la traduction de Chantepie de la Saussaye, Manuel d'Histoire des Religions, XXVI—XXX.

وتكلمى أيتها الوقائع ! وانطقى أيتها التجارب ! ليسمع الذين يبنون نظرياتهم
 — فيما زعموا — على التواريخ والوقائع والتجارب . *مستحبات لوعقده*
 بل هلم إلى الأعجوبة الكبرى ! *استوردت القرية إلى المدينة نظرية أ*
 إن صاحب النظرية لا يكتفى بأن يكون الدين إلزاماً أدبياً يفرض به
 المجتمع على الأفراد عقائد وعبادات أياً كان موضوعها وهدفها . إنه يريد
 أن يكون موضوع العقيدة وهدف العبادة هو الجماعة نفسها ؛ وأن يكون
 الشعور الدينى فى نفس الفرد ما هو إلا انطباع آلى لصورة الجماعة فى وعيه
 محوطة بهالة من التقديس ، لما لها عليه من فضل فى قوام حياته والدفاع عن
 كيانه ؛ وأنه من أجل ذلك تختلف فكرة الإله وحدود سلطانه عند الجماعات
 باختلاف رقعة المجتمع ضيقاً واتساعاً : فإذا اختلطت العشائر واندججت
 فى فصيلة ، ثم الفصائل فى قبيلة ، ثم القبائل فى شعب ، تطورت معها فكرة
 الإله تدريجياً . . . حتى يصبح إله شعب برتمه ^(١) .

فليقل لنا إذاً : من أين جاءت إلينا فكرة الإله الأكبر ، فاطر
 السموات والأرض ؛ وعلى غرار أى جماعة طبعت هذه الصورة ؟ ثم ليقل
 لنا : كيف قامت الدعوات فى أصغر الشعوب إلى تلك العقيدة الإلهية
 السامية التى ليس لها مثال تقاس عليه فى مجتمعاتهم ولا فى غيرها ؟ إذ لا يزال
 بين الإنسانية كلها ، بل بين العالم أجمع ، وبين هذه الصورة العليا فراغ
 لا يمكن أن تملأه جماعة حقيقية ولا خيالية . *سيفعلها ويؤلفه ن ولما*
 إننا نعود فنسجل اعترافاً أخيراً من أصحاب هذه النظرية : « إن إقامة
 برهان شاف على الطابع الاجتماعى للدين لا تزال أمراً غير ممكن » ^(٢) .

أما بعد فإننا لا ننكر كل أثر للجماعات فى شأن الأديان .

(١) Durkheim, ouvr. cité, p. 412.

(٢) « Une démonstration pleinement satisfaisante du caractère social

de la religion n'est pas encore possible », (Hubert, ouvr. cité, p. XXVII).

إن الدين (كاللغة ، وأسلوب التفكير ، وأدوات التعامل ، وغير ذلك من مقومات المجتمع) هو أحد أعصاب الحياة الاجتماعية وشرائنها ، بل هو أقوى عناصرها . ومن ذا الذي ينكر أن الجماعة هي حارسة تلك المقومات وأنها هي منبها المورود للأجيال الحاضرة ، وناقلتها إلى الأجيال المقبلة ؟ غير أن المسألة ليست في صيانة الأديان القائمة وتخليدها ، بل في نشأة الديانات الجديدة وتكوينها .

ثم لا ننكر ما للجماعات من أثر خطير في التمهيد لهذه النشأة والتمكين لها ؛ فالأم حين تقف في مفترق الطرق بين القديم والجديد تستطيع في بعض لحظاتها التاريخية أن تغير مجرى تاريخها بقبولها للدين الجديد أو برفضها إياه . والداعي الذي لا يحسب إمكانات أمته ومؤهلاتها إنما هو كواضع البذر في أرض سبخة لا يلبث نباتها أن يجثث من فوقها فلا يبقى له قرار ؛ أو كالذي يعطى المريض طعاماً لا تطيقه أمعاؤه ، فلا يلبث أن يلفظه . إلا أنه لن يسوغ لنا بهذا الاعتبار أن نقول إن العقل الجمعي هو الذي يخلق الأديان ويبرزها إلى الوجود ، إلا لو ساغ لنا أن نقول إن المعدة هي التي تخلق الطعام ، وإن البصر هو الذي يحدث الضياء ، وإن المرض هو الذي يبذل الدواء تلك كلها لا شك شروط ضرورية ؛ ولكنها كما يقول أهل المنطق ليست شروطاً كاملة ، أو ليست أسباباً تامة ؛ إذ لا بد من تعاون متبادل بين الطبيب والمريض ، بين الباذل والآخذ ، بين الفاعل والقابل . وإذا صح أن يقال إن الأم تخلق زعماءها ، فمن الحق أيضاً — وبالطريق الأخرى — أن الزعماء تخلق أممها . الأمة تلد زعيمها ولادة طبيعية ، وتهيء له وسائل تلك الزعامة ؛ والزعيم يلدها بعد ذلك ولادة أخرى : روحية ، أو سياسية ، أو عسكرية ، أو فنية ، أو غير ذلك . الأمة تمثل خصوبة التربة ، وسلامة الأداة ؛ والزعيم يضع البذر ويسقيه ، ويتعهد وينميه . والزعيم يحرك الأداة ويوجهها . ويرسم طريقها ، ويقف بها عند أهدافها . بل كثيراً ما يضئ لها هو تلك الأهداف ويحدد لها ؛ وذلك حيث

تكون حاجات الأمة غامضة مشتبكة الطرق ، غير واضحة المعالم في العقل الجمعي ، فتبقى متلهفة إلى رجل الساعة الموهوب ، الذي يتركز فيه وعيها ، وتتحدد في نفسه حاجاتها ، ويكون له من الخدس أو الإلهام أو الوحي ما يبصر به وسائل تحقيقها ، ويملك من العزم والحزم ما يحكم به قيادتها ، ويبلغها إلى أهدافها . فإذا ظفرت به وألقت إليه بالمقاليد فقد أصابت رشدها ، وفتحت لنفسها صفحة جديدة من القوة والمجد . أما إذا تشعبت عليها الطرق ، واختلف الزعماء ، ولم يستبن لها وجه الاختيار ، أو أنها أساءت الاختيار فأهملت داعيها الرشيد أو أنكرته وقضت عليه بالإخفاق أو الموت ، — لا لأن دعوته تنافر وطبيعتها ، بل لأنها جهلت حقيقة نفسها ، وطاشت أحلامها — فإنها تكون حينئذ قد سلكت طريق شقائها ، وآثرت الانتحار على الحياة من حيث لا تشعر .

وهكذا يكون من المكابرة وإنكار البداهة جحد أثر الأفراد في أديان الجماعة ونظمها ؛ كما يكون من المكابرة وإنكار البداهة نفي أثر الجماعات فيها . غير أن أخشى ما نخشاه من الغلو في إياها هذا الجانب الجمعي من تلك الحقيقة المزدوجة ، أن يبعث في نفوس الأمة نزعة جبرية مشبطة ، تحمل أفرادها على القعود والتواكل ، انتظاراً لما في الوعي الجمعي من الطاقات الكامنة ، والأسباب الغامضة ؛ بدل ذلك النشيد الخماسي الذي يغري الأفاذ بالنبوغ ، ويملأهم بالأمل في دفع الجماعة إلى الأمام .

المذهب التعليمي أو مذهب الوحي :

تشارك المذاهب المتقدمة كلها في أن العقيدة الإلهية وصل إليها الإنسان بنفسه ، عن طريق عوامل إنسانية (سواء أكانت تلك العوامل من نوع الملاحظات والتأملات الفردية ، أم من جنس التأثيرات والضرورات الاجتماعية اللاشعورية) .

في الطرف المقابل لهذه النظريات كلها يقرر المذهب التعليمي أن الأديان لم يسر إليها الإنسان ، بل سارت هي إليه ، وأنه لم يصعد إليها ، بل نزلت عليه ؛ وأن الناس لم يعرفوا ربهم بنور العقل ، بل بنور الوحي . هذه النظرية التي أخذت بها أوروبا طوال القرون الوسطى ، وأيدها بعض علماء التاريخ حتى في القرن التاسع عشر ، لا تزال هي المذهب السائد عند كبار رجال الدين عندهم . كما أننا نجد في الكتب السماوية مصداق الجانب الإيجابي منها . فهذه الكتب تقرر أن الله سبحانه لما خلق أبا البشر كرمه وعلّمه حقائق الأشياء ، وكان فيما علّمه : أنه هو خالق السموات والأرض وما فيهما ، وأنه هو خالق الناس ورازقهم ، وأنه هو مولاهم الذي يجب طاعته وعبادته ، وأنه سيعيدهم إليه ويحاسبهم على ما قدموا ؛ ثم أمره أن يورث علم هذه الحقيقة لذريته ؛ ففعل ، وكانت هذه العقيدة ميراث الإنسانية عن الإنسان الأول . نعم إن الناس لم يكونوا كلهم أوفياء بهذه الوصية المقدسة ، بل إن أكثرهم وقع في الضلال والشرك ؛ ولكن هذا التعليم الأعلى لم يمح أثره محواً تاماً من البشرية . ولذلك ظلت فكرة الألوهية والعبادة بوجه عام مستمرة في جميع الشعوب . على أن العناية السماوية بهذا التعليم الروحي لم تقف به عند الإنسان الأول ؛ بل ما زالت تتعهد به الأمم في فترات تقصر أو تطول ، وجعلت تذكروهم به على لسان سفراء الوحي من الأنبياء والمرسلين . وإن كتب الديانات العظمى لتنسب كلها إلى هذا المصدر السماوي .

نظرة جامعة

والآن وقد طوفنا بك في مسالك متشعبة من الرأي في أصل العقيدة ومنشئها ، نريد أن نلقى معك نظرة شاملة ، نضم بها أطراف البحث ، ونحاول فيها التوفيق بين مختلف مذاهبه .

وسيكون سبيلنا في هذا التوفيق — بعد أن ننحى نظريتين اثنتين^(١) من هذه النظريات — أن نحفظ من كل نظرية بجانبها الإيجابي (أعني إثباتها لصحة مسلكها) دون جانبها السلبي (وهو إنكارها لسائر المناهج). وبذلك يعود الاختلاف بينها اختلاف تعاون وتكامل، لا اختلاف تعاند وتناقض. والواقع الذي لا مرية فيه هو أن مطلب الألوهية مطلب توافرت عليه الفلسفات والنبوات، وأن دلائله البرهانية ماثلة في الأنفس وفي الآفاق، وأن بواعثه النفسية مركوزة في العقول وفي الوجدانات. غير أن الناس ليسوا على درجة سواء في سرعة الاقتناع بكل هذه الدلائل، ولا في تيقظ انتباههم بكل هذه الوسائل. فرب امرئ يغلب عليه الانطواء على نفسه، فيتأثر بالإيحاء الذاتي أكثر مما يؤثر فيه الإيحاء الخارجي؛ وآخر على عكس ذلك. والمتأثرون بالأحداث الخارجية فيهم من يأسر لبه جمال المشاهد وجلالها، ومن لا يهز قلبه إلا قوارعها ومروعاتها؛ ورب امرئ يعنى من هذه الأحداث بجانبها النفس الإنساني، وآخر يهتم بجانبها المادى العالمى. والمنظورون على أنفسهم منهم يغلب تفكيره وجدانه، ومنهم من تغلب عاطفته فكرته... وإلى ذلك كله، فمن الناس من تلفته نظرة عابرة، أو لمحة خاطفة، ومن لا يتنبه إلا بصدمة عنيفة أو أزمة شديدة، ومن لا تتكون عقيدته إلا من تضافر جملة من العوامل المختلفة، ومن يمر على كل هذه الدلائل وهو غافل، فلا تستيقظ فيه بواعث الاعتقاد حتى تبين له الدلائل تديناً، أو يلقنها تلقيناً. وهل الباحثون الذين عرضنا نظرياتهم آنفاً إلا آحاد من الناس، يغلب على كل واحد منهم مزاجه الخاص في الاستنباط، وأسلوبه المختار في الاقتناع؟ فكان من الطبيعي أن يبدأ كل منهم عقيدته

(١) نعني بهما نظرية « الرمزية » التي تجعل موضوع العقيدة فكرة خيالية، ونظرية « تأليه الجماعة » التي تعترف بأن موضوع الدين حقيقة وجودية، ولكنها تضع مكان الحقيقة التي يتوجه إليها المتدين بعقله وقلبه حقيقة أخرى لا شعورية. فهاتان النظريتان مختلفتان عن سائر النظريات اختلافاً جوهرياً يجعل مهمة التوفيق في شأنهما عبيرة شاقة.

من الطريق الذي هو أكثر إليه تنبهاً ، وأشد له إلفاً ، وأقوى به تأثيراً ؛ ثم تتلاحق عليه الدلائل الأخرى بعد ذلك . وهكذا كان منهم من استمد إيمانه من تأملاته في مشاهد الطبيعة ، وآخر كانت عقيدته وليدة تجاربه في عالم الأرواح ، وثالث استيقظ وعيه الديني من ملاحظة نفسية في حياته العادية ، ورابع من تحليله لبعض المعاني العقلية ، وخامس استنتاجاً من القوانين الأخلاقية ، وسادس لم يرفع رأسه إلى هذه الحقائق العليا إلا بعد أن تلقاها من طريق التعاليم الدينية . وهذه كلها طرق مؤدية للغاية . وإنما عرض الخطأ لهؤلاء المفكرين الذين شرحنا نظرياتهم آنفاً من جهة أن كل واحد منهم ، حين وصف الطريق التي سلكها ، نسي سائر الطرق ، وجعل الأولية التي أحسها من نفسه لبعض الدلائل أولية لها عند الكافة . فاتخذ نفسه مقياساً عالمياً بغير بينة . ولو أن كل باحث وقف بالنتيجة عند ما تثبتت مقدماتها ، لقرر أن المنهج الذي سلكه إنما يصور نشأة العقيدة عنده وعند من يشاكله في مشربه ؛ ولكنهم جعلوا هذه الحقائق النسبية حقائق مطلقة ، فكان ذلك مثار النزاع والاختلاف .

ولو أننا طلبنا الحق المجرد في هذه المسألة لألفيناه ينتظم في كلمتين : (١) أن آيات الألوهية مبسوطة في كل شيء . (٢) أن كل فئة من الناس لها طريق مسلوكة في الاسترشاد ببعض تلك الآيات قبل بعض . وهذه الحقيقة المزدوجة يقررها القرآن في أوضح بيان ؛ حيث يقول في المقدمة الأولى : « إن في السموات والأرض آيات للؤمنين ، وفي خلقكم ، وفي الأرض آيات للوقنين ، وفي أنفسكم ، وسرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » ؛ ويقول في المقدمة الثانية : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » ، ولكل وجهة هو موليها ، ولكل قوم هاد .

ولا جرم أنه من أجل هذا الاختلاف في وسائل الاقتناع عند الناس ، تنوعت في القرآن وسائل الدعوة إلى الله ، وصرفت فيه الآيات تصريفاً بليغاً . حتى إن الذي يستعرض أساليب الهداية القرآنية إلى عقيدة الألوهية

يجدها قد أحاطت باطراف هذه المسالك ، وأشعبت تلك النزعات جميعاً ؛ بل ربما زادت في كل منهج عناصر جديدة ، لم يفطن إليها الباحثون المذكورون .

فإن شئت التحقيق فإليك نماذج قرآنية من هذه المناهج على الترتيب :
 اقرأ ، في المنهج الطبيعي ، أمثال قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم : كيف بنيناها ، وزيناها ، وما لها من فروج ؛ والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، وقوله : « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، وقوله : « فالتق الأصباح ، وجعل الليل سكناً ، والشمس والقمر حساباً ، وقوله : « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون ؟ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ أفلا تبصرون ؟ » .

ويزيد القرآن في هذا الباب عنصراً جديداً ، وهو عنصر الاختلاف بين المتشابهات ، اختلافاً لم يتبهاً للعلم البشري معرفة أسبابه ، ولا التحكم في عوامله ، ولا التنبؤ به قبل ظهوره ؛ لأنه ، كما يقول (وليم جيمس) ، يرتبط بأحوال ذرية دقيقة ، لا تخضع لشيء من أنواع الملاحظة ، ولأنه لا يتبع حالة خاصة من أحوال البيئة الطبيعية ونحوها ، بل يجيء مع كل الحالات الممكنة لهذه البيئة ، ومع ذلك كله تراه يسير في نظام غاية في الإحكام .

هذا الاختلاف البديع مع اتحاد البيئة والعوامل الطبيعية الظاهرة ، تجد التنبيه على موضع العبرة منه في قوله تعالى : « وفي الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل ، صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، وقوله : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، وقوله : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرايب سود . ومن الناس والدواب والأنعام

مختلف ألوانه كذلك ، .
 وأخيراً يعنى القرآن عناية خاصة ، في هذا الجانب التكويني ، بظاهرة الحياة التي حيرت العلماء فيقول : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ، ويقول : « أفرايتم ما تمنون ؟ أفأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ ... أفرايتم ما تحرثون ؟ أفأنتم تزرعون أم نحن الزارعون ؟ ، ويقول : « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ، .
 هذا كله في الشطر الأول من المنهج الطبيعي .

فإذا انتقلت إلى الشطر الثاني منه تجد أمثال قوله تعالى : « ومن آياته يرثكم البرق خوفاً وطمعاً ، . وقوله : « يسبح الرعد بحمده ، والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ، ثم لا يكتفي القرآن ها هنا بالتنبيه إلى الحوادث المروعة الواقعة بالفعل ، بل يضيف إليها الإنذار بالأحداث المتوقعة أو المحتملة ، فيقول : « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ؟ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ؟ ، . ويقول : « أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض : إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء ، .
 أما المنهج الروحي فترى عناصره مبثوثة أيضاً في كثير من الآي .
 (فبدأ) استقلال الروح البشرية وانفصاله عن الجسم وعن الروح الحيواني في هذه الحياة ، (ومبدأ) بقاء هذا الروح الإنساني بعد الموت في حالة برزخية بين الدنيا والآخرة ، (ومبدأ) تعلق أرواح الموقى بشؤون أهل الدنيا ... هذه المبادئ كلها نراها مقررة في مثل قوله تعالى : « وهو الذي يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليقتضى أجل مسمى ، ، وقوله : « الله يتوفى الأنفس حين موتها ؛ والتي لم تمت ، في منامها ، .
 وقوله : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ؛ فرحين بما آتاهم من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ، وقوله في شأن أهل الشقاوة وهم في قبورهم : « النار يعرضون

بل المذهب الاجتماعي نفسه إذا عدنا إلى أساسه الصحيح ، وهو تقرير ما للبيئة والوراثة من سلطان بليغ على نفوس الأفراد ، وما لها من أثر في تكوين آرائهم وعقائدهم ، يسجله القرآن حقيقة واقعة : « بل تتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون ، ... إلا أن القرآن حين يقرر هذا الأمر الواقع لا يذكره إلا في معرض التقرير والذم ، ناعياً على العامة رضاهم بما فيه من استعباد فكري ، وهبوط عن عرش الكرامة الإنسانية إلى مستوى القطعان من الماشية التي تسير وراء كل ناعق : « أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟ » ، ولذلك نراه يهيب بالناس أن يميزوا الخبيث من الطيب ، وأن يلتمسوا مثلهم العليا في أهل الفضائل : « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ، . وفي هذا المعنى تقول الحكمة النبوية : « لا تكونوا إمّعة : تقولون إن أحسن الناس أحسناً ، وإن ظلموا ظلموا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا ، » (١) .

أما كيف تتحرر العقول من هذا الأسر الاجتماعي القاهر ، فإن القرآن يعلن أنه ليس لذلك إلا وسيلة واحدة ، وهي التفكير الفردي الهادي ، المتحرر من كل القيود إلا قيود البداهة والمنطق السليم : « قل إنما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تفكروا ، » (٢) .

(١) رواه الترمذى في باب الإحسان والعفو ، من أبواب البر والصلة .

(٢) تأمل جيداً هذه الوصية الحكيمة ، تر فيها وصفاً للداء والدواء جميعاً : فهي قبل كل شيء تقرير ضمنى للحقيقة الواقعة ، وهي أن العقل الجمعي بطبعه عقول أعضائه بطابعه المشترك ، ويجمعهم يفكرون عند اجتماعهم بأسلوب مخالف لتفكيرهم عند الأفراد ؛ ولذلك تدعو الآية الكريمة كل فرد من الجماعة أن يخلو بنفسه أو برفيق واحد « مثنى وفردى » ليكون في بعض اللحظات بعيداً عن تأثير البيئة وتيارها الجارف . وإلى جانب هذا الاعتراف بسلطان العقل الجمعي ونفوذه الفعلي في الأفراد ، تشير الآية إلى أن ما تفرره هذه العقلية المشتركة ليس هو دائماً أقرب القرارات إلى الصواب ؛ ولذلك تحول كل فرد حقه في الحرية الفكرية والنقد =

وأخيراً نرى المذهب التعاليمي سارياً في القرآن كله ، إلى جانب ما فيه من التوجيه المستمر إلى الاعتبار بتلك الآيات الواضحة ، والدلائل اللائحة ، في الأنفس والآفاق . فالقرآن يقرر أن الرحمة الإلهية لم تكف بدلائل العقل ، حتى أيديتها بشواهد النقل ؛ وأنها قطعت حجة كل غافل ، وكل متواكل ، فأرسلت رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، « أن تقولوا إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟ » . هكذا يلتقي في محيط القرآن ما رأيناه قد تشعب عند العلماء من مسالك الاعتبار ، ومذاهب البحث والنظر .

وإنه لن يسع الباحث المنصف ، متى تحقق من هذه الإحاطة العلمية الشاملة ، إلا أن يرى فيها آية جديدة على أن القرآن المجيد ليس صورة لنفسية فرد ، ولا مرآة لعقلية شعب ، ولا سجلاً لتاريخ عصر ؛ وإنما هو كتاب الإنسانية المفتوح ، ومنهها المورد : فهما تتباعد الأقطار والعصور ، ومهما تعدد الأجناس والألوان واللغات ، ومهما تتفاوت المشارب والنزعات ، سيجد فيه كل طالب للحق سبيلاً مهدياً ، يهديه إلى الله على بصيرة وبينة .

« ولقد يسرنا القرآن للذكر . فهل من مدكر ..! » . (سورة القصص)

« يسرنا القرآن للذكر » . (سورة القصص)

« يسرنا القرآن للذكر » . (سورة القصص)

« يسرنا القرآن للذكر » . (سورة القصص)

« يسرنا القرآن للذكر » . (سورة القصص)

== التزیه لهذه المقررات العامة ، استصلاحاً لما فيها من زینع وانحراف ، واستبقاءً لما فيها من خیر ورشاد .

للمراجعة

- ١ -

في المكتبة العربية

المعاجم اللغوية :

القاموس المحيط ، ولسان العرب ، والمصباح ، وغيرها .

الفهارس :

الفهرس لابن النديم .

كشف الظنون لحاجي خليفة .

الموسوعات :

دائرة المعارف العربية للبستاني .

دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدى بك .

المؤلفات الخاصة :

ابن رشد : فصل المقال ، فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال

(طبع بالجزائر سنة ١٩٤٢ مع ترجمته الفرنسية لجوتيه)

المفغور له الأستاذ الأكبر { الدين والوحي والإسلام (مطبعة عيسى الحلبي)
مصطفى عبد الرازق }

تمهيد لدراسة تاريخ الفلسفة الإسلامية

(مطبعة عيسى الحلبي)

المشير أحمد عزت باشا : الدين والعلم (لجنة التأليف ١٩٤٨)

الدكتور حب الله : الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية (مطبعة عيسى الحلبي)

الأستاذ عباس العقاد : (الله) كتاب في نشأة العقيدة الإلهية

(دار المعارف ١٩٤٧)

عبد الرحمن عزام باشا : الرسالة الخالدة

- على بدوى بك : تاريخ القانون
 الأستاذ على النشار : نشأة الدين (دار نشر الثقافة بالاسكندرية ١٩٤٩)
 وليم جيمس : إرادة الاعتقاد ، ترجمة الدكتور حب الله
 (مطبعة عيسى الحلبي)

فيها كتب
 - ٢ -

في المكتبة الأوروبية

- ARISTOTE : *Ethique à Nicomaque* (Paris, Garnier).
 " *Métaphysique* (Paris, Belles Lettres).
 BASTIDE, (Roger) : *Eléments de Sociologie Religieuse* (Paris, Colin, 1947).
 B. St-HILAIRE : *Devoirs Mutuels de la Philosophie et de la Religion, dans Mahomet et le Koran* (Paris, Didier, 1865).
 BERGSON : *Les Deux Sources de la Morale et de la Religion*, (Paris, Alcan, 1932).
 BOUTROUX, (Emile) : *Morale et Religion* (Paris, Flammarion, 1925).
 BOUTROUX, (Emile) : *Science et Religion* (Paris, Flammarion, 1947).
 BURNOUF, (Emile) : *Science des Religions* (Paris, 1880).
 CHACHOIN : *Evolution des Idées Religieuses et des Religions* (Paris, 1913).
 CHATEL (Abbé) : *Code de l'Humanité* (Paris, 1838).
 COMTE, (Auguste) : *Cours de Philosophie Positive*.
 DESCARTES : *Méditations*.
 DURKHEIM : *Formes Elémentaires de la Vie Religieuse* (Paris, Alcan 1937).
 DURKHEIM : *Les Règles de la Méthode Sociologique* (Paris, Alcan, 1927).
 FRANCK : *Dictionnaire des Sciences Philosophiques* (Paris, Hachette, 1885).
 GOURD, (J. J.) : *Philosophie de la Religion* (Paris, Alcan, 1911).
 GUYAU : *Irreligion de l'Avenir* (Paris, 1880).
 HAUSER : *Evolution Intellectuelle et Religieuse de l'Humanité* (Paris, Alcan, 1920).
 HCEFFDING, (Harald) : *Philosophie de la Religion* (Paris, Alcan, 1909).

- HUBERT : *Introduction à la traduction française du Manuel d'Histoire des Religions, par Chantepie de la Saussaye* (Paris, Colin, 1904).
- JEVONS : *An Introduction to the History of Religion* (Londres, 1896).
- KANT : *La Religion dans les Limites de la Raison* (Kœnigsberg, 1794).
- KANT : *Critique de la Raison Pratique* (Paris, Presses Univ. 1943).
- LALANDE : *Vocabulaire Technique et Critique de la Philosophie* (Paris, Alcan, 1928).
- LONGUET : *L'Origine Commune des Religions* (Paris, Alcan, 1921).
- MAYER, (Michel) : *Instructions Morales et Religieuses* (Paris, 1885).
- MULLER, (Max) : *Origine et Développement de la Religion* (Londres, 1873).
- PERISSE, (Sylvain) : *Science et Religions* (Paris, 1908).
- PINARD DE LA BOULLAYE : *Etude Comparée des Religions* (Paris, Beauchesne, 1929).
- PLATON : *Les Lois* (Paris, Belles Lettres).
- REINACH, (Salomon) : *Orpheus* (Paris, 1909).
- REVILLE : *Prolégomène à l'Histoire des Religions* (Paris, 1878).
- SABATIER, (Auguste) : *Esquisse d'une Philosophie de la Religion* (Paris, Fischbacher, 1897).
- SAURAT, (Denis) : *Histoire des Religions* (Paris, Denoël, 1933).
- SCHLEIRMACHER : *Discours sur la Religion* (Berlin, 1799).
- SCHMIDT : *Origine et Evolution de la Religion* (Paris, Grasset, 1931).
- SPENCER, (Herbert) : *Premiers Principes* (Londres, 1863).
- » — — — *Principes de Sociologie* (Londres, 1879).
- TYLOR : *Civilisation Primitive* (Londres, 1871).
- VAN DER LEEUW : *La Religion dans son Essence et ses Manifestations* (Paris, Payot, 1948).

- HUBERT : Introduction à la tradition française de la pensée
 l'histoire des religions par Chatelet de la Sorbonne
 Paris, Colin, 1902.
- JEVONS : An Introduction to the History of Religion, London,
 1880.
- KANT : La Religion dans les limites de la raison (Königsberg,
 1794).
- KANT : Critique de la Raison Pratique (Paris, Presses Univ.
 1911).
- LALANDE : Philosophie Technique et Critique de la Philosophie
 plus (Paris, Alcan, 1928).
- LONGUET : L'Origine Comenne des Religions (Paris, Alcan,
 1911).
- MAYER (Michel) : Les Religions Modernes et Religieuses
 1882.
- MULLER (Max) : Origine et Développement des Religions
 (London, 1871).
- PERISSÉ (Sylvain) : Science et Histoire des Religions
 PARIS DE LA BOULLAYE : Essai Comparatif des Religions
 Paris, Beauchesne, 1910.
- PLATON : Les Lois (Paris, Belles Lettres),
 1924.
- REINACH (Salomon) : (Paris, 1901-1902).
- REVILLE : Prolegomenes à l'Histoire des Religions (Paris, 1878).
- SARATHE (Auguste) : Essai de Philosophie des Religions
 Paris, Fischbacher, 1891).
- SAURAT (Denis) : Histoire des Religions (Paris, Denoël, 1911).
- SCHLEIERMACHER : Discours sur la Religion (Berlin, 1799).
- SCHMIDT : Origine et Évolution de la Religion (Paris, Grasset,
 1931).
- SPENCER (Herbert) : Principes de Sociologie (London, 1877).
- TYLOR : Primitive Culture (London, 1871).
- VAN DER LEEUW : La Religion dans son Évolution et son
 (Paris, Payot, 1928).
- WILSON (James) : Introduction to the Study of Religion (London,
 1913).
- WILSON (James) : Introduction to the Study of Religion (London,
 1913).
- GUYAU : L'Évolution de la Religion (Paris, 1911).
- HAUSER : Philosophie der Religion (Paris, Alcan, 1901).
- HEPPNER (Hans) : Philosophie der Religion (Paris, Alcan,
 1901).

فهرس تحليلي للمباحث

المقدمة ١ - ١٨

عرض سريع لتاريخ علم الأديان

العصر الفرعوني ١ - العصر الإغريقي ٣ - العصر الروماني ٩

العصر المسيحي ١٠ - العصر الإسلامي ١١ - العصور الحديثة ١٤

البحث الأول

في تحديد معنى الدين ٢١ - ٤٦

المعنى اللغوي :

معاجمنا العربية : قلة غناها وسوء تأليفها ٢١ - محاولة رد أشتات المعاني

إلى معنى واحد ٢٣

المعنى العرفي :

نماذج من التعريفات ٢٦ - تصنيف التعاريف ونقدها ٢٩

تحليل الفكرة الدينية في نظر المتدين

من الوجهتين : الموضوعية والنفسية :

العناصر الموضوعية :

الإله ذات ، لا فكرة تجريدية ٣٣ - الإله ليس مادة ٣٣ - الإله

ذو تصرف اختياري ٣٤ - الإله يهيمن على شؤون الإنسان ٣٤ -

الوثنيات لا تعبد المادة في الحقيقة ٣٤ - قصة معبود الزنوج ٣٥ (حاشية)

تمييز النظرة الدينية عن النظرتين النفسية والطبيعية ٣٦ - تعريف القانون

العلمي ٣٧ (حاشية) - تمييز النظرة الدينية عن النظرة الفلسفية ٣٧ -

الفرق بين التدين ومناجاة الأرواح ٣٧ - الفرق بين التدين وبين السحر

بأنواعه ٣٨ - تصوير الأهداف الثلاثة ٣٩

العناصر النفسية :

- الفرق بين الخضوع الديني والخضوع الطبيعي ٤٠ - هل تمحي ظاهرة الموت ؟ ٤٠ (حاشية) - الإيمان جماع أمل وحذر ٤٢ - الإلحاد أمن غافل ، أو يأس قاتل ٤٢ - الأديان تمهد لتقدم العلوم ٤٣ - العلوم الطبيعية جبرية ٤٣ - لا جديد في الكون إلا بفعل إرادة عاقلة ٤٣ العلوم الواقعية تفحص الآلة ولا تفكر في مخترع الآلة ٤٤ - إغفال هذا التفكير هبوط إلى مستوى الحيوانية ٤٤
ضم العناصر المستخرجة من هذا التحليل ٤٤ - المآخذ على تعريف المدرسة الاجتماعية ٤٥

البحث الثاني

في علاقة الدين بأنواع الثقافة والتهديب ٤٩ - ٧٠

الدين والأخلاق :

- علاقة الدين بالأخلاق من الوجهة النظرية ٤٩ - علاقة الدين بالأخلاق من الوجهة التاريخية ٥٠ - معنى الدين والخلق في المحادثات العصرية ٥١

الدين والفلسفة :

- وحدة الموضوع فيهما ٥٣ - الأصول العامة التي تنفصل فيها الفلسفات المادية وبعض الفلسفات الروحية عن الأديان ٥٤ - الفلسفات الروحية التي تتفق مع الأديان في الأصول العامة تختلف عنها من بعض الوجوه : (١) رأى الفارابي في كنه هذا الاختلاف ، ونقضه ٥٥ - (٢) رأى ابن سينا ، ونقده ٥٧ - (٣) آراء علماء الغرب ٥٧ - مناقشة هذه الآراء ٥٩ (٤) رأينا في حقيقة الفرق بين الدين والفلسفة ٦٢

الدين وسائر العلوم :

مراتب العلوم من حيث غاياتها المباشرة ٦٦ - مراتب العلوم من حيث مقومات موضوعاتها ٦٧ - لا اشتراك بين الدين والعلوم في موضوع ما ٦٧ - خدمة العلوم للأديان من وجهين ٦٧ - لا يمكن عقلا أن يوجد تعارض بين الأديان والعلوم نفسها ٦٨ - تفسير المصادمات التي وقعت بين حملة الأديان وحملة العلوم ٦٨

البحث الثالث

في نزعة التدين ، ومدى أصالتها في الفطرة ٧٣ - ٩٥

مدى أقدمية البيانات في الوجود :

نظرية أدباء القرن الثامن عشر والسوفسطائية ٧٣ - انهيار هذه النظرية في العصر نفسه ٧٤ - لم توجد أمة بغير دين : شهادات العلماء ٧٥

مصبر البيانات أمام تقدم العلوم :

نظرية القرن التاسع عشر : أوجيست كونت والأدوار الثلاثة ٧٧ - مناقشة هذه النظرية ٧٧ - التدين نزعة خالدة : شهادات العلماء ٨٠ - التحليل العلمي ينتهي إلى الإيمان بالغيب في العالمين الأكبر والأصغر ٨١ - العبرة العملية في التعبير القرآني عن بدء الخلق ٨٢ (حاشية) - التحليل العلمي ينتصر لقضية الغيب في طرفي الأسباب والغايات ٨٣ - الاعترافات العملية ٨٧

بناجيع النزعة الدينية في النفس البشرية :

نزعة التدين امتداد لقوى النفس الثلاث : (قوة الفكر) في التطلع إلى الأسباب الأولى والغايات البعيدة ٨٨ - (وقوة الوجدان) في إشباع العواطف النبيلة ٩٠ - (وقوة الإرادة) بتكوين البواعث والدوافع القوية ٩٠

وظيفة الأديان في المجتمع :

التدين أقوى كفالة لاحترام القانون ٩١ - الإنسان أسير فكرة
وعقيدة، لا كما يزعم كارل ماركس ٩١ - ليس في العلوم والثقافات وحدها
ضمان للسلام : العلم سلاح ذو حدين ٩٢ - حاجة المجتمع إلى الدين
والأخلاق : شهادات العلماء والساسة والقواد ٩٣ - الرباط الروحي وتماسك
المجتمع ٩٤

البحث الرابع

في نشأة العقيدة الإلهية ٩٩ - ١٦٥

دعائها في العقل الفريزي :

قانونا السيية والغائية ٩٩

عواملها في الوعي المتبفظ والتصور المتوفر :

ما الأسباب المباشرة التي أيقظتها في النفوس ؟ ١٠١

الوضع التاريخي للمسألة :

خطأ هذا الوضع في وسائله وفي غايته ١٠٣ - نقد المذهب التطوري

بوجه خاص ١٠٥ - التطور بين الأديان السماوية ١٠٦ (حاشية)

الوضع التعليمي للمسألة ، واختلف المذاهب فيه :

المذاهب الكونية أو الطبيعية ١٠٩ - الاعتراضات عليها والإجابة

عنها ١١٣ - المذاهب الروحية ، المشهورة باسم الحيوية ١٢١ - المذاهب

النفسية : (١) نظرية ساباتييه ١٢٩ - (٢) نظرية برجسون ، وقدها ١٣٣

(٣) نظرية ديكرت ١٣٧ - المذهب الأخلاقي ونقده ١٤٠ - المذهب

الاجتماعي ، ومناقشته ١٤٤ - المذهب التعليمي أو مذهب الوحي ١٥٧

شالمتسا

نظرة جامعة ١٥٨

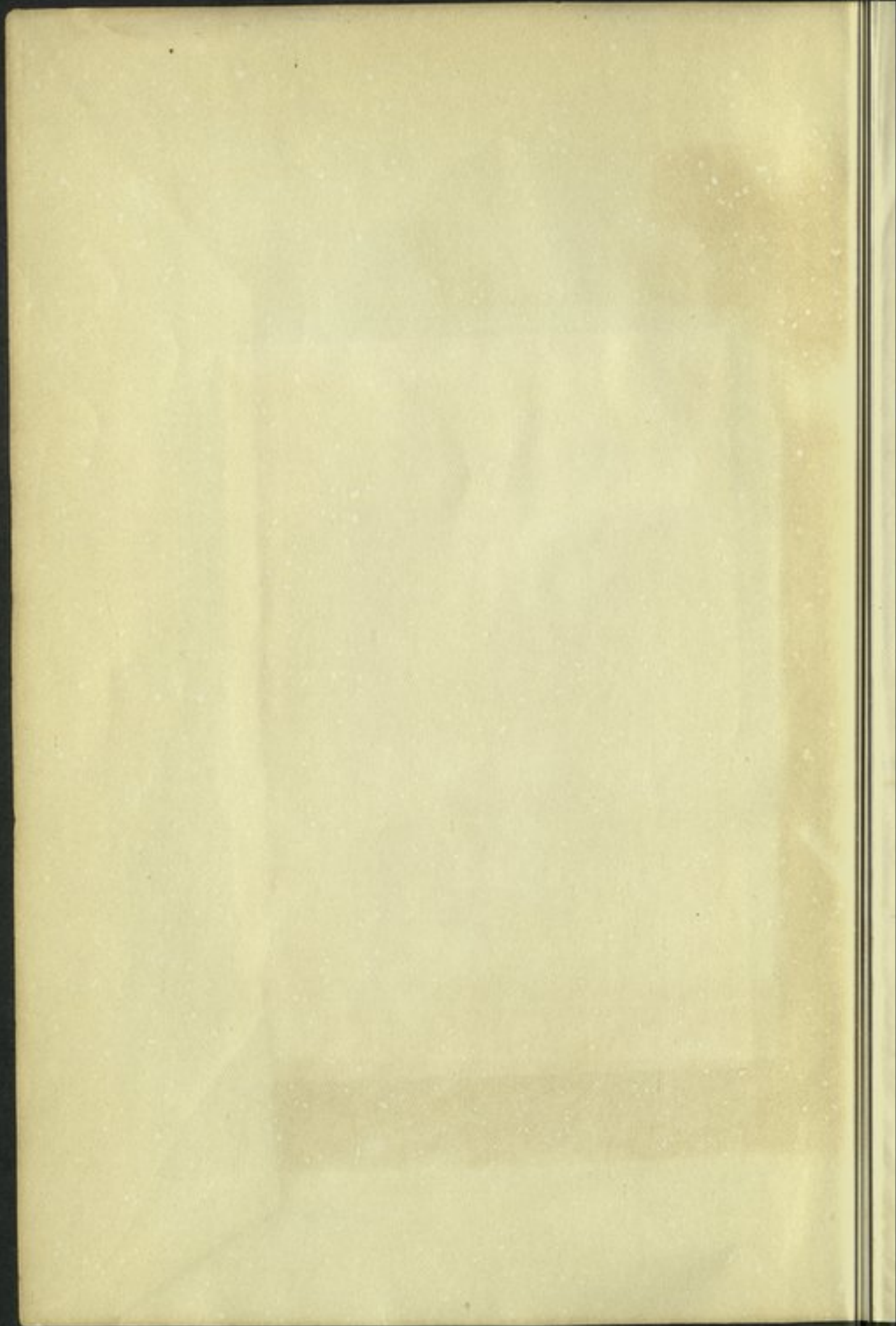
رقم	صفحة	المراجع	نظرة	جامعة
٦	٥	(قيسله)	المراجع العربية ١٦٧	
٧٧	٧	١ / صفح ٠٦	المراجع الأوروبية ١٦٨	
٧٧	١٠	٠١ / صفح ٠٦	الفهرس ١٧١	
٧٧	١٠			
٧٧	١١	(قيسله)	Robert	Harper
٧٧	١٢	٤	Taylor	Taylor
٧٧	١٦	٤	Civilization	Civilization
٦٤	٧		تاريخ	تاريخ
٥٧	١٥		تاريخ	تاريخ
٧٧	١١		تاريخ	تاريخ
٧٥	٨		تاريخ	تاريخ
٧٥	٦٦		٩	٩
٧٨	١٢		٩	٩
٦٠٦	١٠		Account	Account
١١١	٢٠		Account	Account
٦١١	٦	(قيسله)	Account	Account
٥٦١	٦	(قيسله)	Account	Account
٦٦١	٣١		Account	Account
١٥٦	٨	٤	Account	Account
١٤٦	٧٦		Account	Account

استدراك

٨٥١ بحاله فليكن

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣	٤	(حاشية)	المجموعة
٢٧	٧	وصفحة ٣٠ سطر ١	هربرت
٢٧	١٠	« ٣٦ سطر ١٠	تايلور
٢٧	١٠		المدنيات
٢٧	١١	(حاشية)	Robert
٢٧	١٢	«	Taylor
٢٧	١٣	«	Civilisations
٣٢	٧		المتدينين
٥٧	١٥		رقيقاً
٦٣	١١		قراراتها
٧٥	٨		لجميع الأديان
٧٥	١٣		هو
٨٧	١٢		R.
١٠٢	١٠		ascendent
١١١	٢٠		سورا
١١٩	٣	(حاشية)	sagré
١٣٥	٣	(حاشية)	المغلقة
١٣٦	١٤		موجياً
١٤٥	٨	«	dodaine
١٤٦	١٧		العنيفة

١١٣ - المذاهب الروحية، المشهورة باسم الخيرية ١٢١ - المذاهب
 النفسية ١٢١ - نظرية المذاهب ١٢٩ - (٢) نظرية برجسون، ومذاهب
 (٣) نظرية ريكورت ١٢٧ - المذهب الأخلاقي ومذاهب ١٤٥ - المذهب
 الاجتماعى، ومذاهبه ١٤٤ - المذهب التعليمى أو مذهب الرسمى ١٥٧



DATE DUE

PAFET LIB

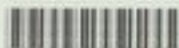
~~2 APR 1987~~

AM. UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

290:D21dA:c.1

دراز، محمد عبد الله
الدين

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01001791

290:D21dA

دراز - محمد عبد الله

290
D21dA

290
DZ1dA
C.1